

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: إرشاد المتدبر

المؤلف: د. رأفت محمد رائف المصري

موضوع الكتاب: دراسات قرآنية

عدد الصفحات: 313 صفحة

عدد الملازم: 19.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 17*24

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

التقييم الدولي: 978-9921-815-85-6

القاهرة - جمهورية مصر العربية

٠١٠١٢٣٥٥٧١٤

٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار البشير



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة
محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم.
حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا
يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة
نشر أية معلومات أو صور من هذا
الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

تَكْوِينُ الْمَلَكَةِ التَّقْسِيرِيَّةِ



إِبْرَيْشَادُ الْهَيْتِكُنْ

إِلَى

نُظُمِ الْأَهْلِ الْأَوَّلِ الْبَدِيعِ فِي كَسْبِ الْفَوَائِدِ الْفَرْدَا

تَأْلِيفَ

د. رَأْفَتِ مُحَمَّدِ رَأْفِ الْمَصْرِيِّ

المشرف العام على مؤسسة مصر

لله الحمد وله الشكر في الأولى والآخرة، وهو السميع العليم.

أهدي هذا الكتاب إلى العاكفين على كتاب الله آناء الليل وآناء النهار؛ يستظهرون آياته..
ويتفكرون في أسرار..

ويرتعون في رياضه؛ حتى ملأ عليهم حياتهم بكل تفاصيلها.. ورأوا أن قد أوتوا - وقد آتاهم الله
كتابه - ما لم يؤت أحد من العالمين..

أهديه إلى الذين آثروا علوم القرآن على سائر العلوم، واستغرقوا في دراسة تفسير كتاب الله؛
فأشغلهم ذلك عما سواه..

أهديهم الكتاب ليكون عوناً لهم على فهم أعمق، وتناولٍ أدق..
وليتزودوا به في سلوك الطريق.. عسى أن يجدوا فيه نوراً به يهتدون، ومسلكاً يبلغون به حيث
يطمحون!

وأحب أن أشكر كل من أعان بتوجيه أو تشجيع أو دعاء..

وأخص أخي أبا عبدة سامر الصادق؛ الذي تصبّر على دقائق التصميم، حتى خرج الكتاب في
هذه الهيئة القشبية.

وأشكر زوجه أم عبدة؛ إسلام مهنا؛ التي تولت الإحالة على المراجع في بعض المواضع، وتخريج
ما ورد في الكتاب من أحاديث.. فجزاهما الله خيراً من عائلة طيبة، وأسأل الله أن يبارك لهما في ما
رزق من مال وعلم وعيال.

كما أود أن أشكر الأستاذ الفنان؛ أستاذ الخط العريق وليد الشافعي حفظه الله؛ إذ قد جمّل الكتاب
وشرفني بخط اسم كتابي واسمي بقلمه البديع؛ فجزاه الله عني خيراً.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه والأتباع إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا كتاب الله تعالى ميسر للذكر ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ {القمر ١٢٠}، أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم معجزةً تثبت صدقه، وهدىً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ {ابراهيم ١}.

ولا يزال القرآن إلى قيام الساعة قائماً بغايته: الإعجاز والدلالة على النبوة، ثم الهداية والإخراج من الظلمات إلى النور، وكفى به رحمة وذكرى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {العنكبوت ٥}.

لقد أسهمت الصحوة القرآنية في بلادنا عموماً في نشر الاهتمام بالقرآن وتلاوته وتجويده، وانتشر الإقراء وكثر المجازون بالأسانيد المتصلة، وعمت الدورات المتنوعة في ذلك للمبتدئين وللمتقدمين، والله الحمد.

ولكن بقي الدعاة والمربون يناشدون الصحوة القرآنية ورؤاها ضرورة الاعتناء بالتدبر والتفسير إلى جانب العناية بالإقراء والتجويد؛ تلك الضرورة النابعة من كون التدبر علة أولية لإنزال هذا الكتاب: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ {ص ١٦}، ولما للتدبر من أثر في غرس حقيقة الإيمان وتعاهد شجرته، والاصطباغ بأخلاقه ومعالجة الإشكاليات العقدية والتربوية المنطبعة في القلوب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ {محمد ٢٦}، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ {النساء ٨٢}!



إن الحاجة اليوم صارت أكثر إلحاحاً إلى تسهيل فهم القرآن؛ لا فهمًا إجماليًا فحسب، وإنما الحاجة إلى تسهيل فهمه فهمًا دقيقاً يتعاطاه المتخصّصون والمهتمّون والدُّعاة؛ ليخاطبوا به الأُمَّة التي تفتقر إلى الدليل الهادي، والسراج المنير، وهو بين يديها حقاً؛ ولكنْ ينقصُها أن تتنبّه إليه، وأن تجد الطريق "اليسير" إلى الاستهداء به!

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (القمر ١٧)؟

هذا؛ وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون هذا القرآن بلسان عربي مبين، بحيث كانت لغته مخزناً معانيه الثرى، متّسعةً للكبير من المعاني وللدقيق منها، فأدهشتهم وأعجزتهم، خصوصاً أنهم قد تُخدّوا أن يأتوا بمثل القرآن فعجز منهم الفكر واللسان، واحتار منهم العقل والجنان؛ مسلمين بخروجه عن معهود البشر، وارتفاع رتبته عن نيل مشابهته؛ فضلاً عن مماثلته ومجاراته.

وما يزال الناس يطّلعون على فريدٍ من باهرٍ تركيبه وأسرارٍ ترتيبه، يُضيف الحَلَف إلى ما جاءهم في ذلك عن السلف، وإن كانت قدرات القوم على كشف مكنون المعاني ودقيقها قد ضُعفت بسبب رقة مُكتنهم اللغوية وابتعادهم عن صفاء ينبوعها النضاح؛ فصاروا يحتاجون إلى الإبانة عن ذلك بما استقرّ من العلوم التي أنضجها الجهابذة لأجل هذه الغاية، وما كانوا من قبل يحتاجون إلى ذلك لما أن تلك المعاني أو أغلبها كان يجري معهم مجرى البديهة اللغوية.

وكان من أبرز هؤلاء: الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله وأجزل مثوبته، الذي ترك لنا سِفْرَيْنِ عظيمين في هذا الباب: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وكان الناس في هذا الباب من بعده عالّةً عليه!





وجدد البحث في هذه العلوم مع مطلع العصر الحديث الشيخ الأزهرى المعروف: محمد عبده، وجود إظهار ذلك وجلّاه تلميذه النجيب: السيد محمد رشيد رضا رحمهما الله وأجزل لهما المثوبة والعطاء.

وظهرت من كتابات المعاصرين ما قد يوصف بأنه على الغاية من العمق والإتقان، وأفضلها على ما أحسب: كتابات أستاذنا أساتذتنا الدكتور محمد محمد أبو موسى حفظه الله ومتع بعلمه، الذي أفاد منه السائرون في هذا السبيل وأشادوا!

ولما دعت الحاجة إلى تدريس هذه العلوم في المرحلة الجامعية الأولى انتضل العديد من العلماء والأساتذة الكبار سهامهم للكتابة فيما يصلح أن يدرّس في قاعات الدرس الجامعي، وكان من أبرز هؤلاء: أستاذنا وشيخنا الدكتور فضل حسن عباس رحمه الله وأجزل له المثوبة عنا، واشتهرت كتاباته وتعلمت عليها الأجيال تلو الأجيال، وما تزال كتبه حتى اليوم هي المصدر الأمثل والمرجع الأكمل لطلاب مادة "أساليب البيان في القرآن الكريم".

وقد أسند تدريس المادة إلّى مراراً؛ إنّ في جمعية المحافظة على القرآن الكريم؛ في دورات التخصص، وإنّ في قسم الشريعة من كلية الآداب في جامعة العلوم التطبيقية، وإنّ في مؤسسة مدارج في برنامج الإعداد التخصصي لعلم التفسير، وفي برنامج التكوين "العلمي".

وبعد تدريس المادة مراراً رأيت من الحسن أن أكتب في هذا العلم كتاباً أسهم به في خدمة القرآن وطلبة العلم، وعلى الرغم مما وقع في نفسي من التردد الطويل إلا أنني حسمت الأمر وعزمت على البدء، وإنما وقع في قلبي ما وقع من التردد لما تهيّئته من مقام الإدلاء في علم رواده هم الأساتذة الكبار الذين تربّينا على دروسهم وكتبهم، ورضعنا لبن هذا العلم من ضروع كتبهم المليئة حالاً فحالاً، وما زلنا والله كذلك؛ نُقرُّ لهم بالفضل والسبق والإفادة.



ورأيت الحاجة داعيةً إلى مصنّف بلاغيّ "تدريبي"؛ يدرّب رَوّاد هذا الفنّ على ممارسة استنباط الفوائد واللطائف من النصّ القرآني، ويكون أقرب إلى طريقة المفسرين منه إلى طريقة البلاغيين، وذلك مع تضاؤل الوقت المتاح لتدريس هذه العلوم لطلبة التفسير على وجه التحديد، وضيق الوقت عن الاتساع لدراسة ما لا علاقة له "مباشرة" بعلم التفسير أو بحاجات المفسّر المباشرة. مشيراً إلى أنّ هناك العديد من الدراسات القويّة التي تفي بالحاجة؛ لكنّها كبيرة ومفصّلة إلى حدّ يشقّ على طالب المرحلة الجامعية الأولى "البكالوريوس" أو من في مستواه العلمي أن يتعامل معها فيه؛ ومن أفضل ذلك كتاب الشيخ الدكتور عبد العظيم المطعني: "خصائص التعبير القرآني"، وهو رسالة نال بها درجة العالمية.

ومع أنها كذلك وافية؛ إلا أن الفوائد التي تفيض من القرآن من غير انقطاع تحث كل باحث على الإدلاء حيث يطمح أن يأتي بجديد!

فالكتاب الذي بين يديك؛ قصدتُ فيه إلى عرض ما اخترته من أبواب البلاغة بأسلوب تدريبيّ؛ أخذ فيه بيد القارئ إلى تعرّف خطوات الاستنباط البلاغيّ من النصّ القرآني خطوة خطوة، وأدله من خلال كلام أئمة الفنّ على آفاق التفكير في آي القرآن، تنمية للملكة التفسير والتدبر ورفعاً لمهارات ملاحظة الظواهر السياقية وكيفيات اكتشافها وتحليلها ... لم آت بجديد يُذكر! إنما أنا مفصّل لمجمل ذكره أئمة الفنّ، ومرتبّ لشعثٍ منشور هنا وهناك، مع صياغة سهلة للمشكلات؛ وذاك حسبي!

وقد حرصتُ فيما بين يديك على ألا أكرر الأمثلة المتداولة المشهورة، بل حرصتُ على التجديد ما استطعت، وعمدتُ إلى تقسيم الموضوع بطريقة مختلفة عما اعتدناه من تقسيم البلاغيين؛ بقصد إيقاع طالب التفسير على الفائدة بشكل مباشر مناسب لما اعتاده من الألفاظ المتداولة في عالم التفسير.

واستعملت في أحيان كثيرة عبارات المفسرين ونقلتها منها، ودعوت القارئ إلى تخصيص بعض الأمثلة المنقولة من كتب التفسير بالتأمل، مع التعليق على ما تحتاجه تلك العبارات من الإيضاح لمزيد إفادة الطالب وتسهيل ارتياده للتفسير المتخصصة.

وقد قسّمتُ الكتاب إلى المقدمة التي أخطُّ بكلماتي هذه آخرها، وأتبعها بمباحث:

الأول: المقدمات العامة

والثاني: الجملة العربية
وترتيبها، وفيه:

- الجملة العربية وترتيبها.
- تقسيم الكلام إلى الخبر والإنشاء.
- الجملة الفعلية والجملة الاسمية.

والثالث: التقديم والتأخير ويتضمن العديد من المداخل

والرابع: الحذف
ويتضمن كذلك العديد من المداخل

والخامس: التنكير والتعريف وما فيه من مسائل

والسادس: التضمين

والسابع: الالتفات

وإنما اخترتُ هذه الأبواب دون غيرها لما وجدت لها من أهمية للمفسر وللمتدبر، وسأُتبع إنْ يسّر الله هذا الجزءَ بآخرٍ يتعلّق بموضوعات أدبية تهّم المفسرَ والمتدبرَ وتُجَلِّي جمال النص القرآني؛ على الطريقة التدريجية ذاتها، وأسأل الله التوفيق والعون وبلوغ الآمال فيما يرضيه، إنه قريب مجيب!

وبعد؛

فحسبي أنني بذلتُ الجهد الذي أمكنني بذله في خدمة القرآن في هذا الباب، وأقول ما قال الأول: إن أحسنتُ فمن الله وحده؛ هو المنعم المتفضل؛ لا إله إلا هو، وأبرأ من حولي وقوتي!

وإن أسأت فذاك طبع البشر فيما يعترى أعمالهم من القصور والتكلف والجهل، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأسأله القبول على الرغم من كل ذلك؛ إنه غفور شكور، والحمد لله رب العالمين.

د. رأفت المصري

١٨ ذو القعدة ١٤٤٠ للهجرة

٢١ تموز ٢٠١٩ للميلاد

مؤسسة مدارج / عمان العامة



المبحث الأول
المقدمات العامة



وقبل الانتقال إلى المحتوى المقصود يحسن أن أقف مع بعض الموضوعات التي تنزل منزلة التمهيد الذي لا بد منه عند اقتحام هذه العلوم:

أولا

— الملكة التفسيرية —

يكتسب المرء مع ممارسة علم من العلوم أو فن من الفنون قدرة خاصة في التعامل معه؛ ثمكته من إدراك أسرارهِ وسبر أغواره، والنظر إلى مسأله ومتعلقاته بدقة!

ثم إن لكل من العلوم ومن الفنون مداخل ومفاتيح؛ من امتلاكها تمهد له الصَّعب، وألَّين له منها الحديد! ثم إذا حصل له ذلك فامتلك ناصية العلم والفن وانغمس بعد في ممارسة مسأله، وتفكر فيها وناظر وباحث، وحقق ودقق، واستل بعد الممارسة القواعد وإن لم تُقعد، واستنبط القوانين فيه وإن لم تُقنن، وأجاد استعمالها في تفاصيل العلم وتنزيلها على ساحة ممارساته التفصيلية؛ إذا حصل له ذلك تكونت لديه مع تلك الممارسات وفي مراحلها المتقدمة: ملكة خاصة ينظر من خلالها إلى مفردات العلم ويرى حقائقه.

هذا ما نقصده بالملكة عموماً! فالملكة: صفة راسخة في النفس تحصل بتكرار وممارسة^١.

ويقول ابن خلدون في كلام بارع كالعادة: "وذلك أن الحذق في العلم واليقين فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسأله، واستنباط فروعهِ من أصولهِ، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن حاصلًا."

(١) التعريفات، الجرجاني، ٢٩٦.



وهذه الملكة غير الفهم والوعي؛ لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد مشتركاً بين من شدا في ذلك العلم ومن هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم والشادي في الفنون دون سواهما، فدلّ ذلك على أن هذه الملكة غير الفهم".^٢

أما الملكة التفسيرية؛ فقد قيل في تعريفها: "التأهل العلمي والذهني لإدراك الفهم الصحيح للآية بالاجتهاد المبني على أدلته لا تقليداً".^٣

ويمكن أن نقول: الملكة التفسيرية هي: مُكنة يمتلكها المفسر في التعامل مع آيات القرآن تفسيراً وتدبراً، ومع مسائل علم التفسير المختلفة. وهذه الملكة لها أسباب تؤدي إلى تكوينها في نفس المفسر، ولها نتائج كذلك.

أسباب تكوين الملكة التفسيرية

أما أسباب تكوين الملكة التفسيرية فيمكن إجمالها بما يأتي:
١ - التضلّع والامتلاء من علوم الآلة المحيطة بعلم التفسير، اللازمة له، وأهمها:

- علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبدیع، وسيأتي تعقيب بسيط على هذا بعد قليل يوضح أهمية هذا العلم بالنسبة إلى المفسر؛ خصوصاً: علماً المعاني والبيان.
- علم النحو، الذي يُعدُّ ركناً في بناء الحالة العلمية للمفسر لما له من أثر في الفهم والتوجيه والإثراء.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ٢/ ٣٥٠.

(٣) تكوين ملكة التفسير، حاتم العوني، ٨.



• علم الصرف، الذي يختصّ في البحث في بنية الكلمة القرآنية، ويوضح دلالات صيغتها البنائية.

وهذه العلوم - كما ترى - علوم لغوية خالصة، ولا غرو في كونها علوم آلة محيطة بعلم التفسير، فالقرآن إنما أنزل بلغة العرب، والامتلاء منها والتمكن من علومها: ركن شديد يأوي إليه المفسر أثناء تعامله مع النصوص القرآنية.

• ومن أهم علوم الآلة المحيطة بالتفسير: علم الأصول، أي القوانين التي تحكم فهم النص والاستنباط منه.

وعلم أصول الفقه: علم نضيج، مليء بالقواعد الحاكمة لفهم النص، وهو المادة الأساسية التي يُستل منها علم أصول التفسير؛ ذاك الذي يكدّ العديد من الباحثين اليوم للسير به في مجرى أصول الفقه لإنضاجه، وقد أفادت المحاولات والله الحمد في تأطير علم أصول التفسير والسعي إلى تحصيل استقلاله كعلم مستوٍ على سوقه، وما تزال المحاولات جارية، والله الموفق.

وبين الأصولين؛ أصول الفقه وأصول التفسير تداخلٌ كبير، ليس هذا المقام مناسباً لبيان، لكنّ المقصود: أنّ علم أصول الفقه والتفسير مادة أساسية وسبب مباشر لصناعة الملكة التفسيرية وتكوينها.

• بقي التنبيه ههنا على أن ثمة علوماً حديثة عصرية يُمكن أن تُضاف إلى باقية علوم الآلة للمفسر المعاصر، امتلاك هذه العلوم بشكل أو بآخر يُمكّن المفسر من توسيع فهمه لآيات القرآن، وقدرته على تنزيلها على الواقع وعلاج مشكلات العصر من خلال تفسيره الذي يفيد فيه منها، وإدراك مدلولات جديدة وكشف مساحات واسعة للنص؛ عبر الاستعانة بهذه العلوم، وأهمها:

- علم السياسة وعلم الاقتصاد.
- علم النفس وعلم الاجتماع.

وغنيّ عن الذكر أن في هذه العلوم ما لا يتناسب مع ديننا حتماً، فمثله لا ينبغي أن يُعكّر صفو الاستفادة من النافع منها.

تساؤل

وقد يسألني سائل فيقول: قد ذكر السيوطي وغيره علوماً أخرى في غاية الأهمية لم تذكرها في سياق ذكر العلوم المشترطة للمفسر؛ كعلم الحديث والتاريخ وغيرهما، فلماذا أعرضت عن ذكرها؟



الجواب

أني لم أتركها تقليلاً من شأنها ولا تزهيداً فيها، وإنما تركت ذكرها لأن المقام ليس في ذكر العلوم اللازمة للمفسر عموماً، بل في سياق علوم "الآلة" اللازمة لـ "تكوين الملكة التفسيرية"، وثمة فرق واضح - إذا تأملت - بين الأمرين.

٢- السبب الثاني من أسباب صناعة الملكة التفسيرية: القراءة في كتب التفسير؛ المتخصصة على وجه التحديد؛ إذ ثورت كثرة الملازمة لتلك الكتب ومطالعتها باستمرار: تطبعاً بأسلوب المفسر وإطلاعا على أسرار الصنعة التفسيرية بين يدي روادها وأئمتها.



والنصيحة لطالب التفسير وسالك درب التدبر: أن يقرأ عدداً من التفاسير بشكل منهجيٍّ؛ من أولها إلى آخرها، وأقترح منها ما يأتي:

- الكشاف للإمام الزمخشري، وهو أصل كتب التفسير البلاغية .
- المحرّر الوجيز للإمام الكبير ابن عطية الأندلسي .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للقاضي الفقيه الحنفي أبي السعود العمادي، وأنعم به من تفسير مليء بالجديد الفريد؛ لولا عسر عبارته .
- مفاتيح الغيب، للإمام الفخر الرازي، الذي يتعلم المفسر منه: ترتيب الأفكار، وتسلسل العرض .
- التحرير والتنوير، لمفتي الديار التونسية الطاهر بن عاشور، صاحب النظرات الثابتة والتحريرات الحاسمة .
- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ليتعلم منه إضفاء جوّ القرآن على العملية التفسيرية، وليرى نموذجاً عصرياً في معالجة التفسير لمشكلات العصر، وتنزيلاً للقرآن على واقع الناس وحياتهم الجمعية والفردية .

٣- السبب الثالث: حلقات التدبر، ومجالس التفكير، ومداولة الأفكار في تفسير الآي ولطائفها، واعتراك الأنظار في دلالاتها واستنباطاتها، ومداولة أسرار تعبيراتها، ومحاولة إدراك معالم إعجازها، والله الموفق من قبل ومن بعد .

وهذا سبب قويٌّ من أسباب تكوين الملكة التفسيرية، إذا ما اقترن بما مضى ذكره: تكامل البنیان، وحدّ النظر، وقويت القرينة!

(٤) مع ضرورة مراعاة أن يكون القارئ عارفاً بعقيدة أهل السنة لئلا تغتاله اعتزاليات الزمخشري المبثوثة في أنحاء التفسير وخلف وهاده! على أن التفسير لا يكاد يُطبع اليوم إلا مصحوباً بتعليقات ابن المنير الفذ عليها .

نتائج تكوين الملكة التفسيرية

هذه الأسباب، وأما النتائج فكثيرة؛ يمكن إجمالها بما يأتي:

١ - فهم مدلولات الآية بعمق، وإدراك المزيد البعيد والدقيق من معانيها، ولنستشهد على ذلك بقصة ابن عباس مع سورة النصر في مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً، فقد روى البخاري وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه؛ فقال: لم تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله، فقال عمر: إنه مَنْ قد علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريمهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ {النصر ١}، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول".

والشاهد:

أن الصحابة الآخرين رضي الله عنهم ما كانوا أخطأوا معنى الآية العام! إنما هو القريب والأقرب، والصواب والأصوب! إنهم قد جاؤوا على المعاني الظاهرية الأولية، في حين غاص ابن عباس في أعماق النص ليأتي بالمعاني الغائرة الدقيقة! إنها الملكة التي ميّزت ابن عباس دون غيره، وبها استحقّ ألقاب التشريف القرآنية: حبر الأمة وترجمان القرآن، شيخ المفسرين!



أساليب البيان في القرآن الكريم

٢- زيادة قدرة المفسر والمتدبر على التنبيه لمواضع الأسرار القرآنية، وتوجيهها، والاستنباط منها، وكم من آية يمر عليها القارئ المرة تلو المرة وما انتبه إلى ما فيها من بليغ المعاني الدقيقة! والملكة التفسيرية ترفع كفاءة المفسر والمتدبر لإدراك تلك المواضع، ويفتح ذهنه للوقوف أكثر معها والتنبيه لمواضعها.

٣- التمكن من الترجيح بين الأقوال التفسيرية، والقدرة على توظيف السياق والقرائن الأخرى في الانتصار لقول دون غيره، انظر إذا شئت: ملكة الإمام الطبري ومُكنته في الترجيح، وانظر في إرشاد العقل السليم وفي روح المعاني تلحظ سيف الترجيح الحاسم الحادّ بين الأقوال بيد أبي السعود والآلوسي؛ رحم الله الجميع!

قد تجد غير هؤلاء كذلك امتلك تلك الآلة الذهنية التي أطلقنا عليها: "الملكة التفسيرية"، وترى مُكَنَّةً عالية لدى هؤلاء المحققين في التفسير والترجيح والاختيار.

ثانياً

— أساليب البيان في القرآن الكريم —

اعتاد الطلبة في الجامعات وفي المعاهد الشرعية في بلادنا على دراسة البيان القرآنيّ تحت عنوان "أساليب البيان في القرآن الكريم"، ويحسُن أن نبدأ بما اعتاد الباحثون على البدء به من تعريف المصطلح، ولعل المصطلح يحتاج إلى ضبط؛ نتوسل إلى ذلك عبر تعريفه وبيان مسلك المؤلفين في محتوياته.

"أساليب البيان" مركب إضافي، ولنبدأ على ما يجري عادة بتعريف جزأي المصطلح الرئيسيين:



- أساليب:

الأساليب جمع أسلوب، وهو الطريق والمذهب والنمط، وهو في الأصل: الصّفّ من النخل ونحوه، وكأنّ دلالة اللفظ تطورت من هذا المعنى البدائي إلى كل نمط منتظم في سلك ما، ويفهم بحسب ما يضاف إليه، فيقال: أسلوب حياة: النمط الذي يتخذه المرء في إدارة حياته ونشاطاته واهتماماته، وأسلوب التعبير: النمط الذي يتخذه المتكلم في التعبير عن مراداته، وهكذا.

- البيان:

أما البيان فهو الظهور والكشف والفصاحة، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن ٥١]، أي: ما يُبيّن به عما يريد من معان.

وقد يطلق البيان على معنى خاص عند البلاغيين؛ قسماً لعلمي المعاني والبديع، فيقال: البلاغة ثلاثة علوم: علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع، ويحتوي علم البيان بهذا الإطلاق على ثلاثة أبواب رئيسة:

١- التشبيه.

٢- المجاز.

٣- الكناية.

وهذا المصطلح سائر مشهور، وقد يطلق مرادفاً للبلاغة، فيقال: الإعجاز البلاغي أو الإعجاز البياني، ويكون مشتملاً على سائر أنواع البلاغة لا على علم البيان بمعناه الخاص فحسب.



وعليه؛

فأساليب البيان أُطلقت عند بعض العلماء على محتويات علم البلاغة فحسب، وعلى ذلك كتاب أستاذنا الدكتور فضل عباس رحمه الله وأجزل عنا مثوبته، الذي عرضَه في كتابه: "أساليب البيان" لموضوعات علم البلاغة فحسب بمقتضى هذا التعريف المذكور، وكان الكتاب تلخيصاً لكتابه الأصيلين: البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، والآخر: علم البيان، ولعله رحمه الله وأجزل عنا مثوبته التزم ذلك لأمر أكاديمية تتعلق بإقرار المادة في كليات الشريعة^٦.

وأحب أن أنقل شيئاً من تعريفات البلاغيين والأدباء لمصطلح "الأساليب" في هذا السياق الموضوعي:

- يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "والأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه"^٧.
- ويقول الزرقاني في مناهل العرفان: "الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك"^٨.

(٦) أطلعني فضيلة الدكتور محمد الجمل حفظه الله على قصة تسمية المادة بأساليب البيان، وأن شيخنا د. فضل عباس أرادها مادة للبلاغة، لما يراه من كون علم البلاغة في غاية الأهمية بالنسبة إلى طالب الشريعة، لكن تسمية المادة بـ "البلاغة" كان صعباً في النظام الجامعي؛ من حيث إن الإدارات كانت ترى أن هذه المادة من مواد كلية الآداب لا من مواد كلية الشريعة، فاختير أن يسموها بـ "أساليب البيان في القرآن" ليتجنبوا مواجهة المشكلة الأكاديمية المذكورة، وإلا فإن محتوياتها هي ذاتها محتويات علم البلاغة.

(٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ١٤

(٨) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ٣٠٣/٢



بينما يرى ابن خلدون: أنَّ "الأسلوب كالقلب الذي تُفرَّغ فيه التراكيب الصحيحة عند العرب..."، هذا إذا قصدنا: أساليب العرب في الكلام^٩.

إذاً، ثمة أساليب عامة عند العرب في البيان، كما أفاد كلام ابن خلدون، وثمة أساليب خاصة تميَّز كل بليغ في طريقة تعبيره وتأدية معانيه، كما أفاد الزرقاني في كلامه المنقول، كما يصلح تعريف عبد القاهر للدلالة على المعنيين جميعاً!

ولكننا نلاحظ في هذه التعريفات أنها لم تحصر "الأسلوب" في علوم البلاغة الثلاثة المعروفة، وإنما جعلتها أوسع دلالة؛ بحيث تشملها وتشمل غيرها مما يمكن أن يُرصد كأسلوب نمطيٍّ في تأدية المعاني.

و"أساليب البيان في القرآن الكريم":
أنماط تأدية المعاني في القرآن الكريم، وطرق الافتنان القرآني في ذلك.

وهذا بطبيعة الحال يشمل ما تقرر في تفاصيل العلوم البلاغية الثلاثة، ويشمل سائر الظواهر اللغوية القرآنية الأخرى، كظاهرة التكرار مثلاً، والتضمين، والالتفات، وما يتعلق بروعة اللفظ القرآني ودقته، واستعمال حروف المعاني، والتصوير الفني في القرآن والتناسب المعنوي واللفظي بين الآيات والسور، والتناسب الصوتي كذلك؛ إلى آخر ذلك مما يمكن رصده كأنماط لغوية متوافرة في القرآن الكريم.

ومن حقِّ المصطلح إذاً ألا نقصره على مفردات علم البلاغة فحسب، فيتصور القارئ أنَّ هذه المقررات البلاغية هي أساليبُ البيان وأنماطُ تأدية المعاني في القرآن دون غيرها!

(٩) مقدمة ابن خلدون ٣٩٧/٢، ت: عبد الله بن محمد الدرويش، دار يعرّب، دمشق، ط ١، ٢٠٠٤.



هذا ما يتعلق بالمصطلح؛ وإن كنا سنجري في الكتاب على انتقاء بعض المباحث البلاغية التي يحتاج إليها المفسر أكثر من غيرها.

ثالثاً

— حاجة المفسر إلى دراسة علم البلاغة، ومعرفة وجوه افتنان العرب في تأدية المعاني —

نزل القرآن بلسان عربي مبين: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ {الحقاف ١٢}، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا...﴾ {الشورى ٧}، وقد جعله عربياً لعلهم يعقلون: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ {يوسف ٢}، فتعقل القرآن إنما يكون من جهة العلم بالعربية، وما امتلأ المفسر بالعربية كان على رجاء حصول تعقل القرآن والوقوع على مزيد من مكنونات النصوص؛ كما تفيد الآية عبر أداة الترجي: (لعل).

وكذلك قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ {فصلت ٣}، فالعالمون بلغة العرب هم أول من تنزل معانيه على قلوبهم، وتلقف عقولهم ومعارفهم، فيستضيئون بهديه ويبددون به الظلمات: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ {طه ١١٣}.

وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ {الزمر ٣٨}، دل هذا وغيره على أن الامتلاء من علوم العربية شرط فهم بالنسبة للمتدبر والمفسر للقرآن، وهو ما فهمه السلف رضي الله عنهم؛ فقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه: "تعلموا العربية في القرآن كما تتعلمون حفظه"^{١٠}.



وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "وإنما بدأت بها وصفتُ من أن القرآن نزل بلسان عربيٍّ دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح علم الكتاب أحدٌ جهلَ لسان العرب وكثرةً وجوهه وجماعَ معانيه وتفرقها"^{١١}.

وزاد ابن قتيبة الأمر وضوحاً لما قال: "وإنما يعرفُ فضلَ القرآنَ مَنْ كَثُرَ نظَرُهُ واتَّسعَ علمُهُ وفَهمَ مذاهبَ العربِ وافتتَنَها في الأساليبِ، وما خَصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات"^{١٢}.

إذا؛ فللعرب افتتانٌ في أساليبِ كلامِها ينضوي على معانٍ دقيقة يودعها البليغ في ثنايا تعبيراته، وكلما امتلأ السامع معرفةً بتلك الأساليب اتضح له المزيد من مقصودات البليغ.

هذا؛ ومن أبرز ما يكمن فيه هذا الافتتان: علماً المعاني والبيان من علم البلاغة، إضافة إلى العديد من أساليب اللغة الأخرى التي يحتاجها من أراد الاستغراق في علم التفسير.

وإذا كان القرآن العربي قد أعجز العرب من وجوه متعددة؛ فإن أبرز تلك الوجوه: إعجازه لهم بهذا الباب من تراكيب الكلام الذي اصطلحوا على تسميته: "الإعجاز البياني"، فوجدوا أنفسهم أسرى جمال أسلوبه؛ منبهرين بدقة ألفاظه وتراكيبه، "فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوي والقدر، وقيد الخواطر والفكر، حتى خرست الشقاشق، وعُدمَ نطقُ الناطق، وحتى لم يجر لسان ولم يبين بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقذ لأحد منهم زند، ولم يمض له حد، وحتى أسال الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً"^{١٣}.

(١١) الرسالة، للشافعي، ٤٧

(١٢) مشكل القرآن، ١٠.

(١٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ١٨.

وقد تداعى العلماء لتقعيد العلم الذي يبحث في هذا المنحى من القرآن، وكان العماذ في ذلك كتابي عبد القاهر الجرجاني: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وعلى أثره سار الناس، وتوالى التصانيف، واهتمَّ المفسرون بدقائق هذين العلمين وتطبيقاتهما في تأليفهم؛ فازداد لأجل ذلك تقدير هذين العلمين وعظم خطرهما في التفسير، وصارت العناية بهما شرطاً عند العلماء من شروط مقتحم التفسير، حتى قال صاحب المفتاح: "الويل كلُّ الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما - علمي المعاني والبيان - راجل"، وقال:

"لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما للمرء على مراد الله من كلامه، ولا أعون على تعاطي مشتبهاته، ولا أنفع لدرك لطائف نكاته، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه"^{١٤}.

وجعل الشيخ الذهبي صاحب "التفسير والمفسرون" علوم البلاغة الثلاثة "المعاني والبيان والبديع" من شروط المفسر في تعداده العلوم اللازمة له، ثم قال: "وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بدَّ له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم"^{١٥}.

ونصَّ من قبله صاحب البرهان والإتقان في علوم القرآن على ذلك وبينَّا ضرورته للمفسر، وأبو حيان الأندلسي في مقدمة البحر المحيط، حيث بيَّن أنه لا ينبغي أن يُقدِّم على علم التفسير إلا من أحاط بجملة غالبها من كلِّ وجه من هذه العلوم^{١٦}.

(١٤) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، حاشية الطيبي على الكشف، ١/ ٦٦١

(١٥) التفسير والمفسرون، الذهبي، ١/ ٢٧٦، وانظر: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح الخالدي، ٥٦،

والمفسر؛ شروطه وآدابه ومصادره، أحمد قشيري سهيل، ١٧٩.

(١٦) البحر المحيط، ١/ ١٠٧.



ومثله ابن جزّيّ الكلبيّ في مقدمته الحافلة على التسهيل^{١٧}.

أما الزمخشريّ الرائد في هذا الباب؛ فقد أطلّ في وصف المعنى بعباراته الرشيقة؛ تأمل:
 "ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يُبهر الألباب القوارح؛ من غرائب نكت يلطف
 مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها: علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه
 كل ذي علم - كما ذكر الجاحظ في كتاب (نظم القرآن) -، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم
 الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار
 وإن كان من ابن القريّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان
 أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علّك اللغات بقوة لحيه؛ لا يتصدى من أحد لسلوك تلك
 الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن،
 وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمّة، وبعثته على
 تتبع مظائرها همّة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم"^{١٨}.

وكلام الزمخشري هذا على فصاحته ودقة عبارته وإحكامها نجده ينضوي على عريضتين:

الأولى: ما الذي يكفي المفسر الحاذق من هذين العلمين؟

والثانية: ما الفائدة التي يجنيها المفسر - تطبيقياً - منها؟

وقد أشار إلى الأولى في قوله: "إلا رجلٌ قد برع في علمين مختصّين بالقرآن ... وتمهّل في ارتيادهما
 آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمّة ...".

(١٧) التسهيل لعلوم التنزيل، ١/١٢.

(١٨) تفسير الزمخشري، ١/٢.



وقد علّق الطيبي رحمه الله في حاشيته على الكشف في هذا الموطن من المقدمة على عبارة صاحب المفتاح المنقولة أولاً بقوله: "ولا ارتياب أن هذا الفن فنٌّ لا تلين عريكته، ولا تنقاد قرونته لمجرد استقراء صوره وتتبع مظانّ أخوات لها، بل لا بد من ممارسات كثيرة، ومراجعات طويلة مع فضل إلهي... يعني: من حق الاهتمام بشأن هذين العلمين أن يستفرغ المحصل جهده ويفني فيها عمره، وذلك نزر يسير لمن يبتغي كشف أسرار كلام الله المجيد"^{١٩}.

فالمسألة - إذاً - ليست مسألة تعاريف وتقاسيم يعرفها الطلبة والباحثون، وإنما هي مُكنة ومملكة تتأتى بالنظر والممارسة والمدارسة والتأمل في النصوص والمقارنة بينهما، ودونك كلام الأستاذ محمد رشيد رضا في مقدمة تحقيقه لكتاب الجرجاني "دلائل الإعجاز"، يؤكد هذا المعنى؛ فيقول: "إنما صنّع الكلام لإفادة المعاني، والبلاغة فيه هي أن تبلغ به ما تريد من نفس المخاطب من إقناع وترغيب وترهيب وتشويق وتعجيب، أو إدخال سرور أو حزن أو غير ذلك، وكل هذه المقاصد أمورٌ روحانيةٌ يتوصّل إليها بالكلام.

معرفةً قوانين النحو والمعاني والبيان شرطٌ فيها ولكنها غير كافية للوصول إليها، بل لا بد من الهداية إلى أسباب كون الكلام مؤثراً، وإيراد الشواهد والأمثلة الكثيرة في المعنى الواحد... وهذا الذي ذهب إليه الإمام عبد القاهر في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وقد خلف من بعده خلف جعلوا البلاغة صناعةً لفظيةً محضة، فقالوا: المسند يعرف لكذا وكذا، وينكر لكذا وكذا... ولم يبينوا السرّ في ذلك، ولم يوازنوا بين مسندٍ منكرٍ عرفته البلاغة، وآخر أنكرته وهو مثله ويبينوا السبب في ذلك، ولم يُعنوا بإيراد الشواهد والأمثلة والبحث في الفروق"^{٢٠}.

(١٩) فتوح الغيب، الطيبي، ١/ ٦٦٣.

(٢٠) مقدمته على دلائل الإعجاز، ٧.



واستفادةً من هذه الملاحظة الهامة التي توارد الأئمة الكبار على التنبيه عليها فإننا في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى نركز على إيراد الأمثلة وتحليلها وبيان أسرار الظواهر البلاغية فيها.

وأما **الملاحظة الثانية** من كلام الزمخشري، فهي حول الفائدة التطبيقية التي يجنيها المفسر من هذين العلمين؛ تلك قوله: "وَبَعَثَهُ عَلَى تَتَبُعِ مَظَاهِرِهَا هِمَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ لَطَائِفِ حُجَّةِ اللَّهِ، وَحِرْصٌ عَلَى اسْتِضَاحِ مَعْجَزَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وفي المعنى ذاته يقول ابن عاشور رحمه الله: "وَلِعِلْمِي الْبَيَانِ وَالْمَعَانِي مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِعِلْمِ التَّفْسِيرِ، لِأَنَّهَا وَسِيلَةٌ لِإِظْهَارِ خِصَائِصِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْمَعَانِي، وَإِظْهَارِ وَجْهِ الْإِعْجَازِ، وَلِذَلِكَ كَانَ هَذَانِ الْعِلْمَانِ يُسَمَّيَانِ فِي الْقَدِيمِ: (عِلْمُ دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ)"^{٢١}.

نحن - إذاً أمام فائدتين تطبيقيتين لهذين العلمين يجنيهما المفسر:

١ - ظهور المعاني الدقيقة المُسْتَكِنَّةِ في الظواهر البلاغية، وبالتالي ازدياد انكشاف المعاني من الآيات وتدفُّقها على المفسر.

وهذه الفائدة على وجه التحديد تجعل لهذين العلمين منزلة خاصة عند المفسر، وتؤكد ما ذهب إليه النُّظَّار من اشتراطهما كعلمين من علوم الآلة بالنسبة إليه؛ خلافاً لمن قلَّل من شأنهما باعتبار أنهما إنما يُظْهَرَانِ الإعجاز القرآني - كما هو في النقطة القادمة - لكن لا علاقة لهما بالتفسير الذي هو إيضاح المقصود من آيات الله في القرآن.



٢- إظهار وجه الإعجاز، من حيث إنها يكشفان عن مدى براعة التركيب القرآني إلى الحد الذي يعجزُ البشر عن الإتيان بمثله، فيدلُّ على أنه تنزيل من حميد مجيد.

قال أبو هلال العسكري: "ولقد علمنا أن الإنسان إن أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّ الله به كتابه من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها"^{٢٢}.

هذا؛ ويلحق بهذين العلمين مما يجدرُ بالمفسِّر أن يدرُسَه ويعكُفَ على فهمه مباحث أخرى؛ لا تندرج في علمي المعاني والبيان؛ لكنهما من أساليب العربية المتوافرة في القرآن للبيان عن المعاني والافتنان في عرضها، وهذه الأساليب العربية كثيرة الأنواع؛ يصعب استقصاؤها في كتاب كهذا؛ لكن ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جُلُّه، وعليه؛ فإننا سنخصُّ هذه الأساليب المتنوعة بمساحة مناسبة نعرض فيها لأهمها وأكثرها إفادة للمعاني وعروضاً للمفسر أثناء تفسيره للقرآن الكريم؛ باعتبار هذه الأساليب المشار إليها هنا من أساليب البيان في القرآن الكريم التي يحتاجها المفسر إلى إتقانها والنظر فيها، وكلما ازداد المفسر امتلاء من هذه العلوم وممارسة هذه الفنون تمكَّن من تفسير النصِّ القرآني وبرع في ذلك، وصقل ملكته التفسيرية.

رابعاً

﴿ مباحث علم المعاني ﴾

علم المعاني أحد علوم البلاغة الثلاثة، وهو من أهم العلوم التي ينبغي للمفسر أن يعتني بها وأن يفيد منها في فهم النصِّ القرآني، وفي استتال الفوائد الدقيقة واللطائف المشوقة.

(٢٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص ٤٣.



وفاتح باب هذا العلم، الناظم مسائله هو: الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "دلائل الإعجاز"، وهو واضح: "نظرية النظم"، التي استقرت علماً مستقلاً سُمِّي بـ "علم المعاني".

وقد عرّف علم المعاني بأنه العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي أو الكلام العربي التي يطابق بها مقتضى الحال.^{٢٣}

وقيل: هو علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال.^{٢٤}

إذن؛ فمدار هذا العلم حول مطابقة حال الكلام لمراد المتكلم ولما يجول في ذهنه من معان دقيقة.

ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان العربي، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيرها، ومواقع التعريف والتنكير، والتأكيد وعدمه، ومواقع القصر ودلالاته، وحول اقتران الجمل المفيدة ببعضها بعطف أو بغير عطف، ومواقع كل منهما ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها معناها أول أقل منها أو زائداً عليها ونحو ذلك.^{٢٥}

وقد جعل علماء البلاغة علم المعاني في ثمانية أبواب تتعلّق بعناصر الجملة الرئيسة:^{٢٦}

(٢٣) انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، ١ / ٣٥، وخصائص التركيب، د. محمد أبو موسى،

٧٥، البلاغة فنونها وأفنانها؛ علم المعاني، د. فضل عباس، ٨٥.

(٢٤) البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني، ١ / ١٣٨.

(٢٥) انظر مثلاً: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ١ / ٣٧، البلاغة العربية، الميداني، ١ / ١٣٩.

(٢٦) خصائص التركيب، ٧٥.

- ١- أحوال الإسناد الخبري.
- ٢- أحوال المسند إليه.
- ٣- أحوال المسند.
- ٤- أحوال متعلقات الفعل.

قلت وأحوال هذه العناصر لا تعدو أن تكون في:

- أ_ التقديم والتأخير.
- ب_ الحذف والذكر.
- ج_ التعريف والتكثير.

- ٥- القصر.
- ٦- الإنشاء.
- ٧- الفصل والوصل.
- ٨- الإيجاز والإطناب.

فهذه الأبواب هي ما يدور عليها هذا العلم، وقد عرفت أنه علم مهم بالنسبة إلى المفسر، وقد جاءك في الباب التمهيدي تقرير ذلك وتفصيله.

ولما كان الوقت المتاح لدراسة مادة أساليب البيان قصيراً؛ استحسنت أن أقصر في تناول هذه الأبواب على الأهم منها والأنفع للمفسر؛ منبهاً إلى أمرين قبل البدء:

الأمر الأول: أن المأمول من طالب العلم أن ينطلق بعد هذه المادة لدراسة بقية المسائل واستكمال استيعاب هذا الفن.



والأمر الثاني: أن ما سنعرّضه من الأبواب المختارة سنقتفي فيه أثر المفسّرين، وسنتهجّج طريقتهم في عرضها من خلال النصوص القرآنية، مبتعدين عن طريقة البلاغيين وتقاسيمهم؛ إذ إنها طريقة مرهقة للمبتدئ؛ تحوّل دون تذوّقه لجمال استعمال هذه الأبواب في النص القرآني، ثم سيكون التركيز على تذوّق النص، وكثرة التمثيل من القرآن على ما يراد بيانه منها، كما جاءك في مقدمة الكتاب؛ مراعاةً للمقصود منه، وللمقصود به، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وما سنعرض له من مباحث علم المعاني ثلاثة أبواب؛ هي أهم أبواب هذا العلم بالنسبة إلى المفسّر:

* التقديم والتأخير.

* الحذف والذكر.

* التنكير والتعريف.

وإنما كان اختيار هذه الأبواب دون غيرها لاشتداد حاجة المفسر إليها، واحتوائها على الكثير من "لطائف التفسير".

وبين يدي البدء؛ هناك مبحث يتعلّق بالجملة العربية وترتيبها، وتقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء وتقسيم الجملة العربية إلى فعلية واسمية؛ لا بدّ من التعرّيج عليه، وينبني عليه فوائد مهمة للمفسر كذلك.



المبحث الثاني
الجملة العربية

سنتناول هذه المقدمات المهمة في مطالب ثلاثة، تمهّد ذهن القارئ لتلقي ما بعدها من مباحث، منبّهاً لك على ضرورة التصبّر عليهما؛ إذ النفس تميل إلى تجاوز المقدمات "الجافة" إلى التطبيقات البلاغية على الآيات؛ وإنما نقصد إلى بناء "الملكة التفسيرية" بناءً تأصيلياً مقعّداً؛ دون الاكتفاء باللطائف التي يلتقطها الذهن من هنا وهناك، وسأسلك على كلّ حال مسلك الإيجاز والاختصار فيها ما استطعت؛ مع التركيز على حاجات المفسّر منها، والله الموفق.

المطلب الأول

تعريف الجملة العربية وترتيبها

يتركب الكلام في العربية من عناصر ثلاثة: الاسم والفعل والحرف ذي المعنى، كما هو معروف.

وترابط هذه العناصر بوجه ما من وجوه الترابط المعهودة عند العرب يشكّل ما نسميه: "الجملة"، فالجملة إذاً هي العنصر البنائي الثاني للكلام؛ بعد العنصر الأول: "الكلمة".

وقد عُرِّفت الجملة بأنها: بناء من كلمتين فأكثر من أصل الكلمات الثلاث: (الاسم والفعل والحرف).

وقيل: الجملة المفيدة: "كلام تام يدلُّ على معنى أقلّه نسبة شيء إلى شيء إثباتاً أو نفيّاً، أو إنشاء ربط بين شيء وشيء آخر يكفي لإنشائه القول؛ مثل أمر التكوين أو الأمر بفعل ما"^{٢٧}.

وقد سلّك العربُ في ترتيب الجملة العربية الاسمية والفعلية مسلكاً واضحاً؛ لا يعدلون عنه إلّا



الترتيب الأصيل للجملة العربية

لأجل معنى يفيد ذلك العدول، يعني:

- أنهم قعدوا ترتيب الجملة الأصيل.

- وقعدوا كذلك كيفية العدول عن ذلك الترتيب ومعانيه؛ تقعيذاً عاماً يُدركه المزاوِل لكلامهم، ويُجيد تذوقه من ارتضاع لبن العربية؛ بحيث تتفق بتلك الرضاعة أمعاء الذائقة اللغوية، وينشُرُ بها عظمها، وينبُتُ بها لحمها!

ويتفاوتُ الناس في هذا تفاوتاً عظيماً، وبمكانياتهم من ذلك يبلغون مراتبهم في فهم القرآن والعربية عموماً.

جاء في البلاغة العربية للميداني:

"إن مخالفة الأصل في ترتيب بناء الجملة واستخدام ما يجوز فيها بحسب استعمال العرب هو في الغالب لغرض تأدية معنى من المعاني؛ لا لمجرد استخدام احتمالات جائزة، باستثناء حالة الضرورة الشعرية، أو حاجة توازن الجمل وتناسقها، ومراعاة السجع أو القوافي، ضمن أغراض جمالية في الكلام"^{٢٨}.

§- الترتيب الأصيل للجملة العربية §-^{٢٩}

هذا المبحث قد يثقل عليك لكونه مُنقَطاً مُختَصراً، لكن المقصود منه أن تأخذ فكرة عامة عن ترتيب الجملة العربية؛ الفعلية والاسمية، بحيث تستطيع تلمس مواضع العدول عن الأصل.

وهذا مفتاح لأبواب علم المعاني عموماً، ولباب التقديم والتأخير على وجه التحديد.

(٢٨) البلاغة العربية، ١/ ١٤٦.

(٢٩) ملخصاً من البلاغة العربية، ١/ ١٤٧-١٥٣.

ملاحظة منهجية

إن المتدبر لا يثير المسائل عند وقوع الكلام على الترتيب الأصلي للجملة العربية، فلا يقول: لماذا تقدم الفعل على الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَسَأَلْتُ أَوْدِيَّةً بِقَدَرِهَا﴾ {الرعد ١٧}؟!^{٣٠}

لا يقول ذلك لأن الأصل في الكلام أن يتقدم الفعل فيه على الفاعل، والفاعل على المفعول، وأن يتقدم المبتدأ على الخبر، وهكذا^{٣١}.

وهنا بيان للأصل في ترتيب الجملة، وبيان للحالات التي يجب فيها تقديم شيء أو تأخيرها وجوباً، وبقيت بعد ذلك الحالات الجائزة، وهي معظم الحالات، وعليها تدور رحي إثارة السؤالات، وإنباع الفوائد واللطائف التفسيرية.

المَعْلَمُ الأول:

الأصل أن الجملة الفعلية: يتقدم فيها الفعل، ثم الأصل أن يتصل الفاعل بفعله؛ لأنه كالجُزء منه، ثم يأتي بعده المفعول به، وقد يتقدم بعده المفعول به، وقد يُعكس الأمر، وقد يتقدم المفعول به على الفعل والفاعل معاً، وكل ذلك: إما جائز وإما واجب، وإما ممتنع.

- الجدير بالذكر في هذه الجملة الفعلية ما يلي:

(٣٠) انظر للتعمق في هذه الفكرة: معاني النحو - مثلاً -، ١/ ١٦، ومن قبله بطبيعة الحال: دلائل الإعجاز، وغيره من كتب البلاغة؛ إذ هذه الفكرة فكرة مركزية.

أ. الحالات التي يجب فيها تقديم بعض العناصر على بعض:

١. إذا خشي الالتباس والوقوع في الشك، بسبب خفاء الإعراب مع عدم قرينة، فلا يُعلم الفاعل من المفعول به، فيجب تقديم الفاعل، مثل: علّم موسى عيسى، أكرم ابني أخي، غلب هذا ذاك.
٢. أن يتّصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به؛ فيجب تأخير الفاعل وتقديم المفعول به، مثل: أكرم سعيداً غلامه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ {البقرة ١٢٤}، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ {غافر ٢٥}، وسيأتي استعراض شيء من الأمثلة، وبيان شيء من المتعلقات.
٣. أن يكون الفاعل والمفعول به ضميرين، ولا حصر في أحدهما، فيجب تقديم الفاعل وتأخير المفعول به، مثل: "أطعمته، سقيته".
٤. أن يكون أحدهما ضميراً متصلاً والآخر اسماً ظاهراً؛ فيجب تقديم الضمير منهما:
 - فيقدّم الفاعل وجوباً في نحو: أكرمت علياً.
 - ويقدّم المفعول به وجوباً في نحو: أكرمني عليّ.

فائدة

لا يصحّ في اللسان العربيّ عودُ الضمير على متأخرٍ لفظاً ورتبةً معاً، إلا في نحو ضمير الشأن والقصة. وضمير الشأن والقصة واحد، إلا أنه إن كان مذكراً سمّي ضمير الشأن، وإن كان مؤنثاً سمّي ضمير القصة، وهو ضمير غائب يسبق الجملة. ويعود هذا الضمير إلى ما في الذهن من شأن أو قصة، وهو مضمون الجملة التي بعده، ولكن لفظ القصة أو الشأن يبقى معنى مخزوناً في الذهن، نستعويض عنه بلفظ "هو" ضمير الغائب أو "هي"، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ {الاحلاص ١}. ويختلف هذا الضمير عن ضمير الغائب بأنه لا يحتاج إلى اسم ظاهر يعود عليه، كما لاحظت في المثال السابق.



الترتيب الأصيل للجملة العربية

ب. يجب تقديم المفعول به على الفعل والفاعل معاً في أربعة أحوال:

١. أن يكون المفعول به اسم شرط، مثل: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ {غافر ٥٢}.

٢. أن يكون المفعول به اسم استفهام، مثل: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ {غافر ٥٢}.

٣. أن يكون المفعول به لفظ: "كم" أو "كأين" الخبريتين، مثل: كم كتاب ملكت، كم علم حوت.

٤. أن ينصب المفعول به جواب "أما" وليس لجوابها منصوب مقدّم غيره، مثل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا

تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ {الضحى}، وإنما وجب تقديمه في هذه الحالة ليكون فاصلاً بين أما

وجوابها، فإذا وُجد فاصلٌ غيره فلا يجب تقديمه، مثل:

لقد كنا نخاف عصاك يوماً... فأما اليوم فافعل ما بدا لك



المعلم الثاني:



إذا تعدّدت المفاعيل في الكلام فلبعضها الأصالة في التقدّم على بعض:

• إما بسبب كونه مبتدأ في الأصل؛ كما في باب "ظن"، إذ مفعولاً "ظن" أصلها مبتدأ وخبر: علمتُ الله رحيمًا، أصلها: "الله رحيم".

• وإما بسبب كونه فاعلاً في المعنى؛ كما في باب "أعطى"، تقول: ألبستُ الفقير ثوباً، فالفقير فاعل في المعنى، لأنه الذي لبس الثوب.



المعلم الثالث:



الأصل أن يتقدم المبتدأ على الخبر في الجمل الاسمية، وقد يتقدم الخبر على المبتدأ كذلك في حالات جوازاً، وسنذكر هنا الحالات التي يجب فيها تقديم المبتدأ، والحالات التي يجب فيها تقديم الخبر.

أ. يجب تقديم المبتدأ في ستة أحوال:

١. أن يكون المبتدأ من الأسماء التي لها صدر الكلام، مثل: أسماء الشرط والاستفهام، ما التعجبية، كم الخبرية.
٢. أن يكون المبتدأ مشبها باسم الشرط، مثل: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ {النساء ١٦}، ودليل كونه مشبهاً باسم الشرط وقوع الفاء في الجواب: (فَأَذُوهُمَا)، وهذا علامة الشرطية.
٣. أن يُضاف المبتدأ إلى اسم له الصدارة في الكلام، مثل: غلام من هذا؟
٤. أن يقترن بالمبتدأ لام التوكيد، مثل: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ {البقرة ١٧٧}.
٥. أن يكون كلٌّ من المبتدأ والخبر معرفة أو نكرة، ولا توجد قرينة تعين أحدهما، فيجب تقديم المبتدأ خشية من التباس المبتدأ بالخبر، مثل: "أخوك عليّ"، إذا أردت الإخبار عن الأخ، و"عليّ أخوك"، إذا أردت الإخبار عن عليّ.
٦. أن يكون المبتدأ محصوراً في الخبر؛ مثل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ {ال عمران ١٤٤}، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ {البقرة ١٢٩}.

المعلم الرابع:

يجب تقديم الخبر على المبتدأ في أربعة أحوال:

١. إذا كان المبتدأ نكرة غير مفيدة ومخبراً عنها بظرف أو جار ومجرور، مثل: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ {البقرة ٧}.
٢. إذا كان الخبر اسم استفهام، مثل: كيف حالك؟
٣. إذا اتصل بالمبتدأ ضمير يعود على شيء من الخبر، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ {محمد ٢٤}.
٤. أن يكون الخبر محصوراً في المبتدأ، مثل: إنما الخالق الله.



الترتيب الأصيل للجملة العربية

المعلم الخامس:

الأسماء التي لها الصدارة في الجملة؛ فلا يتقدّمها إلا جارّها، أو مضاف إليها، أو حروف العطف؛ هي:

١. أسماء الاستفهام.
٢. أسماء الشرط.
٣. "ما" التعجبية
٤. "كم" الخبرية

المعلم السادس:

إذا اجتمعت التوابع في جملة واحدة قُدّم منها:

١. النعت
 ٢. فعطف البيان
 ٣. فالتوكيد
 ٤. فالبديل
 ٥. فعطف النسق؛ وهو ما كان بحرف عطف، مثل:
- "بعث الله الرسول العربي محمداً نفسه أخا بني إسحاق والرسل والنبين من قبله"

وبعد؛ فما ورد ههنا في المعالم الستة هو الأصل في ترتيب الجملة العربية، فإذا كان الكلام قد جاء ترتيبه على الأصل فقد جاء على ما ينبغي أن يجيء عليه، وإن كان غير ذلك حسن بالمتدبر أن يتتبع سرّ ذلك، ويحاول الوصول إلى الحكمة منه.



الترتيب الأصيل للجملة العربية

إضافات الدارس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

المطلب الثاني

تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء

استقرأ أهل اللغة كلام العرب، فوجدوه لا يخرج عن قسمين:

- الخبر.

- الإنشاء.

وهذا - وإن حصل فيه خلافٌ بسيطٌ بين العلماء - فإنه رأيُ "الحذاق" منهم، وعليه استقرَّ أمرُ أهلِ البيان، وقد صرَّح به السيوطيُّ رحمه الله وغيره من العلماء، جاء في معترك الأقران: "اعلم أنَّ الحذاقَ من النُّحاة وغيرهم وأهلِ البيانِ قاطبةً على انحصارِ الكلامِ فيهما، وأنَّه ليسَ له قِسْمٌ ثالثٌ"^{٣١}.

وسنعرض لهما على اختصارٍ مراعين ما يحتاج إليه المفسر من ذلك:

تعريف الخبر

هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب باعتبار كونه مجرد كلام دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدلُّ على إثباته حتماً أو نفيه حتماً، ومدلوله لا يتوقف على النطق به، ويدخل فيه: الوعد والوعيد لأنهما خبران عما سيفعل صاحب الوعد والوعيد^{٣٢}، مثل: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ {ال عمران ١٥٥} ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ {النور ٥٥}.

(٣١) الإتيان في علوم القرآن، ٣/ ٢٥٦، معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ٣١٩، وانظر: البلاغة العربية

للميداني، ١/ ١٦٦.

(٣٢) البلاغة العربية، ١/ ١٦٧.

وقد تتساءل فتقول:

كيف ينطبق التعريف على هذا الكلام من حيث قبول الصدق والكذب، وهو كلام أصدق القائلين؟

لا بد أن تتنبه إلى القيد الذي يتعلق بذلك من التعريف؛ حيث قُيدَ الكلام فيه بأنه الذي "يحتمل الصدق والكذب باعتبار كونه مجرد كلام دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدلُّ على إثباته حتماً أو نفيه حتماً"، فلا اعتبار في الاصطلاح لكون الكلام صدقاً حتماً، وكون قائله صادقاً حتماً، بل النظر في مجرد كونه كلاماً قابلاً معناه للتصديق والتكذيب!

تعريف الإنشاء

هو الكلام الذي يتوقف تحقق مدلوله على النطق به؛ كالأمر والنهي والدعاء والاستفهام والمدح والذم، وإنشاء العقود التي يتم تحققها بالنطق بالجمل التي تدل عليها؛ مثل: بعت واشتريت، وزوجتك، أنت طالق، أعتقتك^{٣٣}.

• ينقسم الإنشاء إلى قسمين^{٣٤}:

- **طلبي**: هو الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والترجي، والنداء.
- **غير الطلبي**، وهو القسم، والتعجب، وإنشاء المدح والذم نحو نعم وبئس، وإنشاء الوجدانيات كالتحسر والفرح والترحم، وصيغ العقود نحو أبيع وأشهد، والأجوبة الدالة على الامتثال كجواب النداء نحو لبيك وسمعاً وطاعة، "وقد اهتمّ البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبي، ووجه ذلك عندهم: أنه كثير الاعتبارات وتتوارد عليه المعاني التي تجعله من الأساليب الغنية ذات العطاء والتأثير"^{٣٥}.

(٣٣) البلاغة العربية، ١/ ١٦٧، والبلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، ١٠٠.

(٣٤) موجزة البلاغة، للجرجاني، ٢٦.

(٣٥) دلالات التراكيب، لأبي موسى، ١٩٢.

نستنتج مما سبق:

- أن الخبر ما احتمل الصدق والكذب، وأن الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً.^{٣٦}
- وأن الجملة المفيدة تنقسم إلى قسمين:
 - القسم الأول: الجملة الخبرية؛ وهي الجملة التي اشتملت على خبر ما، فمضمونها إخبار عن أمر ما إيجاباً أو سلباً.

والقصد منها: الإعلام بأن الحكم الذي اشتملت عليه له واقع خارج العبارة الكلامية مطابق له.

- القسم الثاني: الجملة الإنشائية؛ وهي الجملة التي لم تشتمل على خبر، وإنما أنشأ النطق بها حدثاً ما؛ كإنشاء طلب الفعل؛ كما إذا قلت لأخيك: اسقني، أو قلت لتلميذك: اجتهد أو لا تكسل، وكإنشاء طلب الفهم، إذا قلت للفقير: هل يجوز أن أفعل كذا؟ أو ما حكم كذا شرعاً؟ ونحو ذلك.^{٣٧}

مسائل مهمة

أختصرُ لك فيما يأتي بعض المسائل المتعلقة بهذا الباب من العلم:

المسألة الأولى:

- قد يأتي الإنشاء في صورة الخبر، وهو ما يعبرون عنه بالخبر المستعمل في الإنشاء، مثل:
- ١- استعمال الخبر في الدعاء في نحو قولك: "الإمام الطبري رحمه الله"، فقولك: "رحمه الله"؛ وإن كان في قالب الخبر؛ إذ هو فعل ماض وفاعل ومفعول به؛ فإن معناه الدعاء له بالرحمة.

(٣٦) البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، ١٠٠.

(٣٧) دلالات التركيب، محمد أبو موسى، ١٨٥، والبلاغة العربية، للميداني، ١/١٦٦.

ثم قارن بين قولك: "لماذا فعلت كذا؟" تاب الله عليك! وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ {البقرة ٣٧}؛ تلاحظ أن الأولى قصد المتكلم فيها: الدعاء لك بتوبة الله عليك، في حين أن المقصود من العبارة ذاته في قصة آدم: الإخبار بتوبة الله تعالى عليه!

٢- وقد يُستعمل الخبر في الأمر؛ كقول الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ {البقرة ٢٣}، ومعنى الآية: أيتها الوالدات أَرْضِعْنَ أولادكن حولين، وسيأتي مزيد بيان لما هو على غرار هذا المثال.

٣- وقد يأتي الخبر بمعنى السؤال نحو قول الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ {القصص ٢٤}، وليس مقصود موسى عليه السلام من هذا الكلام الذي قصه الله علينا: إخبار الله تعالى بفقره! وأي معنى لذلك؟! إنما أراد سؤال الله تعالى المزيد من عطاياه.

التنبية على مهارة

وما يجدر أن يكون خليقاً بالمتدبر ألا يقف عند هذا الحد؛ بل يتابع بإثارة سؤال آخر أكثر تقدماً؛ فيقول:

ما الفائدة البلاغية التي ترتبت على ذلك؟ ولأي شيء عدل عن استعمال الأسلوب المفترض في التعبير عن الدعاء أو الأمر مثلاً؟

قد يكتفي اللغوي بالكلام العام؛ فيقول: هذا خبرٌ بمعنى الأمر، أو ذاك خبرٌ بمعنى الدعاء! لكن اللائق بالمفسر المتدبر أن يحاول تعليل مجيئه على هذه الطريقة اللغوية، وبيان سر اختيار ذلك التعبير، وستأتيك أمثلة توضح هذه الفكرة.

الأمثلة

١- قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ {البقرة ٢٣٨}، تلاحظ أن قالب الجملة قالب خبري، لكن بديتهك تذهب إلى اعتبار معناها أمراً للمطلقات بالتربص؛ لا إخباراً عنهن بأنهن يفعلن ذلك!

هذا إذا ما نسميه التعبير عن الأمر - الذي هو من الإنشاء - بالخبر، وإنما أوتر ذلك لفائدة بلاغية، وسر له تعلّق بالمعنى، ولنقرأ ماذا قال الزمخشري ونقله عنه كثير من المفسرين في هذا الموضع من سورة البقرة، وفيه فائدة أخرى تتعلق بإخراج الدعاء في صورة الخبر؛ فتأمل:

"التعبير عن الأمر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر إشعاراً بأنه مما يجب أن يُتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهنّ امتثلن الأمر؛ فهو يخبر عنه موجوداً، ونظيره قولهم في الدعاء: "رحمك الله"، أخرج في صورة الخبر ثقةً بالإجابة، كأنها وجدت الرحمة؛ فهو يخبر عنها"^{٣٨}.

٢- في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ {يوسف ٥٧}.

فقوله: (تَزْرَعُونَ) خبر في معنى الأمر، كقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ {الصف ٥١}، وفي الزمخشري كذلك: "وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: (فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ)"^{٣٩}.

أراد يوسف عليه السلام المبالغة في حثهم على الزراعة دأباً، لما علمه من خطورة المرحلة التي يقبلون عليها بدلالة الرؤيا التي رآها الملك، ولذلك أثر التعبير عن الأمر بالخبر؛ الذي يثبي بأن الفعل قيد التنفيذ؛ لا أنه يطلب إليهم التنفيذ، ولا يفوتتكَ تذوق جمال التعبير!

(٣٨) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٧٠.

(٣٩) تفسير الزمخشري، ٢/ ٤٧٦.

٣- والقلب اللفظي في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ {النور}، قال الخبر، لكنه هنا في معنى النهي؛ نهى المؤمنين عن الاحتذاء بالزناة والمشركين، وإنما جاء النهي في صورة الخبر للمبالغة، كأنه إخبار عن أمر لا يحصل في الواقع من المؤمنين^{٤٠}.

قاعدة الباب

جاء في تفسير قول الله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) ^ط ما يصلح أن نعتبره قاعدة تحكم الباب من كلام السمين الحلبي، إذ قال:

"وهذه الجملة وإن كانت بصورة النفي فهي في معنى النهي، لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى، والعرب إذا بالغت في النهي عن الشيء، أبرزته في صورة النفي المحض كأنه ينبغي ألا يوجد البتة فدلوا على هذا المعنى بما ذكرت لك، وعكسه في الإثبات إذا بالغوا في الأمر بالشيء أبرزوه في صورة الخبر"^{٤١}.

المسألة الثانية:

وقد يكون اللفظ لفظ إنشاء والمقصود الإخبار، "وقد أشار العلوي إلى أن مجيء الخبر بلفظ الإنشاء مما يقع نادراً"^{٤٢}، ومثلوا له بقول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ {الاعراف}، والمراد: وإقامة وجوهكم عند كل مسجد، ولما كان ذلك من الأهمية بمكان كبير: خالف الأسلوب نعمة سياقه والتفت ووجه الأمر لأن إقامة الوجوه عند كل مسجد

(٤٠) انظر: تفسير آيات الأحكام، للسايس، ١/ ٥٤٣.

(٤١) الدر المصون، ٢/ ٣٠٩.

(٤٢) الطراز، ٢/ ٢٩٤، انظر: دلالات التركيب لأبي موسى، ١٩٠.

يتبعها صلاح في النفس والسلوك يثمر ضرراً كثيراً من الخير، والقسطُ واحدٌ منها^{٤٣}، وهذا سرُّ التعبير عن الخبر هنا بـ «قال» إنشائي، والله أعلم.

السؤال المهاري!

كيف نميِّز بين الخبر المراد به الإخبار، والخبر المراد به الإنشاء؟ وكذلك العكس؟
التمييز بينهما يكون بالنظر في السياق، وبالنظر في مقصود المتكلم؛ هل يقصد الإخبار عن شيء ما؟ أم أنه يريد الدعاء دون الإخبار أو الأمر أو النهي؟

قال د. محمد أبو موسى:

"والمهمُّ هنا أن القلب اللفظي ليس فيصلاً بين الخبر والإنشاء، وإنما ما يجده السامع من طبيعة المعنى وقصد المتكلم إليه، فليس المراد الإخبار عن رحمة الله وعفوه إقالة عثرته، أو أنه فداه بنفسه وماله، أو أن الله جزي عمر خيراً وباركته يده سبحانه، وإنما القصد في ذلك كله إلى إنشاء المعاني بتلك النسب من غير نظر إلى مطابقة وعدمها"^{٤٤}.

المسألة الثالثة:

قد تستعمل صيغ الإنشاء في مَنْ حاله غير حال مَنْ يُساق إليه ذلك الإنشاء، كأمر المتلبس بفعل بأن يفعل نحو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ {النساء: ٣٩}، وكنهي من لم يتصف بفعل عن أن يفعله نحو: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ {ابراهيم: ٢٢}.

(٤٣) دلالات التركيب، لأبي موسى، ١٨٩.

(٤٤) دلالات التركيب لأبي موسى، ١٨٩.

والقصد من ذلك طلب الدوام، فيُنزَّل المتَّصِفُ منزلةً غير المتَّصِفِ تحريضاً على الدوام على الاتِّصاف^{٤٥}، فأمر المؤمنين بالإيمان يستلزم توجيه معنى مناسب للأمر؛ ذلك هو الأمر بدوام الإيمان لا بابتدائه!

وكذلك قوله تعالى في خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يقع منه ذلك الآن - حاشاه -، والنهي نحمله على المستقبل كذلك، لدعوته إلى دوام حاله على ما هو عليه الآن.

وفي مثل هذا المثال توجيه آخر؛ إذ يمكن أن يقال: إنه وإن وجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن المقصود به غيره، وهذا يحمل معاني إضافية بديعة كذلك!

(٤٥) هذا النص الأخير، وأفكار كذلك في المسائل المعروضة اختصرتها ومثلت عليها استفدتها من موجزة البلاغة،

للجرجاني، ٢٦.

المطلب الثالث

الجملة الاسمية والجملة الفعلية

هذا المبحث من مباحث البلاغة القرآنية يفتح باباً لإيراد ما لذ من اللطائف القرآنية، وحسن موقعه في ذهن القارئ المتدبر منها، ويكثر التنبيه عليه في كتب التفسير التحليلي لما يصدر عنه من نكات تسترعي ذهن المفسر وتستدعي الفوائد التفسيرية.

وقد أصّل له كذلك المنظرون لقواعد التفسير؛ كأمثال الزركشي والسيوطي في البرهان والإتقان، وسأختصر لك شيئاً من ذلك الكلام؛ مشحوناً بالفوائد الأساسية المتعلقة بهذا المبحث إن شاء الله.

ولا أحسب أنك بحاجة إلى التعريف بالمقصود من الجملة الفعلية والجملة الاسمية، لكنني أذكركُ به سريعاً، وقد عرفت أن الكلمة في لغة العرب: اسم وفعل وحرف ذو معنى، وقلنا: إن ترابط هذه العناصر بوجه ما من وجوه الترابط يشكّل ما يسمى: "الجملة".

• ووجوه الترابط في الجملة العربية لا تخلو أن تكون^{٤٦}:

- ترابط فعل مع اسم، وهي ما نسميه: الجملة الفعلية.
- أو ترابط اسم مع اسم، وهي ما نسميه الجملة الاسمية.

وتختلف دلالة استعمال الجملة الاسمية والجملة الفعلية في الكلام البليغ، فاستعمال الاسم له دلالة، واستعمال الفعل له دلالة، ويبقى على الناظر المتأمل إدراك مواضع استعمال كل منها، ثم القيام بمقاربة ما مع السياق لإفادة سرّ الاستعمال.

(٤٦) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام، ٧/٢، ومعاني النحو، ١٥/١.

فلنبقَ مع الكلام التأصيليَّ أولاً، وبعدها نعرِّج على الأمثلة؛ تملؤنا الحماسة لإدراك أسرار استعمال كلٍّ منهما.

• القاعدة العامة في استعمال الاسم والفعل^{٤٧}:

- الاسمُ يدلُّ على الثُّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ.
- والفِعْلُ يدلُّ على التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ.

ونعني بالثبوت والاستقرار: البقاء على الحال المعبر عنها بالاسم أو بالجملة الاسمية؛ كما سيأتي.

ونعني بالتجدد والحدوث ما يأتي:

- . التجدد: تكرار حصول الفعل مرة بعد مرة.
- . الحدوث: حدوث الفعل (حصوله) والإشارة إلى حال وقوعه.

ويعبر بعضهم عن التجدد والحدوث المستفاد من استعمال الفعل بـ: "الاستمرار"، وهذا يُطرق الوهم والالتباس لدى الدارسين، حيث سيقع في ذهن المبتدئ التباس عند سماع العبارتين الآتيتين: الاسم يدل على الثبوت والاستقرار، والفعل يدل على الاستمرار؛ فيقول: أي فرق إذاً بينهما؟!

الذي أراه أن نفرق بينهما - كما جاء في التأصيل -؛ فنقول:
الاسم يدلُّ على الثبوت والاستقرار، والفعل يدل على التجدد والحدوث.

(٤٧) البرهان في علوم القرآن، ٤/ ٦٦، والإتقان في علوم القرآن، ٢/ ٣٧٦.

فائدة

بقي أن أنبهك على شيء! قد تقول: الفعل ماضٍ أو مضارع، فهل يدل كلاهما على التجدد والحدوث معاً؟ لا يبدو ذلك! فالظاهر أن الفعل الماضي يدلُّ على الحدث، أي على مجرد إحداث الفعل وإخراجه إلى الوجود. وأن الفعل المضارع يدلُّ على التجدد وتكرار الحدث مرة بعد مرة.

وقد وجدت كلاماً قريباً من هذا المعنى فيما ساقه السيوطي رحمه الله في الإتقان، وأنا أسوقه إليك كما ساقه:

"الْأَوَّلُ: الْمُرَادُ بِالتَّجَدُّدِ فِي الْمَاضِي الْحُصُولُ فِي الْمَضَارِعِ أَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَتَكَرَّرَ وَيَقَعَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى صَرَحَ بِذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الزَّخَّشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ {البقرة ١٥}.

قال الشيخ بهاء الدين السبكي: وبهذا يتضح الجواب عما يُورد من نحو: "عَلِمَ اللهُ كَذَا"، فَإِنَّ عِلْمَ اللهُ لَا يَتَجَدَّدُ وَكَذَا سَائِرُ الصِّفَاتِ الدَّائِمَةِ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الْفِعْلُ، وَجَوَابُهُ أَنَّ مَعْنَى "عَلِمَ اللهُ كَذَا" وَقَعَ عِلْمُهُ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي، وَلَا يَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ فِي زَمَنِ مَاضٍ أَعَمُّ مِنَ الْمُسْتَمِرِّ عَلَى الدَّوَامِ قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمَنِ وَبَعْدَهُ وَغَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ {الشعراء ٨١} الْآيَاتِ، فَأَتَى بِالْمَاضِي فِي الْخَلْقِ لِأَنَّهُ مَفْرُوعٌ مِنْهُ وَبِالْمُضَارِعِ فِي الْهَدَايَةِ وَالْإِطْعَامِ وَالْإِسْقَاءِ وَالشِّفَاءِ لِأَنَّهَا مُتَكَرِّرَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ تَقَعُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى" ٤٨.

ولنتقل إلى التمثيل على تأصيلنا الذي قرأته من القرآن الكريم، ولنحرص على تدقيق جمال الاستعمال؛ باستحضار الذهن وتهيئة النفس.

الأمثلة القرآنية

١ - قوله تعالى فيما قصه علينا من قصة أصحاب الكهف: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ط وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ {الكهف ١٨}، حيث احتوت الآية الكريمة على جملتين:

الأولى: (وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ).

والثانية: (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ).

لا أريد مسابقتك بالتنبيه على أن الجملة الأولى جملة فعلية؛ حيث انبنت على الفعل وفاعله ومفاعيله، في حين انبنت الثانية على اسمين: كلبهم، باسط، والأول: مبتدأ والثاني خبر، فهي جملة اسمية، هل من دلالة لهذا الاستعمال الملفت؟

غني عن الذكر أن الحدث وقع في الماضي وانتهى، وعليه: فالأصل أن يقال؛ في كلام البشر: وقلبناهم، لكنه عدل عن ذلك إلى "نقلبهم"!

إن فعل التقلب تكرر المرة بعد المرة في تلك المدة المتطاولة، ولم يمكث الفتية فيها على حالة واحدة، وإنما تقلبوا مراراً بأمر الله تعالى، والله الحكمة البالغة في ذلك!

الذي دللنا على تجدد حدوث الفعل مرة بعد مرة: استعمال الفعل المضارع في المقام الذي يتبادر إلى الذهن فيه أن المقام إنما هو للفعل الماضي.

لكن على الجهة الأخرى؛ بقي الكلب على هيئة واحدة من بسط ذراعيه بالوصيد، لم يتحرك ولم يتقلب!

دللنا على ذلك: استعمال الجملة الاسمية، التي تدل في أصل استعمالها على الثبوت والاستقرار، "ولو قيل: "يَبْسُطُ" لم يُؤدَّ الغرض؛ لأنَّه يُؤدِّنُ بِمُزَاوَلَةِ الْكَلْبِ الْبَسْطَ، وَأَنَّهُ يَتَجَدَّدُ لَهُ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ، فَبَاسِطٌ أَشْعَرُ بِثُبُوتِ الصِّفَةِ"^{٤٩}.

٢- انظر إلى دقة التعبير القرآني في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ^ج مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ {الملك ١٦}

إذ نلاحظ أن الآية قد ذكرت حالين للطير؛ الأولى: حالها إذا صَفَّتْ أجنحتها؛ وتركت للهواء حملها، والثانية: حالها إذا قبضت أجنحتها، واستعانت بالقبض المتكرر على الارتفاع وال طيران: (صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ^ج)!

ونلاحظ كذلك: أن الحالة الأولى؛ حالة الصفِّ عبر عنها باسم الفاعل: (صَفَاتٍ)، وأن الحالة الثانية؛ حالة القبض عبر عنها بالفعل المضارع: (وَيَقْبِضْنَ)، وقد جاءنا في التعميد أن الاسم يدلُّ على الثبوت والاستقرار، والفعل يدلُّ على التجدد والحدوث، وإنَّ ما نظرت في الآية رأيت أن الحركة الثابتة المستقرَّة؛ حالة الصفِّ ناسبها التعبير بالاسم: (صَفَاتٍ)، وأن الحركة المتجدد النشطة؛ حالة القبض ناسبها التعبير بالفعل المضارع: (وَيَقْبِضْنَ)، وهكذا اختير لكل حالة ما يناسبها من التعبير بالاسم أو الفعل.

٣- قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ {الأنعام ١٥}، جملتان كذلك، الأولى: فعلية: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)، والثانية: اسمية: (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)، فما السرُّ في اختلاف النظم بينهما؟ على أنها وردتا في مواضع أخرى على طريقة واحدة من التعبير بالفعلية!

نبحث في التفاسير فنجد أن الإمام الفخر الرازي رحمه الله قد أدلى بدلوه في تعليل اختلاف التعبير؛ فقال:

"لَمَّا كَانَ الْإِعْتِنَاءُ بِشَأْنِ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَشَدَّ أَتَى فِيهِ بِالْمُضَارِعِ لِيَدُلَّ عَلَى التَّجَدُّدِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)"^{٥٠}.

وهو إدلاء جيد، لكن الدقة تعوزه في ظني!
أما إنه سيكون أقرب لو قلنا: إنا أمام حالين:
الأولى: إخراج حي من ميت.
والثانية: إخراج ميت من حي.

والحالة الأولى: حالة حياة مندفعة قادمة نشطة، والمناسب لهذا: التعبير بالمضارع.
أما الحالة الثانية: فحالة موت ساكن هادئ، والمناسب لهذا: التعبير بالاسمية، والله أعلم بالصواب من ذلك.

٤- فيما قصَّه الله تعالى علينا من قصة محاورة الملائكة لإبراهيم عليهم السلام: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ {الذاريات ٢٥}، الملاحظ أن سلام الملائكة جاء بالنصب: (سَلَامًا)، وسلام إبراهيم عليه السلام جاء بالرفع: (سلام)، فما الفرق بينهما؟

جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله ما نصه: "الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردَّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ {النساء ٨٦}، فالخليل اختار الأفضل" ٥١.

لكن ما وجه تفضيل الرفع هنا؟
فلنر- أولاً- بأي شيء نُصب قولهم: (سَلَامًا) إن قولهم: (سَلَامًا) منصوب بفعل محذوف، تقديره: نسلم سلاماً، أو نلقي سلاماً أو شيء قريب من هذا، وما دام المحذوف فعلاً ابتدئْتُ به الجملة، فالجملة فعلية إذن!

أما قوله عليه السلام: (سَلَامٌ)، فهو خبر لمبتدأ محذوف - على الأغلب -، والتقدير: تحيتي سلام، أو ما أشبهه، والجملة على ذلك: اسمية.

ولما كانت الجملة الاسمية تدلّ على الثبوت والاستقرار، وكان مآل الكلام: أن سلام إبراهيم صيغ بما يدلّ على الثبوت والاستقرار؛ كان أبلغ من سلام الملائكة! وهذا معنى كلام ابن كثير رحمه الله.

وههنا قاعدة محلّ ذكرها هذا المثال:

قاعدة

الفعل المحذوف المقدر كالفعل المذكور في الدلالة سواء بسواء، قيل:

"مُضْمَرُ الْفِعْلِ فِيْمَا ذَكَرَ كَمْظَهْرُهُ، وَهَذَا قَالُوا: إِنَّ سَلَامَ الْخَلِيلِ أَبْلَغُ مِنْ سَلَامِ الْمَلَائِكَةِ حَيْثُ: {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ}، فَإِنَّ نَصَبَ "سَلَامًا" إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى إِرَادَةِ الْفِعْلِ أَيْ سَلَّمْنَا سَلَامًا، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مُؤَدَّةٌ بِحُدُوثِ التَّسْلِيمِ مِنْهُمْ؛ إِذِ الْفِعْلُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ وَجُودِ الْفَاعِلِ، بِخِلَافِ سَلَامِ إِبْرَاهِيمَ؛ فَإِنَّهُ مَرْتَفَعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ، فَاقْتَضَى الثُّبُوتَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ أَوْلَى بِمَا يَعْرِضُ لَهُ الثُّبُوتُ، فَكَأَنَّهُ قَصَدَ أَنْ يُحْيِيَهُمْ بِأَحْسَنِ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ"^{٥٢}.

٥- سأترك مع فقرة من كتاب السيوطي "الإتقان في علوم القرآن"؛ ذكر فيها أكثر من مثال باختصار، وعلى طريقة الإشارة، إضافة إلى فوائد أخرى، وقد جاءك تفصيل ما تحمل عليه الكلام

(٥٢) الإتقان في علوم القرآن، ٢/ ٣٧٨، مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ٢١٠.

على وجه البسط، قال:

"وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ {فاطر ٣} لو قيل: "رازقكم" لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء، ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع مع أن العامل الذي يفيد ماض نحو: ﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ {يوسف ١٥}، إذ المراد أن يفيد صورة ما هم عليه وقت المجيء، وأنهم أخذون في البكاء يجددونه شيئاً بعد شيء، وهو المسمى حكاية الحال الماضية، وهذا هو سر الإعراض عن اسم الفاعل والمفعول، ولهذا أيضاً عبر بـ "الذين ينفقون"، ولم يقل: "المنفقون"، كما قيل: المؤمنون والمنفقون؛ لأن النفقة أمر فعلي شأنه الإنقطاع والتجدد، بخلاف الإيمان؛ فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والعمى والضلالة والبصر، كلها لها مسميات حقيقة أو مجازية، تستمر وأثار تتجدد وتقطع فجاءت بالإستعمالين" ٥٣.

قاعدة لطيفة المأخذ

"قال ابن عطية:

- سبيل الواجبات: الإتيان بالمصدر مرفوعاً؛ كقوله تعالى: ﴿فَامْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ {البقرة ٢٢٣}، ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ {البقرة ٢٢٨}.
- وسبيل المندوبات الإتيان به منصوباً كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبِ الرِّقَابِ﴾ {محمد ٤١}، ولهذا اختلفوا: هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة في قوله: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ﴾ {البقرة ٢٢٠} بالرفع والنصب.

قال أبو حيان: والأصل في هذه التفرقة في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ {الذاريات ٥٥}، فإن الأول مندوب، والثاني واجب، والنكتة في ذلك: أن الجملة الاسمية أثبت وأكد من الفعلية ٥٤.

٦- ورد في كلام السيوطي السابق أن استعمال الفعل المضارع جاء لـ "حكاية حال ماضية"، وهذه فائدة أخرى ترافق أحياناً إفادة استعمال المضارع للتجدد، وقد تغلب أحياناً أخرى، ويسميتها بعضهم: استحضار الصورة، وسأمثل لك بمثال آخر إضافة إلى الذي ورد في كلامه رحمه الله:

ذلك قوله تعالى في وصف السفينة التي بناها نوح عليه السلام: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤١]، والسفينة قد جرت وانتهى جريانها، والأصل أن يُعَبَّرَ عن حالة كهذه بالفعل الماضي، لكننا نرى أن عُدل عنه إلى الفعل المضارع: (تَجْرِي)، ومعنى التجدد وارد هنا لإضفاء الحركة والحياة على المشهد!

لكن معنى آخر هو الذي يظهر: إن الفعل المضارع في الأصل يستعمل للتعبير عما يقع الآن، عن فعل بدأ ولم ينتهِ! وهذا المعنى تماماً هو ما أريد استيراده في استعمال الفعل المضارع هنا!

إن المقصود من التعبير عن جريان السفينة - وقد مضى وانتهى - بالمضارع: أن يحضر المشهد في ذهن القارئ؛ كأنه ينظر إلى الفعل يحدث الآن، كأنه يرى السفينة وهي تجري بهم في موج كالجبال!

صار التعبير حياً، استدعي بذلك تفاعل القارئ مع المشهد؛ فلم يُعَدَّ يقرأ شيئاً حصل وانتهى، إنما يرى السفينة ويتفاعل مع المشهد.

(٥٣) الإيتقان في علوم القرآن، ٢/ ٣٧٨، مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ٢١٠.

(٥٤) البرهان في علوم القرآن، ٤/ ٦٦، والإيتقان في علوم القرآن، ٢/ ٣٧٦.



This image shows a full page of white paper with horizontal dotted lines, typical of primary school writing paper. The lines are evenly spaced and run across the entire width of the page. There are no margins, text, or other markings present.



المبحث الثالث

التقديم والتأخير



"التقديم والتأخير" من أهمّ المباحث القرآنيّة التي لها تعلّق بعلم المعاني، وتناول الموضوع قرآنيّاً أوسع مما عرض له علماء البلاغة تحت هذا العنوان؛ ذلك أن علم المعاني قد عرض لنوع من أنواع "التقديم والتأخير"، وهو ما تعلّق بتقديم ما حقّه التأخير وتأخيراً ما حقّه التقديم، ثم ألحق به بعضهم أنواعاً أخرى، وثمة أنواع تداولها المفسرون لم يعرض لها البلاغيون خلال عرضهم هذا الباب من العلم.

وعلى كلّ؛ فبدلُك على أهمية هذا المبحث توصيفُ الإمام عبد القاهر الجرجاني له إذ قال: "هو باب كثير الفوائد، جُمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّرُ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف عنك أن قدّم فيه شيء وحول عن مكان إلى مكان" ^{٥٥}.

ويعتبر هذا الأسلوب من الأساليب الجميلة التي توحى بأن العرب أرباب البيان وملوك الفصاحة وسادات القوافي، "فإنهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة وملكتهم للكلام، وتلعبهم به وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه، وانقياده لهم لقوة ملكتهم فيه وفي معانيه" ^{٥٦}. وقد اختلف العلماء في تناولهم موضوع التقديم والتأخير، ولا أريد الاستطراد في بيان ذلك لخروجه عن مقصود الكتاب، لكن يمكننا أن نقول: ميّزت الكتب الراصدة لتناول موضوع التقديم والتأخير بين منهجين: منهج البلاغيين، وأهمهم: الشيخ عبد القاهر، والسكاكي، وابن الصائغ، وابن الأثير. والثاني: ما سمّوه منهج المفسرين ^{٥٧}.

(٥٥) دلائل الإعجاز، ٨٥.

(٥٦) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، ٨٢.

(٥٧) انظر مثلاً: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ٥٣١ وما بعدها، وانظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم،

زيد العيص، ٨٩ وما بعدها.



تنبيه بين يدي البدء:

مع التنبيه على أن بعض اللغويين كان ينحى بموضوع التقديم والتأخير منحى آخر خارجاً عن مقصودنا في هذا الكتاب وفي أكثر من كتب في الموضوع، وهو الذي أنكره كثير من الحذاق، ومثاله:

ما قيل في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾ {البقرة ٢٦٥}، حيث قال أبو حيان الأندلسي: "قال قوم: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: أصابها وابل فإن لم يصبها وابل فطلّ فأتت أكلها ضعفين، حتى يُجعل إيتاؤها الأكل ضعفين على الحالين من الوابل والطلّ"، فردّ أبو حيان بقوله:

"إن دعوى التقديم والتأخير لا حاجة إليها لأنها من أقبح الضرورات في الشعر، فينزه القرآن عن ذلك" ٥٨.

وقال في موضع آخر: "ولا تقديم ولا تأخير في القرآن، لأن التقديم والتأخير عندنا من باب الضرورات" ٥٩.

ومن أمثله ما قيل في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ {المائدة ١٧}، حيث جاء في تفسير الفخر الرازي: "قالوا: في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبدل لكم تسؤكم"، وقال: "هذا ضعيف، لأن الكلام إذا استقام من غير تغيير النظم لم يُصر إلى التقديم والتأخير" ٦٠.

(٥٨) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٦٧٠ / ٢

(٥٩) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٣٣٧ / ٢

(٦٠) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ٤٤٥ / ١٢

فأنت - بَصَرَكَ اللهُ - تلاحظ أن هذا النوع من التقديم والتأخير المرفوض لدى العلماء ليس من "التقديم والتأخير البلاغي"، الذي يُراعى فيه المتكلم معاني لطيفة يريدُ قَدَحَهَا في ذهن القارئ أو السامع، وإنما يُلْجَأُ إليها بعضهم لتوهُم أن المعنى لا يستقيم إلا بعد تقديم مؤخر أو تأخير مقدم في الكلام، وليس - كما رأيت - متعلّقاً بالنحو، ولا يترتب عليه أيُّ فائدة إلا توهُم أن الكلام لا يصحُّ له معنى مع ترتيب ألفاظ الآية!

والمقصودُ أننا إذ نعرض لموضوع التقديم والتأخير الذي أثنى عليه عبد القاهر الجرجاني فيما نقلناه عنه، وأثنى عليه غيره وجعلوه من ضمن الوجوه التي يُدرك بها الإعجازُ البيانيُّ للقرآن الكريم؛ لا نجعلُ هذا النوعَ المرفوضَ منه، ولا نتناوله بالدرس، وقد اقتضى التنويه.

أنواع التقديم والتأخير

أما ما عرض له البلاغيون والمفسرون وعدّوه من تجليات الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم فيمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع، نلاحظها فيما نقرؤه من كتب المفسرين أو كتب البلاغيين، أخصّ منهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني:

أولها: تقديم ما حقه التأخير، وضابط هذا النوع: أن المقدم فيه له رتبة معلومة في التركيب، كالخبر رتبته التأخير عن المبتدأ، والمفعول رتبته التأخير عن الفعل والفاعل. وهذا النوع يُعلم حاله بمجرد النظر إلى العبارة، حيث يرى ما قدّم قد أُزيل عن مكانه من الجملة، ووُضع في مكان آخر مقدّماً على ما كان له، وقد عني البلاغيون بهذا النوع، ووضعوا له القواعد والأصول، ولم يهتموا بغيره إلا ما ندر^١.

وهذا النوع يسميه بعضهم: "التقديم الاصطلاحي".

(٦١) خصائص التعبير القرآني، ٥٩٣.

والثاني: تقديم ما ليس له رتبة معينة في التركيب، لكنه قد يقع مصاحباً لشبيه له أو أشباه مقدماً عليها، فيلحظُ البليغ سراً للمقدم، كتقديم الوصية على الدين، وتقديم حالة المقاتلية على المقتولية في بعض آي القرآن، وكتقديم الأموال على الأولاد، وتقديم العبادة على الاستعانة.

والثالث: نوع مختلف عن السابقين، لكنه متداخل مع كليهما وبيانه: أنك إذا نظرت إلى العبارة مجردة لم يظهر لك فيها تقديم أو تأخير، إنما ترى كل كلمة وقعت موقعها في الجملة التي هي فيها.

وإذا قارنت هذه العبارة بموضع آخر اتخذ معها في أصل المعنى ظهر أن الكلمة قدّمت في موضع وأخرت في موضع آخر، مثاله:

قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ {البقرة ٢٣٥}، وقوله في سورة الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ {الأعراف ٣١}، فلو أنك نظرت إلى آية البقرة المذكورة وحدها لم يظهر لك شيء من أمر التقديم والتأخير فيها، لكنك حين تقارنها بآية الأعراف المتفقة معها في أصل المعنى، المختلفة معها في النظم بان لك أمر التقديم والتأخير واضحاً^{٢١}.

وهذان النوعان "الثاني والثالث" يسميان: "التقديم غير الاصطلاحي"، وقد تجري مقارنة بين نصين كذلك؛ التقديم فيهما أو في أحدهما من التقديم الاصطلاحي؛ كما يأتي التمثيل.

ملخص وفذلكة للمبحث

"فالتقديم الاصطلاحي": "ما كان التقديم فيه تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم من الناحية "النحوية"، كتقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفاعل، والجار والمجرور على المتعلق بهما".



و"التقديم غير الاصطلاحي": "ما كان التقديم فيه غير متعلق بالنحو، وإنما بترتيب المذكورات وما أشبه ذلك".

وبهذا التقسيم المجموع بعضه إلى بعض أرُّنُو إلى الإسهام في إنضاج ما سَمَّاه بعضُ الباحثين: "منهج المفسرين" في التقديم والتأخير، وقد نصَّ د. عبد العظيم المطعني في كتابه "خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية" على تصنيفِ مناهجِ تناوُلِ "التقديم والتأخير"، وذكرَ منهجَ البلاغيين ومنهج المفسرين، وفصَّل في منهج البلاغيين، فذكر منهج الشيخ عبد القاهر والخطيب القزويني وابن الصائغ وابن الأثير، ولما ذكر منهج المفسرين عمَّم ولم يخصص، فلم يذكر منهج مفسر معيَّن تفرَّد بطريقة خاصة، بل قال موصِّفاً: ورأيت هذه الطريقة - طريقة المفسرين - قد استوعبت ما ذهب إليه أصحاب المناهج السابقة؛ فهي لا تتقيَّد بما قيَّد البلاغيون به منهجهم، ولا بما حصر ابن الصائغ فكرته، ولا بما دار في فلكه ابن الأثير، فهي تجمع ما تفرَّق من هذه الطرق من محاسن، ولذلك كان للمفسرين جولاتٌ غنيَّةٌ جداً في فهم التقديم في القرآن والكشف عن أسرارهِ المختلفة".

إلا أنه أخذ على المفسرين ملحظاً واحداً جعله محلَّ التَّقد، فقال:

"وكل ما يؤخذ عليهم أنهم قد ينساقون أحياناً وفي بعض المواضع إلى إرجاع شيء من التقديم إلى رعاية الفواصل"^{٦٣}.

ويمكن أن يُعدَّ هذا الذي ذكره الشيخ عبد العظيم معلِّماً من معالم "منهج المفسرين في التقديم والتأخير"، وذلك أنَّ كثيراً منهم إذا أراد تعليل مواضع من التقديم والتأخير علَّلها بمراعاة الفواصل، مع التنبيه على أنَّ ذلك ليس مطَّرداً عند المفسرين ولا هو محل اتفاق بينهم، إلا أنَّها

(٦٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، ١٣٥ / ٢

ظاهرة جديرةً بالنظر والدرس، قد نُسهم من خلال المبحث هذا ومن خلال الكتاب عموماً في إنصاحها.

الناظر فيما كتبه الشيخ عبد العظيم المطعني يجد أنه حاول توضيح "منهج المفسرين"، إلا أنه لم يصل إلى مبتغاه من ذلك، والعُذر له في ذلك، فإطلاقنا: "منهج المفسرين" هكذا على العموم: يستلزم منا مزيدَ بحثٍ ونظراً في المقصود به، ورصداً لسلوك المفسرين وتحليلاً له ليسنّى لنا تحديد معالم: "منهج المفسرين" في تناول "التقديم والتأخير"، والتعاطي معه خلال النص القرآني.

وقد طرح الشيخ سؤالاً حول هذه المناهج عموماً وأجاب عليه:
 "والسؤال الآن: أي هذه الطرق أجدى في فهم التقديم في القرآن؟ (يقصد مناهج البلاغين التي سبقت الإشارة ومنهج المفسرين)، والجواب: هي كلها بعد تهذيب بعضها وإصلاح حواشيها... إن القرآن كل حرف فيه -فضلاً عن كل كلمة وكل جملة- موضوع بحساب دقيق، وفيه ترتيب مقومات الأداء - أي وحدات الأسلوب - على وجه أحسن، وهو ثروة فكرية ومرتعة أدبية، فنحن في حاجة إلى منهج شامل ينظر في أسلوبه من حيث العبارات ومن حيث المعاني، ويقارن ويستخلص، فإن القرآن ما زال بكرةً عزيز المنال... وهذه المناهج كلها أعون على كشف أسرارهِ ومعانيهِ"^{٦٤}.

ذكر هذا، ثم طفق بعد ذلك يذكر ويحلل الأمثلة التطبيقية على التقديم في القرآن ويناقشها ويقارن بين توجيهات المفسرين فيها ويبين رأيه، لكننا في النهاية لم نفهم معالم "منهج المفسرين" بعد! وسيوضح شيء من معالم منهج المفسرين بعد عرض الأمثلة القرآنية للتقديم والتأخير من كتبهم، كما سيتضح في ذهنك منهج المفسرين أكثر في تعاملهم مع أبواب البلاغة المختلفة مع نهاية دراستك لهذا الكتاب، والله المستعان وهو يهدي السبيل.

أسرار التقديم والتأخير

وأمثلة قرآنية موضحة

تمهيد

ولنبداً بدراسة الأمثلة القرآنية ليسنى فهم التقديم والتأخير في القرآن الكريم فهماً تطبيقياً، وأقدم بين يدي ذلك بملحظين:

الملحظ الأول

* من المهم أن يتنبه المتدبر إلى أن الوسيلة إلى إدراك أسرار التقديم والتأخير في القرآن هي تأمل السياق ومحاولة فهم مقصود المتكلم - سبحانه - من تقديم شيء وتأخير آخر، ويُعين على ذلك أحد أمرين:

الأول: إعادة الكلام إلى ترتيبه الأصلي، ومقارنته مع النصّ القرآني المتضمن للتقديم، فالتأمل في ذلك يفتح أبواباً لإدراك الأسرار!

الثاني: مقارنة الموضوع محلّ الدراسة مع المواضيع المشابهة التي لم يقع فيها التقديم على هذا الوجه محلّ الدراسة والتدبر، أو وقع الترتيب مخالفاً له، ثم التأمل في كلا السياقين ومحاولة فهم السرّ الذي لأجله ناسب كل من الترتيبين سياقه.

الملحظ الثاني

* لا يكفيك كمفسّر أن تقول: قدّم هذا للاهتمام أو للتخصيص، وتغادر المقام إلى غيره! وإنما ينبغي أن تردف ذلك بمزيد بيان حول سرّ الاهتمام وسبب التخصيص في السياق، أو بيان سرّ ورود التقديم في نصّ والعدول عنه إلى غيره في النصّ الآخر، وسيأتي بيان ذلك في الأمثلة إن شاء الله.

كيف أصل إلى فهم أسرار التقديم في القرآن؟

الخطوة الأولى	الخطوة الثانية
إعادة الكلام إلى ترتيبه الأصلي ومقارنته مع النص القرآني المتضمن للتقديم	مقارنة الموضوع محل الدراسة مع المواضيع المشابهة التي لم يقع فيها التقديم أو وقع فيها الترتيب مخالفاً له

مثال

تقديم الأموال على الأنفس في سياق ذكر الجهاد بهما، كقوله تعالى:

﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وكان هذا مطرداً، باستثناء موضع سورة التوبة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، فقدّم الأنفس على الأموال.

نحاول بيان سر تقديم الأموال على الأنفس في عامة النصوص، ثم نتأمل المقتضي لخلاف هذا الترتيب في سياق سورة التوبة، فنقول - مثلاً -:

جاء الترتيب في عامة النصوص مراعاة لما يحصل من الواقع لأن المجاهد إنما

مثال

مثال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

{الفاتحة ٥}

الترتيب الأصلي: نعبدك ونستعينك، بالمقارنة يتبين أن قولنا: نعبدك، فيه إثبات عبادتنا له، لكن لا نفّي فيها لعبادة غيره!

نستعينك: فيه إثبات استعانتنا به، وليس فيه نفّي لاستعانتنا بغيره! بينما قول الله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أثبتنا فيه عبادتنا له واستعانتنا به، ونفّينا عبادتنا لغيره واستعانتنا بغيره.

يبدأ بماله قبل نفسه لا العكس، أو للتنبيه على أهمية الجهاد بالمال، أو للإشارة إلى أن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل، أو بغير ذلك من الإجابات.

أما آية سورة التوبة؛ فالسياق فيها سياقُ صفقة، ومن مظاهر الرغبة في الصفقة بذل الأعلى فيها والأهم، والنفس أهم من المال، فقدّم النفس إظهاراً لكمال الرغبة ووفورها في الحصول على السلعة التي هي الجنة.

التقديم الاصطلاحي؛ صوره وأمثله

سبق وأن ذكرنا لك المقصود بالتقديم الاصطلاحي، ولا حاجة إلى الإعادة، وأحسب أنك قد ضبطت المقصود به، فإن لم تكن فعلت فعُدْ أدراجك قليلاً واملاً جعبتك بما يلزم لإتمام الطريق.

ولنذكر لك أهم صور التقديم الاصطلاحي التي يكثر ورودها في القرآن الكريم وتشتدُّ حاجة المفسر إليها:

أولاً: تقديم الجار والمجرور على متعلّقهـا.

أيّ عدولٍ عن الترتيبِ الأصليِّ للجملة ينبغي أن يستدعي ملاحظة المفسرِ ومحاولةَ تعليله له!

والأصل في ترتيب الكلام العربي أن يتقدم المتعلّق بالجار والمجرور عليهما؛ كما في قوله تعالى: (فكلاً منها)، وقوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ {الرحمن ٣٣}، لكن قد يعدل عن هذا الترتيب إلى غيره لنكتة ما!

وسنجد بعد هذا الكلام أن التقديم يفيد معاني؛ سنمرُّ على أهمها، ونحلل بعض الأمثلة عليها.

أ- التخصيص

فلأبين لك الأصل الذي دلنا على أن تقديم الجار والمجرور على المتعلق بهما يفيد التخصيص والقصر، ذلك:

أنك إذا قلت: "ذهبت إلى المسجد" - على الأصل في ترتيب الكلام - أفاد ذلك معنى واحداً، وهو: ذهابك إلى المسجد، ولا عرض لمعنى آخر سواه؛ لا بنفي ولا بإثبات، فإذا ما قدّمت الجار والمجرور فقلت: "إلى المسجد ذهبت"؛ أفدتَ معنيين: الأول منهما: ذهابك إلى المسجد، والثاني: نفيك لذهابك إلى أي مكان آخر، ويسمى هذا: القصر أو التخصيص.

ومثاله من القرآن:

﴿قوله تعالى: "وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ".

"وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ".

"عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا".

حيث نلاحظ في الآيات المذكورة تقدّم الجارّ والمجرور على المتعلّق بهما، وهذا خلاف ما عليه الترتيب الأصلي للجملة العربية، وإنما تقدم الجار والمجرور "على الله" على متعلّقهما في الآيات: "فليتوكل، فليتوكل، توكلنا" لإفادة معنى القصر والتخصيص؛ حيث إن المقصود: وعلى الله لا على غيره فليتوكل المتوكلون المؤمنون، وقول الله تعالى: "على الله توكلنا" إخبار منهم أن توكلهم إنما هو على الله وحده لا على سواه!

وهذا المعنى زائد- كما ترى- على مجرد الأمر بالتوكل على الله أو الإخبار بأننا متوكلون على الله! إذ لا ينفي التركيب التوكل على غيره! ويُتصوّر من العبد أن يتوكل على الله وأن يتوكل على غيره معه، فلما قال - مثلاً -: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ {المائدة ٥٣} علمنا أن الأمر لا بمجرد التوكل؛ وإنما هو به مع إرادة أن لا يحصل إلا عليه!

﴿وَمِثْلُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ٥٩ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ {الغاشية}، فتقديم الجار والمجرور: (إلينا، علينا) على المتعلق: "إياهم، حسابهم"؛ لإفادة التخصيص، بحيث يكون المعنى: إن إلينا إياهم لا إلى غيرنا، فإنهم ليس لهم رجعة إلا "إلينا"! وإن علينا حسابهم لا على غيرنا، فإنه لن يتولى حسابهم أحد سوانا!

وإنك لتدرك ما في طيات هذا التركيب من التخويف لهم والتهديد الرعب إذا ما تأملت دقة التقديم والتأخير وما أفاده من معنى القصر والتخصيص!

ب- الاهتمام

وقد يتقدم الجار والمجرور على المتعلق، لكن معنى "التخصيص والحصص" لا يناسب السياق، فيكون غرضه: "الاهتمام وتقوية الحكم".

- ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ {المؤمنون ٥٩}؛ فقدّم الجار والمجرور: "بربهم"، ومعنى التخصيص لا يناسب السياق، فالمناسب أن نقول: إنما قدّم الجار والمجرور للاهتمام وتقوية الحكم، وسيأتي مزيد بيان بعد قليل.

ثانياً: تقديم المفعول على الفعل.

من المعلوم أن ترتيب الجملة الفعلية في الأصل: أن يتقدم الفعل ليتلوه الفاعل ثم المفعول، فنقول: قرأ الشيخ القرآن، وصلى المسلم صلاته، لكن المفعول إذا تقدم وحقق التأخير؛ وجب أن نبحث عن سرّ قصد إليه البليغ من ذلك، ومن أهم المعاني التي يفيدها ذلك التقديم للمفعول:

أ- التخصيص:

لاحظ - مثلاً - تقديم المفعول به في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ {الفاحة ٥} فـ "إياك" في الموضعين: ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدّم، وأصل الكلام: نعبدك، وثمة فرق في المعنى بين قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبين قولنا: نعبدك، فـ (نعبدك) أفادت معنى واحداً، وهو أننا نتوجه إليه بالعبادة، لكننا لم نعرض لمسألة ما إذا كنا نتوجه إلى غيره بها - حاشا -!

في حين أن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أفادت أننا نتوجه إليه بالعبادة، وننفي توجهنا إلى غيره بها، فعبادتنا لا نتوجه بها إلا إليه، ونذر ما يعبد الناس من دونه!

قال الزمخشري رحمه الله:

"وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ {الزمر ٦٤} ، ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا﴾ {الانعام ٦٦} . والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة" ٦٥.

﴿ومثل هذا قول الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾﴾ {الزمر ٦٦}، حيث ترى تقديم لفظ الجلالة "الله" - وهو المفعول في الجملة - لإرادة التخصيص، والمعنى: بل الله وحده دون سواه فاعبد، ولا تعبد معه غيره.

انظر إلى عبارة الفخر الرازي رحمه الله في بيان سرّ التعبير المناسب للسياق: "واعلم أنّه تعالى لما قدّم هذه المُقدّمات ذكر ما هو المقصودُ فقال: (بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)، والمُقصودُ منه: ما أَمَرُوهُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ بِبَعْضِ آهَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّكُمْ تَأْمُرُونِي بِأَنْ لَا أَعْبُدَ إِلَّا غَيْرَ اللَّهِ؛ لأنَّ قوله: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ) يُفِيدُ أَنَّهُمْ عَيَّنُوا عَلَيْهِ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ، فقال الله: إِنَّهُمْ بِسَمٍّ قَالُوا، ولكن أنت على الضدِّ ممّا قَالُوا، فَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قوله: (بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ) يُفِيدُ الْحُضَرَ".

قارن بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ {الفاتحة ٦} حيث جاء الترتيب على أصله: "اهدنا"؛ فعل وفاعل مستتر ومفعول، كلٌّ في المكان المخصص له من الجملة، بخلاف قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، ذلك أنه لو قال: (إيانا اهد) لما كان لائقاً ولا صحيح المعنى، إذ لا يُشرع طلب الهداية لنا دون غيرنا من الناس.

﴿وكذلك قوله على لسان عيسى بن مريم في سؤاله المائدة: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾﴾ {المائدة ١١٤} حيث لم يقل: (إيانا ارزق)، فيفيد لو كان الترتيب كذلك: التخصيص؛ إيانا ارزق أو لا ترزق غيرنا!!

التنبية على المهارة

لاحظ فيما سبق من الكلام أن من أفضل طرق الكشف عن أسرار التقديم والتأخير: المقارنة بين النص القرآني المتضمن للتقديم والتأخير وبين نص آخر ليس فيه ذلك؛ لتدرك السر.

أو أعد الكلام إلى ترتيبه الأصلي وحاول مقارنته مع النص يبدو لك ذلك ويفتح لك فيه، وتنبه إلى السياق والزم النظر فيه؛ فإن الجواب هناك.

ب- الاهتمام:

ظهر من خلال الأمثلة السابقة أن التخصيص والقصر مما يستفاد من تقديم المفعول على الفعل وفاعله، لكن عند التأمل في بعض الآيات فإنك لا تجد تعليل التقديم بالتخصيص مناسباً!

انظر مثلاً إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ﴾ {الضحى}، ف (اليَتِيمَ) و (السَّائِلَ) في الآيتين مفعولٌ مقدّم للفعليْن (تَقْهَرْ) و (تَنْهَرْ)، والتقدير: لا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، ولا يسوغ اعتبار التقديم هنا مفيداً للتخصيص، إذ سيصير المعنى غير مستقيم ولا مراد: لا تقهر اليتيم دون غيره، ولا تنهر السائل دون غيره، ومن المعلوم أن قهر سوى اليتيم لا يجوز، ونهر غير السائل لا يجوز، فكيف يمكن أن نفهم الغرض من التقديم هنا؟!

إذا لم يناسب السياق معنى التخصيص والقصر - كما هو في المثال السابق -، فليُعلم أن العرب قد تقدّم المؤخر بقصد "الاهتمام"، دون معنى التخصيص والقصر.

فنقول في الآيتين المذكورتين: إنما قدّم اليتيم والسائل للاهتمام والتوجيه: أما اليتيم فضعيف، وكذلك السائل، وهما مظنةٌ للقهر والنهر، ولما كان كذلك كان تقديم ذكرهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما^{٦٧}.

وقد ذكر ذلك البقاعي في نظم الدرر؛ حيث قال:
"ولما ذكره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها، فقال مسبباً عنه، مقدماً معمول ما بعد الفاء عليها اهتماماً: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ) أي هذا النوع (فَلَا تَقْهَرْ) أي: تغلبه على شيء"^{٦٨}.

﴿وَمِثْلُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾﴾^{٦٩} {الانعام ٨٦}.

فقوله: (كُلًّا هَدَيْنَا) فيه تقديم المفعول؛ إذ الأصل: هدينا كلا، ولا يسوغ ادّعاء كون التقديم هنا لإفادة التخصيص؛ إذ سيكون تخصيصاً للهداية بهما دون غيرهما، وهذا المعنى ليس مراداً حتماً! وإنما قدّم المفعول: "كلاً" العائد على إسحاق ويعقوب اهتماماً بهما وزيادة مدح لهما، والعرب تقدّم الأهم في السياق!

والحاصل:

أن تقديم الجار والمجرور على متعلّقهما أو المفعول على الفعل وفاعله يفيد أحد معنيين:

١ - التخصيص والقصر.

٢ - الاهتمام بالمقدم في السياق.

(٦٧) انظر التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ٥١.

(٦٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢٢/ ١١٠.

التنبية على المهارة

كيف أُميز بين التقديم المرادُ به التخصيصُ والقصر، وبين التقديم المرادُ به مجردُ الاهتمام دون التخصيص والقصر؟

ينظر المتدبرُّ في السياق ويَزنُ المعنى، وينظر أيَّ المعنيين أنسب وأوفق! وقد رأيتَ في الأمثلة السابقة أن معنى التخصيص والقصر حَسُنَ في مثل قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ {يونس ٨٥}، في حين لم يحسن في مثل قوله: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

فتنزِّلُكُ المعنى المحتمل إرادته من التقديم على سياق الآية هو مفتاح الجواب على سؤالك التدبري: لأيَّ معنى قَدَّمَ الجار والمجرور أو قَدَّمَ المفعول في النص محلَّ التدبر والتفسير.

ج- تقديم المفعول لمقتضيات نحوية:

قد تكون قواعد النحو موجبةً تقديم المفعول به في حالاتٍ نصَّ عليها النحاة، ومن أهمِّ ما يعيننا منها ويترتَّبُ عليه فوائد تفسيرية:

- أنه يجب تقديم المفعول به على الفاعل حيث يتَّصلُ بالفاعل ضميرٌ يعود على المفعول، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ {البقرة ١٢٤}. هو من الأمثلة المشهورة التي يُتساءل عنها.

وهذا التقديم للمفعول: (إِبْرَاهِيمَ) على فاعله: (رَبُّهُ) وإن كان واجباً نحوياً لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول إذ لا يصلح أن تقول: "وإذ ابتلى ربُّه إبراهيم!" لما أن الضمير يعود على ما سبقه لا على ما لحقه؛ فإن هناك معاني كانت ستفوت لو صيغتُ الجملة بأسلوب آخر فقليل:

ابتلى الربُّ إبراهيم، مثلاً! ذلك أن الضمير المضاف إلى عنوان الربوبية العائد على إبراهيم عليه السلام أضاف معاني التشريف لإبراهيم عليه السلام من جهة إضافة الضمير العائد عليه إلى الرب، وما احتواه معنى الربوبية من الرعاية والتربية والاصطفاء، فلو اخترنا حذف الضمير -على ما افترض- لفات كل هذه المعاني الدقيقة من النص.

ولأجل هذا ذهب المحققون إلى أن هذه الأمثلة القرآنية من التقديم النحوي لا تخلو من فوائد بلاغية وأسرارٍ معنوية وراء اختيار التركيب، يقول الدكتور زيد العيص في كتابه: "التقديم والتأخير في القرآن":

"ونحن نرى أن تقديم المفعول في هذه الصور إنما جاء لدلالة من أجلها قُدِّم؛ لا من أجل الصناعة النحوية فقط، لأن الالتزام بهذه القواعد ليس هدفاً وغاية في القرآن، إنما ذلك وسيلة لتظهر الدلالات المقصودة ويستقيم النظم"^{٦٩}.

﴿وَتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾﴾ (غافر ٥٢)، تجد تقديم المفعول هنا واجباً بحكم اتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، وتجد في النظر في هذا التركيب أن إضافة ضميرهم إلى "المعذرة" أفاد معاني دقيقة ما كانت لتُستفاد لو جاءت العبارة هكذا: يوم لا ينفع الظالمين المعذرة أو لا ينفع المعذرة الظالمين، إضافة ضميرهم أفادت نوع اختصاصٍ للمعذرة بهم واجتهاداً لهم فيها وما أشبه ذلك.

(٦٩) التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ١٨٨، رسالة ماجستير.

د- تقديم المفعول لمراعاة الفاصلة القرآنية:

تطلق الفاصلة ويراد بها أحد المعاني الثلاث:

١- حرف الروي الذي تنتهي به الآية، ويشبه قرينة السجع وقافية الشعر.

٢- المقطع الذي تنتهي به الآية.

٣- الجزء الأخير الذي تُذيل الآية به، ويكون أفضل نهاية مناسبة متمكنة لها^{٧٠}.

وقد ذكر ابن الأثير أن من أغراض التقديم في القرآن: مراعاة النظم، وقال: "وهذا الوجه أبلغ وأؤكد من الاختصاص"^{٧١}.

ويرد كثيراً على ألسنة المفسرين أنه قدّم كذا أو أخر كذا أو حذف كذا مراعاة الفاصلة! ولا شك أن مراعاة الفاصلة يزيد النظم جمالاً وعذوبةً على اللسان وفي الأذن، ولا يُنازع أحدٌ في ذلك، إنما ينازع من نازع: في الاكتفاء بـ "مراعاة الفاصلة" علةً للتقديم أو الحذف أو ما أشبه!

وذهب المحققون إلى أن السر البلاغي هو الذي ينبغي أن يُقتفى في تحليل الظواهر السياقية، ومنها: التقديم والتأخير، وأن الاكتفاء بتعليلها بمراعاة الفاصلة يلزم منه الادعاء بأنه لا فائدة منها في هذه المواضع، في الحين الذي تُعلّل فيه المواضع الأخرى بعلةٍ بلاغية ذات أثر على المعنى الدقيق، وقد انتصر لمنع الاكتفاء بمراعاة الفاصلة علةً للتقديم: الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز؛ حيث قال:

"واعلم أن الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين؛ فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض، وأن يعلّل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حيث

(٧٠) التناسب البياني في القرآن، أحمد أبو زيد، ٣٥٠.

(٧١) ابن الأثير المثل السائر، ٣٩.

تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدلُّ تارة ولا يدل
أخرى" ^{٧٢}.

أقول: فإذا رفض عبد القاهر تعليل جملة الكلام البليغ بمثل هذا؛ فأولى والله أن نرفضه في كلام
الله تعالى!

ثم تابع موضحاً:

"فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنه قد اختصَّ بفائدة؛ لا تكون
تلك الفائدة مع التأخر؛ فقد وجب أن تكون تلك القضية في كل شيء وكل حال!

ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء: أن يدعي أنه كذلك في عموم الأحوال، فأما أن
يجعله بين بين، فيزعم أنه للفائدة في بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض فمما ينبغي
أن يُرغب عن العقول به" ^{٧٣}.

ولا بد من التنبيه على أننا لا نقلل من قيمة التعليل بمراعاة الفاصلة؛ فإن عُذوبة النظم من شأنها
أن ترتقي بمنزلة الكلام في الذهن، وتزيده حلاوة في الأذن، إنما نرى أنه لا بدَّ مع هذه العلة من
التأمل لإدراك علة أخرى تنضاف إليها.

(٧٢) دلائل الإعجاز، ٨٨.

(٧٣) دلائل الإعجاز، ٨٨.

أمثلة للمدارسة

مما قيل في تعليل التقديم فيه: إنه لمراعاة الفاصلة، ومناقشة ذلك

﴿قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ {الحجر ٦١}، قيل: "فتقدم المفعول على الفاعل مراعاة لنظم الكلام بتناسب الفاصلة، حيث إنها جاءت في هذا السياق: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ {٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ {الحجر ٧٤}.

وهذا حسن، لكننا لو قلنا: إن تقديم المفعول به لإفادة الاهتمام، من حيث إن "آل لوط" هم العنصر المراد التركيز عليه في الجملة فحسُن تقديمه لما أن العرب تقدم الأهم المقصود في السياق، بالإضافة إلى أن هذا التقديم جاء مناسباً للنظم مراعيّاً للفاصلة.

﴿وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ الذُّرُ﴾ {القمر ١٦}، فإن سورة القمر متميزة بالراء في فاصلتها، ومع هذا فإن الاهتمام علة أساسية من علل التقديم في الآية.

وقد استحضر ابن الأثير مثلاً آخر لتوجيه التقديم فيه بمراعاة الفاصلة، ذلك في قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ {٣٠} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ {الحاقة}، فقال:

"فإن تقديم الجحيم على التصلية - وإن كان على نية تقديم المفعول على الفاعل - إلا أنه لم يكن هنا للاختصاص، وإنما هو للفضلية السجعية، ولا مراء في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من لو قال: خذوه فغلوه ثم صلوه الجحيم، بخاصة وقد ورد بعدها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ {الحاقة ٣٠} " ٧٥.

وإذا كان ابن الأثير لم ير في هذا التقديم إلا مراعاة الفاصلة، فقد رأى غيره غير ذلك، فالرازي - مثلاً - يرى في تقديم المفعول معنى الاختصاص، الذي ردّه ابن الأثير في كلامه، قال في تفسيره

(٧٤) التقديم والتأخير في القرآن، د. زيد العيص، ١٨٤.

(٧٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ٣٧/٢.

الكبير: "﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾ {الحاقة ٣١} معناه: لا تصلّوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس" ٧٦.

ورأى ابن عاشور في تقديم المفعول سراً آخر بديعاً إضافة إلى مراعاة الفاصلة، فقال: "وتقديم (الْجَحِيمَ) على عامله لتعجيل المساء، وهذا داخل في الاهتمام مع الرعاية على الفاصلة ٧٧.

التنبية على المهارة

عند التأمل في سر التقديم أو التأخير لاحظْ ضمن ما تحيل فيه ذهنك: فواصل الآي، فإن رعايتها قد تكون أسباب التقديم والتأخير.

لكن احرص على ألا تكتفي بمراعاة الفواصل في تعليل ظواهر التقديم والتأخير والحذف والذكر وغيرها.

ولهذا المبحث علاقة بالنوع الآخر من التقديم، وله علاقة كذلك بالمبحث التالي؛ وهو الحذف، وقد أثرت عرضُه هنا فلا أعيدُه هناك، ولنقِس المباحث المذكورة على ما نذكره؛ فإن القواعد المتعلقة بهذا سائرة مطردة.

تدريبات قرآنية " التقديم الاصطلاحي "

فلنتأمل هذه الأمثلة القرآنية، ولنبدأ بالمثال الأسهل:

١ - عند إسناد المُلْك له سبحانه عادة ما يتقدم الجار والمجرور، من مثل قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ {الشورى ٤٩}، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ {الحديد ٢٥}.

(٧٦) تفسير الرازي، ١/ ١٣١.

(٧٧) التحرير والتنوير، ١٤/ ١٣٨.

● النظر في فائدة التقديم ●

يدرك المتأمل بسهولة أن غرض التقديم السائر في القرآن في مثل هذه الآيات: التخصيص والحصر، والمعنى: مُلك السماوات والأرض له لا لغيره، لا يُشركه في هذا الملك أحد.

٢- في قوله: ﴿أَبَشِّرْ مَنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ {القمر ٢٤}، ما سر تقديم المفعول: (أَبَشِّرْ)، وتقديم صفته: (مَنَا) و (وَاحِدًا) على الفعل: (نَتَّبِعُهُ)، على أن الترتيب المتبادر: تقديم الفعل: أتبع بشرًا منا واحدًا؟

● النظر في فائدة التقديم ●

لو تأملنا لأدركنا أن مشكلتهم ليست في مجرد الاتباع، فلو كان المتبع على صورة ما يشتهونه لما كان عندهم في ذلك مانع! وإنما مشكلتهم في أن مَنْ أَمَرُوا أن يتبعوه: بشرٌ منهم، وأنه واحدٌ من بعد! فكيف يدينون له بالانقياد والاتباع!؟

وهذا أدعى في إراءة كبرهم وانحراف فكرهم، فهم - في عيون أنفسهم - السادة الكبراء المطاعون! واتباعهم بشرًا منهم واحدًا يُناقض ذلك كل المناقضة! ولو أن الله أنزل عليهم ملكًا لكان هذا - عندهم - هو الوجه!

وهنا موطن اختلال الفكر وانحراف التصور، بعد أن ظهر في لحن كلامهم: كِبَر نفوسهم وطمعها على اتباع الحق.

٣- قوله تعالى في الشريب على بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ {البقرة ٨٧}، فقدّم في الموضعين المفعول: (فَرِيقًا) على الفعل: (كَذَّبْتُمْ) و(تَقْتُلُونَ).

● النظر في فائدة التقديم ●

إن الفريق المذكور في الآية إنما هو من الأنبياء عليهم السلام، وهنا يظهر عمق الجريمة الإسرائيلية، فإن التكذيب والقتل وإن كانا قبيحين كل القبح، متناهيين في شدة الجرم والاعتداء إلا أنهما أقبح وأشدُّ جرماً وأعظم خطراً إذا كانا في حق الأنبياء المكرمين! ولهذا المعنى من الاهتمام قدّم في الموضوعين: فريقاً؛ وهو المفعول الذي من حقه التأخير!

فالمصيبة في الفعل الإسرائيلي أعتى وأخطر في كون فعلَي التكذيب والقتل متوجهين إلى الأنبياء عليهم السلام؛ الذين من حقهم الإكرام والاتباع لا القتل والتمرد!

٤ - نلاحظ تقديم المفعول (نفساً) في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ {الانعام ١٥٨}.

● النظر في فائدة التقديم ●

لا بدّ من ملاحظة كون تقديم المفعول به هنا واجباً، وهو من المقتضيات النحوية، لماذا؟ لأنه قد اتصل بالفاعل: (إِيْمَانُهَا) ضمير يعود على المفعول، وقد عرفت - سدّدك الله - أن هذه الحالة من الحالات التي يجب فيها تقديم المفعول به، وهذا جواب نحويّ سديد.

لكنّ الأكمل أن تبحث عن سرِّ بلاغيّ تضيفه إلى جوابك النحوي، وسييل ذلك أن تتأمل الفائدة التي حصلت بإضافة ضمير المفعول: (ها) إلى الفاعل: (الإيمان). فلنعد بالجملة إلى أصلها التركيبي: لا ينفَعُ إِيْمَانُ نَفْسًا... أظنك بدأت تتذوق معي الفرق ما بين الجملتين، فالكلام ليس عن انتفاع النفس بأي إيمان كان، وإنما عن عدم انتفاعها بإيمانها هي لا بإيمان غيرها!!



إن ذلك اليوم الذي تأتي فيه بعض آيات الله لا تنتفع النفس حتى بإيمانها هي ما دام ذلك الإيمان حادثاً بعد مجيء الآيات، ولا تنتفع بشيء من أعمالها الصالحة ما لم تكن اعتادت طريق الطاعة في إيمانها من قبل!

٥ - قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ {البقرة ٢٥٩}.

ابحث عن موضع التقديم فيما قرأت، ستري أنه قد تقدّم المفعول به: (هَذِهِ) على الفاعل: لفظ الجلالة (الله)، وأصل التركيب: أَنَّى يحيي الله هذه؟! فعَدَلْ عن التركيب الأصلي إلى تركيب آخر تقدّم فيه المفعول به على الفاعل، ولا بدّ من سرٍّ ما؛ لأجله عدل على التركيب الأصلي إلى خلافه! ما الفرق بين الجملتين:

- أَنَّى يحيي الله هذه؟

- أَنَّى يحيي هذه الله؟

يظهر من السياق أن الرجل مؤمن صالح، وقد قال - كما في آخر الآية -: ﴿أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {البقرة ٢٥٩}.

ويظهر كذلك أنه لم يستبعد الإحياء على الله تعالى، وإنما نظر في حال القرية: (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا): فارغة لا حيٍّ فيها، ساقطة جدرانها على سقوفها المتهاوية؛ لا مظهر فيها من مظاهر الحياة؛ فاستبعد عليها الحياة بعد هذه الحالة المورقة في الموت، لأجل هذا كان الأليق تقديم ما هو محل الاستغراب والاستبعاد: (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا)، ولو كان الرجل مستبعداً لقدرة الله على الإحياء لما كان أصلاً من أهل الإيمان، فأهل الإيمان لا يساورهم استبعاد قدرة الله على شيء من الأشياء البتة! فتأمل!

"التقديم غير الاصطلاحي"

قدّمنا أنّ التقديم غير الاصطلاحي هو ما كان من التقديم غير متعلّق بالترتيب النحوي، وإنّما بترتيب مذكورات في الآية الواحدة أو في السياق، والذي يدعو في الأغلب إلى التساؤل حوله أو إثارة التفكير فيه: المقارنة بين المواضع المتشابهة المختلفة في ترتيب بعض مذكوراتها.

ولا قاعدة عامّة تحكم هذا النوع من التقديم، اللهم إلا قاعدة واحدة مطّردة لا تختلف، وهي أنّ الذي يقدّم من المذكورات إنّما يقدّم لمعنى يحسّنه السياق، فالسياق هو الحاكم في فهم أسرار الترتيب في الآيات.

لكن مع ذلك يمكننا أن نرمق أثناء تجوال الفكر بعض العادات القرآنية في الترتيب، وهذه العادات قد تختلف في مواضع بسبب اقتضاء السياق، وقد عدّ منها الزركشي رحمه الله في البرهان خمسة وعشرين مقتضى للتقديم^{٧٨}. ومن أهم ذلك:

أولاً: التقديم للأهمية والفضل.

﴿وَنَجِدُ هَذَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٦﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٧﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبا].

فالمراد بالحبّ هنا: الحبّ المُقتات للناس، مثل: الحنطة والشّعير والذّرة والأرز. والمراد بالنبات: النبات الذي لا يؤكّل حبه وإنّما ينتفع بذاته، مثل: الخضراوات التي يأكلها الناس، والعلف والتبن الذي تأكله الدواب.

أما الجنات: فهي البساتين المغروسة شجراً؛ كالنخل والتين والرمان والشجر المثمر عموماً.

ووصف الجنات بالألفاف: إيماءً إلى كمال المنّة في ذلك، من حيث إن الجنات الألفاف هي الملتفُّ بعضها على بعض لكثافتها واشتداد خضرتها وتعاضم أفنانها.

أما سرُّ ترتيب هذه المذكورات؛ حيث ذكر الحب أولاً ثم النبات ثم الجنات الألفاف فهو على حسب أهميتها للإنسان؛ إذ تعتمد حياته على الأغلب الأعمُّ على الحبوب، ويحتاج إلى النبات والزروع حاجة هي أقلُّ من حاجته إلى الحبوب، وتكُمّل حياته بالتنعم بالظلال الوارفة والثمار الجنيّة.

قال الإمام الرازي عليه الرحمة:

"وإِنَّمَا قَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَبَّ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْغِذَاءِ، وَإِنَّمَا ثَنَّى بِالنَّبَاتِ لِاحْتِيَاجِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَخَّرَ الْجَنَّاتِ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْفَوَاكِهِ لَيْسَتْ ضَرْوَرِيَّةً"^{٧٩}.

ومن تقديم الأفضل:

تقديم النبيين على الصديقين، وتقديم هؤلاء على الشهداء وهؤلاء على عموم الصالحين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ {النساء ٦٩}.

(٧٩) تفسير الرازي، ١١/٣١.

(٨٠) انظر: البرهان للزركشي، ٧٨٥.

ومنه:

﴿تقديم المهاجرين على الأنصار حيثما ذكروا؛ كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ {التوبة ١٠٠}، وكذا في سورة الحشر عند الحديث عن مستحقي الفيء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا... وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ... وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ...﴾ {الحشر}.

ومنه:

﴿تقديم الخيل على البغال والحمير في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾﴾ {النحل ٨}، وقد يكون منه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ {البقرة ٢٧٤}، فقد قَدَّمَ الإنفاق في الليل عليه في النهار، والإنفاق سرّاً عليه علانية للأفضلية، والله أعلم.^{٨١}

ثانياً: التقديم للأسبعية الزمنية

مثال ذلك من المشهور:

﴿تقديم الجنّ على الإنس، إذ المشهور أن الجن أسبق خلقاً من الإنس، وهو الذي أُجيب به عن سرّ تقديم الجنّ على الإنس في أكثر الآيات، تأمل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ {الانعام ١٣٠} ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ {الاعراف ٣٨} ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ {الحقاف ١٨} ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ {فصلت ٢٥}﴾

وغيرها من الآيات إذا أنعمت فيها النظر، تجد أن تقديم الجن على الإنس معلّل بسبقهم في الزمان، وقد ظهر المنحى الزمني في بعضها: كآية الأعراف وآية الأحقاف وآية فصلت، مما يشرح أن يكون الزمن هو سبب التقديم.

(٨١) انظر: التقديم والتأخير، د. زيد العيص، ٣٢٣.

وقد يترشح سبب آخر لتقديم الجن على الإنس بالإضافة إلى الأسبقية الزمنية: كآية سورة الرحمن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ {الرحمن ٣٣}. فتقديم الجن يناسب السياق الخاص للآية؛ بالإضافة إلى الأسبقية الزمنية.

نجد السياق يتحدث عن تحديّ الجنّ والإنس بالنفوذ في أقطار السماوات والأرض، وهذا النفوذ في أقطارها تتفاوت فيه قدرات الجن والإنس، فالجن بطبيعة خلقتهم أقدر على هذا من الإنس، ولما كان السياق في التحدي ناسب أن يقدم الأقدر على المتحدّي به، ويتأخّر الأقل قدرة عليه. وهذا من روائع التقديم والتأخير في القرآن، وهو من الأمثلة المشهورة.

ومن التقديم بالأسبقية الزمنية: تقديم الظلمة على النور في قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ {الانعام ١٠١}. وقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ {الرعد ١٦}، وقد يضاف في بعض المواضع أسباب أخرى لتقديم الظلمات على النور.

ومثله:

﴿جاء ترتيب الكتب المنزلة من عند الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ {٣} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ {ال عمران ٤}، ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ {الاعراف ١٥٦}، ففي آية آل عمران مثلاً: ذكر الكتب الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، والقرآن أفضلها ولا شك؛ إلا أن الترتيب لم يكن وفق الأفضلية وإنما حسب السبق الزمني في النزول.

ثالثاً: التقديم بالغلبة والكثرة:

مثاله:

﴿قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾﴾ (فاطر ٣١)،
فترتيب الأصناف المذكورة جاء على حسب الكثرة، فالأكثر هم من الظالمين أنفسهم - نسأل الله
السلامة -، يليهم المقتصدون، والأقل: السابقون بالخيرات^{٨٢}.

﴿وقيل كذلك في قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾﴾ (ال عمران ٤٠)، حيث قدم السارق
على السارقة لما أن السرقة أكثر في الرجال منها في النساء، وذهب الزمخشري إلى أن هذا هو سر
تقديم (الزانية على الزاني) في قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور
١٠)، لأن الزنا في النساء أكثر منه في الرجال بعكس السرقة^{٨٣}.

وقد علق أستاذنا د. زيد العيص على كلام الزمخشري بما نصه:
"وعندي أن هذا فيه نظر؛ لأنه قد يزني عشرة من الرجال أو أكثر بامرأة واحدة، كما كانت تفعل
ذوات الرايات الحمر في الجاهلية، فعلة تقديم الزانية غير الكثرة، فقد تكون قُدِّمت لأنها الأصل
في الجريمة، إذ لولا أنها رَغِبَت الرجال في نفسها لما حصل شيء، أو يكون قدمها في الزنا وأخرها
في السرقة لأنها تميل إلى الزنا أكثر وتجروء على فعله بخلاف السرقة، فاقتضى ذلك البدء بها في آية
الزنا لتحذيرها مما ترغب فيه، فيُظَنُّ أنها تُقَدِّم عليه أكثر من غيره"^{٨٤}.

(٨٢) انظر: المثل السائر لابن الأثير، ٢/ ٤٧. والبرهان للزركشي، ٧٨٧.

(٨٣) الكشف، ٣/ ٤٩.

(٨٤) التقديم والتأخير في القرآن، ٣١٩.

وهو معنى عبارة ابن المنير في حاشيته على الكشف، حيث قال: "وقدم الزانية على الزاني، والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها في الإيماض والإطماع والكلام"^{٨٥}.

وجميل تعبير النسفي إذ قال متحرّياً الدقة في التعليل:
"وبدأ بالرجل لأن السرقة من الجراءة وهي في الرجال أكثر وأخر الزاني لأن الزنا ينبعث من الشهوة وهي في النساء أوفر وقطعت اليد لأنها آلة السرقة ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل"^{٨٦}.
وكل ذلك - كما ترى - محل لاختلاف الأنظار وتنوع البيئات.

ومن المواضع التي قيل فيها: إن التقديم بحسب الكثرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ {التغابن ١٦}، قال ابن الحاجب:
"إنما قدم الأزواج لأن المقصود الإخبار بأن فيهم أعداء، ووقوع ذلك في الأزواج أقعد منه في الأولاد، فكان أقعد في المعنى المراد فقُدّم، وكذلك قُدّمت الأموال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ {الأنفال ٢٨}، لأن الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة، وليست الأولاد في التزام الفتنة مثلاً"^{٨٧}.

مثال تدريبي للمناقشة

وقد جعل د. فاضل السامرائي منه: قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ {البقرة ١٥٩}، وذكر أن الترتيب إنما كان هنا وفق الكثرة والقلة، لكنه هنا رُتّب من الأقل إلى الأكثر، فكل طائفة هي أقل عدداً من التي بعدها، فتدرّج من القلة إلى الكثرة، فالطائفون أقل

(٨٥) حاشية ابن المنير على الكشف، ٢/ ٣٧٣.

(٨٦) تفسير النسفي، ١/ ٤٤٥.

(٨٧) البرهان في علوم القرآن، ...

من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عموماً، والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد، والراكعون أقل من الساجدين، وذلك لأن لكل ركعة سجدتين، ثم إن كل راع لا بد أن يسجد، وقد يكون سجود ليس له ركوع، كسجود التلاوة وسجود الشكر، فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة" ٨٨.

ومن باب تدريب القارئ أقف مع هذا التوجيه لأستاذ الفن د. فاضل السامرائي في كلامه حول الترتيب في الآية السابق ذكرها، فأقول:

عند التأمل في السياق نجد أن هذا التوجيه لا يتناسب مع الآية، إذ الآية فيها ذكر خطاب الله تعالى لنبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأمرهما بتطهير (البيت الحرام) للطائفين والعاكفين والركع السجود، فالكلام إذاً عن البيت الحرام لا عن غيره من بيوت الله تعالى ولا عن عموم الأرض، وتوجيه أستاذنا مبني على أن المقصود العموم، والذي يبدو لي في التوجيه أقرب أن يقال: إن الكلام لما كان عن البيت الحرام وتطهيره للعابدين حسن تقديم ما يختص به من العبادات، فإن الطواف لا يُشرع في غيره، والعكوف - وإن كان الجمهور قد أجازوه في عموم المساجد - إلا أنه بالمسجد الحرام أحص، فلذلك أخره عن الطواف وقدمه على الصلاة المعبر عنها بـ (الرُّكْع السُّجُود)؛ وهي مشروعة في الأرض كلها، وهي أفضل في المسجد الحرام.

(٨٨) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص ٥٧.

التنبية على المهارة

ينبغي تفحص السياق وقياس خواطر التدبر على مدى مناسبتها للسياق. وعند تراحم الخواطر التدبرية المتعلقة بتقديم مذكور أو تأخيرها؛ انظر أيها أوفق لسياق الآيات فاعتمده، ولا بأس بذكر غيره مما يحتمله المقام ولا يناقضه السياق؛ إذ إنك في هذه الحال لست مضطراً لاعتماد أحدها فحسب دون الوجوه الأخرى إن كانت محتملة واردة، والجمع بينهما حسن، لكن احذر التكلف، وعليك بالعذب المتبادر.

رابعاً: تقديم السبب على المسبب:

ومثاله:

﴿قُلْ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ دَسْتَعِينُ﴾﴾ {الفاطحة ٥٠}، فإنه إنما قَدِّمَ العبادة على الاستعانة لأن تقديم القرية والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب، وأسرع لوقوع الإجابة^{٨٩}، انظر كلام الزمخشري العذب في تحليل التقديم مع فائدة إضافية سابقة: "فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟

قلت: ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قُدِّمَت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأنَّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة"^{٩٠}.

(٨٩) المثل السائر لابن الأثير، ٤٦/٢.

(٩٠) تفسير الزمخشري، ١٣/١.

﴿وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ٤٨ لِنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا﴾ {الفرقان ٤٩}، فَقَدَّمَ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ عَلَى إِسْقَاءِ الْأَنْعَامِ، وَإِسْقَاءِهَا عَلَى إِسْقَاءِ النَّاسِ؛ وَإِنْ كَانُوا أَشْرَفَ خَلْقًا؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الْأَرْضِ هِيَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَنْعَامِ وَالنَّاسِ، فَلَمَّا كَانَتْ بِهِذِهِ الْمَثَابَةُ حَسَنَ تَقْدِيمِهَا، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَنْعَامُ مِنْ أَسْبَابِ التَّعْيِشِ وَالْحَيَاةِ لِلنَّاسِ قَدَمَهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّ حَيَاةَ النَّاسِ بِحَيَاةِ أَرْضِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، فَقَدَّمَ سَقْيَ مَا هُوَ سَبَبُ نَهَائِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ عَلَى سَقْيِهِمْ ٩١.

﴿وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ {النور ٣٠} لِأَنَّ غَضَّ الْبَصَرِ سَبَبٌ لِحِفْظِ الْفَرْجِ وَدَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، فَقَدَمَهُ عَلَيْهِ ٩٢. وَسَمَاهُ الزَّرْكَشِي: التَّقْدِيمَ بِالْدَاعِيَةِ، فَغَضَّ الْبَصَرَ دَاعِيَةً إِلَى حِفْظِ الْفَرْجِ.

قال الشوكاني رحمه الله في فتح القدير:
"وَبَدَأَ سُبْحَانَهُ بِالْغَضِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ قَبْلَ حِفْظِ الْفَرْجِ، لِأَنَّ النَّظَرَ وَسِيلَةٌ إِلَى عَدَمِ حِفْظِ الْفَرْجِ، وَالْوَسِيلَةُ مُقَدِّمَةٌ عَلَى الْمُتَوَسَّلِ إِلَيْهِ" ٩٣.

هذه بعض الأسباب العامة التي تقتضي تقديم مذكور في النص القرآني على غيره، وقد تجتمع الأسباب في تحليل تقديم ما، نبه على ذلك الزركشي عند نهاية ذكره لأسباب التقديم؛ فقال:
"تنبيه: قد يكون في كل واحد مما ذكرنا من الأمثلة سببان فأكثر للتقديم، فإما أن يُعتقد اعتبار الكل أو يرجح بعضها لكونه أهم في ذلك المحل، وإن كانت الأخرى أهم في محل آخر، وإذا تعارضت الأسباب روعي أقواها، فإن تساوت كان المتكلم بالخيار في تقديم أي الأمرين شاء".

(٩١) المثل السائر لابن الأثير، ٤٧.

(٩٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ص ٧٨٢.

(٩٣) فتح القدير، ٤/ ٢٧.

وهذا يُطَرِّقُ إلى الحديث عن السبب الأهم للتقديم والتأخير غير الاصطلاحي، وهو السياق، فمراعاة السياق هي السبب الأقوى الذي قد يُترك لأجله تقديم الأهم أو الأفضل أو الأسبق، وفي التنبيه إليه وتوجيهه بدقة تظهر براعة المفسر وعمق المتدبر، وفيما يأتي تفصيل وتمثيل:

خامساً: تقديم ما يناسب السياق وما يقتضيه المقام.
هذا هو السبب الأهم والأبرز لتعليل ظواهر التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ويحتاج إليه بشكل أخص عند مقارنة النصوص المتشابهة.

ونمثل بما تيسر ليتضح المقصود، ويتخلله التنبيه على سرّ المهارة:
﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ {النحل ٦١}،
والكلام إنما هو في الأنعام التي خلقها الله لنا، والامتنان بها في هذه الآية إنما هو من جهة الجمال، وقد ذكرت الآية لنا حالين مع الأنعام:

الأولى: (حِينَ تُرِيحُونَ) يعني: تردّونها بالعشي من مسارحها إلى مرايحها ومنازلها التي تأوي إليها، ولذلك سُمّي المكان: المراح، لأنها تُراح إليه عشيّاً فتأوي إليه^{٩٤}، وهي الحال التي تكون فيها "أمدّه خصوراً وأعظمه ضرّوعاً وأعلاه أسنمة"^{٩٥}، لا غرو فقد أكلت وشبعت!
والثانية: (وَحِينَ تَسْرَحُونَ): "يقول: وفي وقت إخراجكموها غدوةً من مرايحها إلى مسارحها.... يقال: سرحت الماشية: إذا خرجت للمرعى، فالسرح بالغداة والإراحة بالعشي"^{٩٦}.

(٩٤) تفسير الطبري، ١٧/١٦٩

(٩٥) تفسير الطبري، ١٤/١٦٩، وانظر: تفسير ابن كثير، ٤/٥٥٧.

(٩٦) تفسير الطبري، ١٧/١٦٩

وعن قتادة قوله: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ):
"وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضرّوعها طوالاً أسنمتها، وحين تسرحون إذا سرحت
لرعيها"^{٩٧}.

إذاً فالحالتان حالتا جمالٍ لهذه الأنعام، لكن لا شك أن بهاءها وقد امتلأت ضرّوعها، وطالت
أسنمتها أروع وجمالها أرفع، ولما كان ظهور جمالها أبلغ في هذه الحال، والسياق سياق امتنان
بجمالها؛ حسن أن يتقدم ذكر هذه الحال لمناسبتها للسياق؛ إذ الامتنان بها وهي في هذه الحال أبلغ!

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ
زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ {السجدة ٢٧}، حيث قدّم الأنعام على الناس:
(تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ)، في حين أنه في سورة عبس قال: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۚ مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلَا نُعَامِكُمْ﴾ {عبس}، فقدّم الناس على الأنعام، فأیُّ مناسبة اقتضت الاختلاف في الترتيب بين
الآيتين؟

نرى في آية السجدة ذكر "الزرع": (فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا)، ومناسبة الأنعام للزرع أشد من مناسبة
الإنسان له، فناسب تقديم الأنعام على الناس لأجل ذلك.

في حين كان السياق في سورة عبس عن طعام الإنسان؛ لاحظ أول المقطع: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى
طَعَامِهِ ۚ﴾ ٢٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا... مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَا نُعَامِكُمْ﴾ {عبس}، فلما كان الكلام عن طعام
الإنسان في السياق حسن أن يتقدم ذكره على ذكر الأنعام^{٩٨}.

(٩٧) تفسير الطبري، ١٤/ ١٦٩

(٩٨) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ٤٢

لاحظ أنه لم يكن أيُّ من الأسباب السابقة الذكر في أغراض التقديم سبباً للتقديم هنا، فلا هو الأهمية، ولا هو الأسبقية الزمنية، ولا السببية كذلك ولا الفضل، وإنما السياق هو المقضي لتقديم ما قُدِّم وتأخير ما أُخِّر لا غير!

﴿وَمِنَ الْأَمْثَلِ الْمَشْهُورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الانعام ١٥١]، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى الْآبَاءِ عَلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى الْأَبْنَاءِ: (نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ).

فِي حِينَ أَنَّهُ فِي آيَةِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ قَدَّمَ الضَّمِيرَ الْعَائِدَ عَلَى الْأَبْنَاءِ عَلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى الْآبَاءِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الاسراء ٣١]، فَمَا السَّرُّ فِي اخْتِلَافِ التَّرْتِيبِ مَعَ تَشَابُهِ الْفَافِ الْآيَتَيْنِ؟
الإملاق: الفقر والحاجة والعوز.

وَالْآيَةُ الْأُولَى تَخَاطَبَ الْفُقَرَاءَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ) يَعْنِي: بِسَبَبِ الْفَقْرِ، فَالْفَقْرُ حَالٌ إِذَا بِالْمَخَاطِبِينَ الْمُنْهِيينَ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ بِسَبَبِ مَا هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ مِنَ الْفَقْرِ، وَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ وَاقِعاً بِهِمْ أَصْلاً قَدَّمَ ذِكْرَهُمْ فَقَالَ: (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ)، وَأَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ فَالْمَخَاطِبُونَ الْمَعْنِيُّونَ يَخَافُونَ مِنَ الْفَقْرِ وَيَتَوَقَّعُونَ بِسَبَبِ أَوْلَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، فَقَدَّمَ ضَمِيرَ الْأَوْلَادِ لِأَجْلِ ذَلِكَ: (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) ٩٩.

فَانْظُرْ كَيْفَ أَنَّ التَّفْتِيشَ فِي السِّيَاقِ وَالتَّأَمُّلُ فِيهِ مِفْتَاحُ الْإِجَابَةِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلِ، وَفِيهِ يَكْمُنُ الدَّلِيلُ عَلَى سَرِّ التَّعْلِيلِ!

- ومن المواضع التي تحتاج إلى إعمال ذهن في تعليل الاختلاف في التقديم والتأخير في موضعين، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ {المائدة ٥٤}، فقدّم وصفهم بأنهم: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) على وصفهم بأنهم: (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)، في حين خالف الترتيب في سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ {الفتح ٢٩}، فقدّم وصفهم بأنهم: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) على وصفهم بأنهم: (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)، فما السر في ذلك؟

قبل أن نبدأ بالإجابة يحسن أن نبين كون هذين الوصفين "مَجْتَمِعَيْنِ" هو غاية الكمال، لذلك ذكرنا معاً في الموضوعين جميعاً، وقد ذُكر الشهاب ما يجلّيه في حاشيته على البيضاوي؛ إذ قال: "قوله تعالى: (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تكميل؛ لو لم يُذكر لربما توهم أنهم لا اعتبارهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية في كل حال وعلى كل أحد، فلما قيل: (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم؛ فهو تكميل واحتراس، كما في الآية المتقدمة - التي هي آية المائدة - فإنه لما قيل: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) ربما تُوهم أن مفهوم القيد غير معتبر، وأنهم موصوفون بالذل دائماً وعند كل أحد، فدفع بقوله: (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)" ١٠٠.

وكلام الشهاب بديع في سرّ جمع الوصفين معاً، أما لماذا قدّم وصفاً مرة وأخره أخرى في الموضوع الآخر فهذه مسألة مستقلة، ويمكن أن يقال فيها:

إن آية المائدة التي هدّدت من تسوّل له نفسه الارتداد عن دين الله بأن يستبدل الله به قوماً آخرين، مُستجِمين لصفات المستخلفين الحاملين للراية الرافعين للواء، ومعلومٌ أنّ القوم الجدد يبدأون باستكمال البناء لمقومات شخصياتهم شيئاً فشيئاً؛ حتى يقوى أمرهم ويشتدّ عودهم، فبدأ بأهمّ الصفات: محبة الله: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) ثم التواضع والرحمة فيما بينهم: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، وهي الخطوة الأولى في بناء الصفّ وتوحيد الكلمة، يليه: العزّة والشدة على العدو: (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) فتتكمّل بذلك عناصر تكوينهم كأمة متراصّة ذات شخصية مستقلة متميزة.

وعلى ذلك؛ جاء ترتيب صفاتهم في آية المائدة مراعاة لأصل تكوين المجتمع الجديد تكويناً قائماً على قواعد التدرج في البناء الصحيح^{١٠١}.

ويمكن أن نضيف:

أن ذكر الجهاد في سبيل الله جاء مباشرة بعد وصفهم بأنهم: (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)، وهذا في غاية المناسبة، ولو انعكس الترتيب فقليل: (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)؛ لما كان - كما ترى - مناسباً، فالعزة تناسب الجهاد، ولا كذلك الذلة!

ويمكن أن نضيف جواباً آخر فنقول:

إذا تأملنا الآيات التالية للآية التي نحن بصدد التأمل فيها وجدنا الإشارة إلى موالة المؤمنين أقرب من الإشارة إلى البراءة من الكافرين؛ انظر الآيات التالية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ... هُمْ الْعَالِيُونَ﴾ {المائدة ٥٥}، فالكلام - كما رأيت عن العلاقة بالمؤمنين، وتلاه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا..... وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ {المائدة}، والكلام فيها عن العلاقة بالكافرين.

(١٠١) انظر: النظم القرآني في آيات الجهاد، ناصر عبد الرحمن الحنين، ٣٠٩.

والحاصل:

أن السياق كله قد تقدّم فيه ما يخص العلاقة بالمؤمنين على ما يخص العلاقة بالكافرين!

أما آية سورة الفتح فإنها قد نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وعلى ذلك فهي تمهّد للفتح وتبشّر به، وتعدّد صفات الفاتحين الذين قد أعدّوا واكتمل إعدادهم، ولم يبق عليهم سوى مناجزة عدوّهم؛ فبدأ بأول الصفات التي يقتضيها المقام، وهي صفة الشدة على الكفار، ثم ثنى بصفة الرحمة التي تتخلّل أفرادهم في تعاملهم مع بعضهم؛ احتراساً من أن يُظن أن الغلظة والجفاء من سجايأهم^{١٠٢} - كما أشار الشّهاب في كلامه المنقول أولاً -!

تدريبات

استخرج من الآيات الآتية مواضع التقديم والتأخير، معللاً لها:

١ - ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ {الأنعام (١٦٤)}.

٢ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ {الأنبياء (٥١-٦٢)}.

٣- قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ {آل عمران ١٢٧}

وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ {الأنفال ١٠}.

ويظهر من خلال مقارنة الآيتين أن ثمة ما قدّم في الآية الثانية في حين جاء في موضعه في الآية الأولى.

إضافات الدارس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....



المبحث الرابع
الحذف



الأصل النظري في الكلام أن تكون أجزاؤه كلها مذكورة في النص بلا حذف شيء منها، لكن الذي عليه الأمر أن العرب قد جعلت الحذف في الكلام مظهراً واضحاً يجده المتأمل لكلامها، ومعلماً في طريقتها في التعبير، بل العجيب أن الحذف صار أسلوباً مشهوراً في كلامها البليغ!

بحيث صار "ترك الذكر - أحياناً - أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة! وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مئيناً إذا لم تُبْنِ" ^{١٠٣}!

وقد علّق أستاذ أساتذة البلاغة د. محمد محمد أبو موسى على كلام الجرجاني المقتبس أعلاه بقوله: "والمندوّق للأدب لا يجد متاع نفسه في السياق الواضح جداً، والمكشوف إلى حدّ التعرية، والذي يسيء الظن بعقله وذكائه، وإنما يجد متعة نفسه حيث يتحرّك حسّه وينشط؛ ليستوضح ويتبين ويكشف الأسرار والمعاني وراء الإيحاءات والرموز، وحيث يدرك مراده ويقع على طلبته من المعنى يكون ذلك أمكن في نفسه وأملك لها من المعاني التي يجدها مبذولة في حاق اللفظ" ^{١٠٤}.

وقد وجدت في نفسي أثناء تدريس هذا الباب من البلاغة القرآنية أن الحذف من ألدّ المباحث البلاغية وأكثرها ثراء في المعاني وفسحة للذهن المتأمل في مرادات الكلام البليغ، وقد وافق شعوري ذاك ما كتبه أستاذي العلامة د. فضل عباس رحمه الله وأجزل له المثوبة لما قال في وصف هذا المبحث:

"من الحق أن نقرر أن من أدقّ موضوعات البلاغة مسلكاً وأدعاها لإعمال الفكر، هذا الموضوع الذي نحن بصددده - الحذف -" ^{١٠٥}.

(١٠٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ١٠٦، وانظر، المثل السائر، ٢/ ٨١.

(١٠٤) خصائص التركيب، محمد أبو موسى، ١٥٣-١٥٤.

(١٠٥) البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، ٢٥٨.



وقد جعل شيخنا العلامة هذه الدقة والفسحة الداعية لإعمال الفكر في مبحث الحذف سبباً لأجله أكثرَ الشيخ عبدُ القاهر الجرجانيُّ من الأمثلة والشواهد دون ذكر قواعدٍ معينةٍ يرجع إليها الدارس؛ كما رأينا ذلك منه في مبحث التقديم والتأخير؛ إذ وجدنا عبد القاهر ثمة يقرر القواعد ويحاول ضبطها ويدعو إلى مراعاتها مع ما في المبحث من سعة يصعبُ معها حصر المعاني المتدفقة إلى الذهن بقواعد معينة!

لكنَّ الأمر من هذه الجهة في مبحث الحذف أوسع، وانضباط القواعد فيه أصعب "وما ذكره المتأخرون - من قواعد لضبط مبحث الحذف - فإنه في ظني يُبعد القارئ عن الأهداف النفيسة والأغراض البيانية التي تُحسِّن الحذف وتؤكد" ١٠٦.

ملحظ جدير بالعناية

يَجْمُلُ الحذف وتزداد دواعيه في الكلام كلما وجدنا أنفسنا بغنى عن الكلمات المحذوفة، وكلما كنا أكثر استغناء عن الكلمة كان الحذف أعذبَ مذاقاً وألطفَ في أذن السامع ١٠٧.

لكن الحذف لا تقف دواعيه عند هذا؛ بل تتعداه إلى أغراض كثيرة تقع في ذهن السامع المتذوق للكلام البليغ، وعند النظر في أمثلته القرآنية - وهو ما نحن بصدد إن شاء الله - يدرك المتأمل معاني وأغراضاً متنوعة وعميقة يمكن أن تُفهم من الحذف.

ولذلك كان قصرُ الحذف على "الاختصار وعدم وجود الداعي للذكر" ظلماً لهذا المبحث العميق من مباحث البلاغة ١٠٨.



﴿للحذف شرط وسبب؛ فراع ذلك عند كلامك:

لا يجوز أن يحذف البليغ أي كلمة كيفما اتفق؛ إذ قد يكون الحذف في غير مكانه عيباً في الكلام وخللاً في الإفهام، ولذلك جعلوا للحذف حتى يكون حسناً شرطاً وسبباً.

﴿ شرط الحذف:

أما الشرط فقد أجمعوا على أنه لا يُصار إلى الحذف إلا إذا بقيت في الكلام قرينة تدلُّ على المحذوف؛ حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض، لأن شرط جودة الأسلوب: الوضوح، وحسن الدلالة، وهذا شرط لا يُحمد إغفاله^{١٠٩}.

وقد قال ابن الأثير:

"الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلُّ على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليلٌ على المحذوف فإنه لغوٌ من الحديث، لا يجوز بوجه ولا سبب"^{١١٠}.

(١٠٦) البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني ٢٥٨.

(١٠٧) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها، ٢٦١.

(١٠٨) جاء في جواهر البلاغة، ص ٨٧: "الحذف خلاف الأصل، ويكون لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على وجود قرينة تدل على المحذوف".

(١٠٩) خصائص التعبير القرآني، ٤٦٥.

(١١٠) المثل السائر، ٢/ ٨١.



سؤال مهم

جاء في الكلام قبل قليل أنه يحسُن الحذف عموماً لأن "المتذوق للأدب لا يجد متاع نفسه في السياق الواضح جداً، والمكشوف إلى حدّ التعرية، والذي يسيء الظنّ بعقله وذكائه، وإنما يجد متعة نفسه حيث يتحرّك حسّه وينشط؛ ليستوضح ويتبيّن ويكشف الأسرار والمعاني وراء الإيحاءات والرموز"^{١١١}.

ولعله تطرق إلى ذهنك توهم وجود تعارض بين هذا الكلام وبين اشتراطنا وجود ما يدلُّ على المعنى؛ لئلا يؤول الأمر في البيان إلى الغموض!

والحق أن لا تعارض، فالطريق البليغ هو الوسط بين الطريقتين: المكشوف إلى حد التعرية والغامض غير المفهوم!

وحتى ينضبط المقصود من الحذف يُشترط أن تبقى قرينة تدلُّ على المقصود من وجه ما؛ يدركها من تأمل، لكن دون عناء كبير!

والقرينة هذه قد تكون ملفوظة أو ملحوظة، وسيأتي التوضيح في طيات التمثيل.

(١١١) من كلام د. محمد أبو موسى، ١٥٣.



سبب الحذف:

وأما السبب فهو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى ترجيح الحذف على الذكر أو وجوبه إذا كان أدلّ على فخامة المعنى وسعة تصوُّره في بعض المواضع، وفي هذا - أعني الداعي إلى الحذف - يكمن السرُّ الجماليُّ في التعبير؛ لكونه مظهرًا من مظاهر مقتضى الحال وحسن التصرف في إلقاء الكلام^{١١٢}.

وسبب الحذف هو الغرض البلاغي الذي يستدعي البليغَ ليحذف من الكلام ما كان الأصل أن يذكره؛ ومعرفة ذلك تحتاج إلى تأمل؛ إذ لا يجد القارئ علة الحذف منصوباً عليها في الكلام - بطبيعة الحال -، فتحتاج - إذاً - إلى إعمال الفكر في تفهّم الداعي إلى الحذف.

والحذف في القرآن كثير، وهو أسلوب سائر فيه!

والمفسّر مطالبٌ - حتى يكون قد أدّى حقّ التفسير عليه - أن يُلحظ أولاً مواضع الحذف، ثم يتدبّر في سرّه، ويحاول التعرّف إلى حكمته.

كيفية دراسة موضوع "الحذف":

والطريقة المتبعة في تناول الموضوع في كتب البلاغة: أن يُستعرض الحذف على حسب المحذوف من الجملة، وقد يأخذ هذا أكثر من منحنى:

(١١٢) خصائص التعبير القرآني، ٤٦٦.



أولاً: أن يُتناول على حسب النظر في كون المحذوف مسنداً أو مسنداً إليه أو ما أشبهه، فيقال - مثلاً -:

حذف المسند.

حذف المسند إليه، وهكذا، وهذا التقسيم سلكه د. محمد أبو موسى ود. فضل حسن عباس وغيرهما.

ثانياً: أن يُتناول على حسب النظر في كون المحذوف حرفاً أو كلمة أو جملة أو قصة أو ما أشبهه.

وقد سلك هذا المسلك ابن الأثير في المثل السائر، وسلكه كذلك المطعني في خصائص التعبير القرآني، والشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في البلاغة العربية.

وقد درّست "البلاغة القرآنية" أو "أساليب البيان في القرآن الكريم" مراراً وَقِنَعْتُ أن المسلك الأول في تناول الموضوع يحتاج إلى دُرْبَةٍ طَوِيلَةٍ وتأمُّلٍ من الطلبة لفهم الموضوع بسبب عدم اعتياد المصطلحات المتداولة فيه.

وَقِنَعْتُ كذلك أن المسلك الثاني مشتّتٌ لذهن الطالب؛ لا اعتبار أن الحرف يحمل أكثر من معنى في هذا التقسيم، وأن الكلمة قد يَتَنَوَّعُ موقعها كثيراً في الجملة، وكل موقع يحسن أن يُدرَسَ بشكل مستقلٍّ؛ وبالتالي لا ينضبط المبحث في ذهن الطالب.

وقد نَبَّهْتُ في بداية الكتاب على أنني لا أقصد من هذا الكتاب إلى التصنيف في البلاغة لطالب يريد دراستها، وإنما أقصد إعانة طالب التفسير على توظيف هذه المباحث في استنباط المعاني واللطائف من النص القرآني.

وعليه؛

فإنني لست حريصاً على اقتفاء مسلك البلاغيين في التقاسيم، ولا في تداول المصطلحات، التي عكّر صفو فهمها بسهولة: التأثر بالمنطق وتقاسيمه ومصطلحاته.

ولأجل هذا رأيت أن استعرض المبحث على طريقة تقع بطلبة التفسير على الفائدة الأصلية هو المقصود، وليكن ذلك على ما يأتي:

١- حذف المبتدأ.

٢- حذف الخبر.

٣- حذف الفاعل.

٤- حذف المفعول به، وما يتعدى به الفعل.

٥ و ٦- حذف الصفة أو الموصوف.

٧- حذف جواب الشرط.

٨- حذف جواب القسم.

وهذه الثمانية فيما أحسب هي أهمها، ويبقى النظر للمتدبر الضليع أن:

أ- يلحظ مواضع الحذف من هذه الأقسام المذكورة ومن غيرها.

ب- يتدبر أسرار الحذف فيها، ويعمل ذهنه في استكشافها وتذوقها.

وإنّا في القادم من الصفحات نمثل بأمثلة من شأن مدارسها: كشف المقصود، وتنمية الملكة، وصقل الذائقة.

أولاً: حذف المبتدأ

حذف المبتدأ سائر وكثير في كلام البلغاء، وهو كثير في القرآن الكريم، ونذكرك بالشرط الذي ينبنى عليه استحسان الحذف، وهو أن يكون في الكلام ما يدلُّ على المحذوف، أو أن يكون المحذوف واضح التقدير؛ بحيث لا يقع السامع في لبس من المعنى المراد، ونذكرك كذلك بسبب الحذف، وهو الغرض الذي لأجله أثر البليغ الحذف على الذكر.

وفي ضوء شرط الحذف وسببه ندرس حذف المبتدأ من الجملة الاسمية في القرآن الكريم. وقد ذكر السَّكَّاكي في المفتاح وتبعه القزويني في تلخيصه عليه: دواعي حذف "المسند إليه"، وقد عرفت أن ذَكَرَ تلك الدواعي إنما هو للتمثيل فحسب، لا للحصر، فالبليغ إنما يدرك الغرض من الحذف بذائقته اللغوية وبفهمه لما أرادَهُ المتكلم منه!

وهذا أمر يصعب حصره على التحقيق، لكننا - جرياً على ما جرى عليه الأكابر - نمثِّل على أهم ذلك مما يعني المفسر، ونترك ما لا يعنيه في هذه الدراسة التطويرية لملكة التفسير؛ حفاظاً على الوقت المتاح للدراسة، ووقوعاً على الفائدة الأصيلية المقصودة.

الأمثلة التدريسية، ومناقشتها

ولنستعرض بعض الأغراض المُستفادة من حذف المبتدأ من خلال الأمثلة، ولنحاول دراسة بلاغة الحذف فيها:

أولاً:

ألا يتعلَّق بذكر المبتدأ فائدة، أو تضعف الفائدة، ويكثرُ هذا في الجواب على السؤال، ومثاله:



أ. قول الله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾) {القارعة} ١١، فقوله: "نار" خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي نار، لكنك ترى أنه لا فائدة من ذكر المبتدأ لما أن الجملة جواب على سؤال، ومن المفهوم أن قوله: (نَارٌ حَامِيَةٌ) جاء جواباً على الاستفهام: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ)، فلا داعي إذن لذكر المبتدأ.

ب. قوله سبحانه: (قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ) {الأنعام} ١٠١، نرى أن لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الشيء الأكبر شهادة: الله، ولا حاجة إلى ذكر المبتدأ كما ترى، بل ذكره يُطرق الركافة إلى التركيب!

وهذا سائر حتى في الكلام المتداول على ألسنتنا، فلو سألك أحدهم فقال: ما اسمك؟ لأجبت: فلان، ولا حاجة لأن تقول: اسمي فلان.

ثانياً:

أن يجري له ذكر شيء من صفاته، ثم يُنتقل إلى ذكر وصفٍ أعظم له، فيحذف المبتدأ ويكتفى بالخبر المقترن بوصفه بالوصف الأعلى، وهذا يجب للتنبيه إليه ملاحظة السياق السابق.

مثاله:

أ- قوله تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ) ف (الذين) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم، وانظر إلى الآية السابقة: (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾) {إبراهيم} ٢، ٣.



قال ابن عاشور رحمه الله في بيان علة حذف المبتدأ:

"وَهَذَا الْحَذْفُ جَارٍ عَلَى حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْمُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُعَانِي تَبَعًا لِلْسَّكَاكِ بِالْحَذْفِ لِمَتَابَعَةِ الْإِسْتِعْمَالِ، أَيْ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ عِنْدَمَا يَجْرِي ذِكْرُ مَوْصُوفٍ بِصِفَاتٍ أَنْ يَتَّقِلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ لِيَكْسِبَ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالَ تَقْرِيرًا لِلْغَرَضِ" ^{١١٤}.

فوصفه لهم بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم ٢٠) أعظم في غرض السياق من وصفهم بها في الآية السابقة، ولهذا المعنى حسن حذف المبتدأ.

بـ قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان ٥٨).

"وَالرَّحْمَنُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذُوفٌ، أَيْ هُوَ الرَّحْمَنُ، وَهَذَا مِنْ حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ الْغَالِبِ فِي الْإِسْتِعْمَالِ عِنْدَمَا تَقَدَّمَ أَخْبَارٌ أَوْ أَوْصَافٌ لِصَاحِبِهَا، ثُمَّ يُرَادُ الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِمَا هُوَ إِفْصَاحٌ عَنْ وَصْفٍ جَامِعٍ لِمَا مَضَى أَوْ لِمَا هُوَ أَهَمُّ فِي الْغَرَضِ مِمَّا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ وَصْفَ الرَّحْمَنِ أَهَمُّ فِي الْغَرَضِ الْمُسَوِّقِ لَهُ الْكَلَامَ وَهُوَ الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ وَصْفٌ يَقْتَضِي أَنَّهُ يُدَبِّرُ أُمُورَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ الْإِسْعَافِ" ^{١١٥}.

(١١٤) التحرير والتنوير، ١٣ / ١٨٢.

(١١٥) التحرير والتنوير، ١٩ / ٦٠.



ثالثاً:

أن يكون المبتدأ معيّناً لا لبس فيه عند السامع، أو المراد إفهام السامع أنه معيّن لا يلتبس به أحد.

مثاله:

أ. قول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، فـ"عالم" خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الله عالم الغيب والشهادة، ولما كان المبتدأ "الله" معيّناً؛ إذ لا عالم للغيب والشهادة سواه؛ حسن الحذف^{١١٦}.
ويُحتمل أنه أراد الإشارة إلى أنه سبحانه المتفرد بعلم الغيب والشهادة؛ عبر حذف المبتدأ؛ المفهوم أنه إنما يحذف عند أمن الالتباس، فتأمل.

ب. قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿البقرة ٢٧﴾، فقلوه: (بَدِيعُ) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الله بديع السماوات والأرض، ولما كان المبتدأ معيّناً لا يلتبس حسن حذفه، فمن ذا الذي شاركه في إبداع السماوات والأرض، ومن الذي أمره إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون! لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يُشركون!

رابعاً:

مقام المدح، كما في العديد من مواضع البدايات في سور القرآن الكريم، انظر:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ {الأعراف ٥}
﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ {إبراهيم ١٠}
﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ {هود ١}

والتقدير في كل ذلك: هذا كتاب!

(١١٦) انظر: تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ٢٩.



ومثله:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾،
 {الأعراف ١٥٧} والتقدير: هم الذين يتبعون الرسول.
 وكلها مواضع مدح كما ترى.

خامساً:

مقام الذم، وإرادة التعجيل بذكر المساءة:

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾، الأنعام، أظنك تلاحظ أن عندنا جملتين؛ المبتدأ محذوف من كل منهما:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، والتقدير: هم الذين آتيناهم
 الكتاب، وجملة (يَعْرِفُونَهُ..) جملة حالية، ويحتمل أن المبتدأ قوله: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ) وخبرها: الجملة
 الفعلية: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)، فإن كان كذلك فلا حذف، وإن كان الأول فالمبتدأ
 محذوف.

ولعل الغرض في حذفه على هذا الوجه: الذم لهم؛ لاعتبار أنهم معرضون عن الإيمان به رغم
 معرفتهم له ووثوقهم برسالته صلى الله عليه وسلم.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، التقدير: هم الذين خسروا أنفسهم.

والغرض هنا من حذف المبتدأ - والله أعلم -: الرثاء لحالهم وبيان حتمية خسارتهم والتعجيل
 بذكر سوء مآلهم، فحذف المبتدأ أعجل في إدخال وصفهم بالخسارة من أول الجملة، فكان ذلك
 أول ما يطرق أسماعهم.

سادساً:

إظهار القصد إلى اختصار الكلام والإشعار بانتهاؤه:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف ٤٥).

فقوله: "بلاغ": خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا، والإشارة إلى الكلام الوارد في السورة، وهذه الآية خاتمتها.

وقد تأملتُ في سرِّ حذف المبتدأ هنا والاكتفاء بكلمة واحدة - هي الخبر - في سياق الختم، فرأيت أن المقصود والله أعلم الإشارة إلى أن التفصيل المذكور في آيات السورة وما ورد فيها من البيان المصَّرف على أعلى وجوه الوعظ والزجر والاستدلال قد بلغ المنتهى الذي لا زيادة عليه، وإذا كان كذلك فقد انتهى الكلام إلى الحد الذي ينبغي أن تنقطع معه المحاجة ويرتفع فيه اللدد والجدل، فاكْتَفَيْ بقوله: (بلاغ)؛ كأنها تلخيص لما مضى من ألوان البيان في كلمة واحدة كالعنوان لما مضى؛ لا زيادة عليها ولا انتفاع بالزيادة عليها.

ووجدتُ عند ابن عاشور؛ ذِوَاقَ البلاغة القرآنية شيئاً قريباً، نصه:

"(بلاغ) فذلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ بَأَنَّهُ بِلَاغٌ لِلنَّاسِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ لِيَعْلَمَ كُلُّ حَظَّةٍ مِنْ ذَلِكَ، فَقَوْلُهُ: (بلاغ) خبرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذوفٌ تَقْدِيرُهُ: هذا بلاغٌ، على طَرِيقَةِ الْعُنْوَانِ وَالطَّلَعِ نَحْوِ مَا يُكْتَبُ فِي أَعْلَى الظَّهِيرِ: "ظَهِيرٌ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ"، أَوْ مَا يُكْتَبُ فِي أَعْلَى الصُّكُوكِ نَحْوِ: «إِدَاعٌ وَصِيَّةٌ»، أَوْ مَا يُكْتَبُ فِي التَّأْلِيفِ نَحْوِ مَا فِي «المُوطَّأ» «وُقُوتُ الصَّلَاةِ»، وَمِنْهُ مَا يُكْتَبُ فِي أَعَالِي الْمُنْشُورَاتِ الْقَضَائِيَّةِ وَالتَّجَارِيَةِ كَلِمَةٌ: «إِعْلَانٌ»...



وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِثْنَاءً ابْتِدَائِيًّا عَلَى طَرِيقَةِ الْفَذْلِكَةِ وَالتَّحْصِيلِ، مِثْلُ جُمْلَةِ ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة ١٦٦]، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة ١٣٤] "١١٧".

تنبيه مهم:

قد تتداخل الأغراض وتتعاقد، وهي على الأغلب لا تتعارض، وعندئذ فلا مانع من ذكرها والتأمل في علاقتها بالسياق، ولتأمل هذه الآية:

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا^ط وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج ٢٢].
إذا تأملنا سنجد أن قوله: (النار) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي النار، وقد جاءك من قبل أن مثل هذه المواطن من الجواب على الاستفهام يحسن أن يحذف فيها المبتدأ اختصاراً لما لا فائدة في ذكره، كقوله في المثال السابق: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً^ط قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام ١٩]، لكننا إذا حاولنا التذوق أكثر:

وجدنا أن الأمر فيه معنى زائد على مجرد الاختصار، وهو قرع أسماعهم بما يكرهون سماعه من غير توطئة ولا تمهيد، تأمل: (قل هل ننبئكم؟ النار، وعدها الله الذين كفروا، وبئس المصير).



تأمل في الآيات الآتية، وحدد منها مواضع حذف المبتدأ، وحاول التأمل في سر الحذف، ولا تنس التأمل في سياقها؛ فقد يهديك ذلك لمفتاح الجواب، والله يفتح عليك من أسرار كتابه الكريم:

- ﴿قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ {الهمزة ٢} ٣﴾.
- ﴿قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾﴾ {البقرة ١٢١}.
- ﴿قوله تعالى: ﴿إِن أَوْلِيََاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ {يونس ٦٢}.
- ﴿قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ٥ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ {البقرة ١٤٧}.

ثانياً: حذف الخبر

قد يذكر المبتدأ ويحذف الخبر على عكس الحالة التي عرضنا لها أولاً، وشرط الحذف ههنا كشرطه هناك: "أن توجد قرينة دالة عليه؛ ليفهم المعنى"^{١١٨}، ثم إن حصر المعاني كما سلف أمر ليس متفقاً مع طبيعة اللغة وتصريف المعاني في استعمالها، وعليه؛ فإننا لسنا نعمد إلى مثل ذلك على مسلك بعض المتأخرين، وإنما نذكر أهم المعاني أو أشهرها من خلال عرض الشواهد القرآنية وتأملها والبحث عن تعليقات المفسرين لها، مع التنبيه ابتداءً على أن أهل اللغة والتفسير قد يختلفون في الإعراب وفقاً لفهمهم للمعنى، وقد يرجحون تقدير محذوف ما على غيره بالنظر إلى المعنى الذي يلحظونه.

وبالتالي: قد تجد في بعض الأمثلة المسوقة ما يحتمل وجهاً آخر غير حذف الخبر، إلا أنني حرصت في سوق الأمثلة على أن تكون مناسبة لتقدير خبر محذوف أكثر من مناسبتها لتقدير آخر، وأود الاستغناء بهذا التنبيه عن تكرار ذكره عند الأمثلة، فإن ذكرتُ شيئاً من ذلك فلفائدة أخرى متعلقة بذكر وجه التقدير الآخر.

أغراض حذف الخبر

أولاً: ظهوره وعدم الحاجة إلى ذكره:

ذكرنا من قبل أن من دواعي الحذف الكبرى: عدم الحاجة إلى ذكره، فالإيجاز وتخلية الكلام من الحشو معلّم بارز من أعمدة البلاغة، والخبر إن كان مفهوماً لدى السامع بقرينة السياق استغني عن ذكره، واقتضى الإيجاز حذفه، وهذا من أهم أسباب حذفه.



وإليك الأمثلة:

أ- قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ {الكهف ٦٠}.

ومعنى "لا أبرح": لا أزال، وإذا كانت كذلك فهي فعل ناقص، يدخل على الجملة فيرفع اسمها وينصب خبرها، وقد جاء اسمها وخبرها في قول الله تعالى على لسان بني إسرائيل العابدين للعجل: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ {طه ٩١}.

ووجه إعراب هذه الآية:

لن: ناصبة، و«نَبْرَحُ» فعل مضارع ناقص منصوب بـ "لن" واسمه ضمير مستتر تقديره: نحن، «عَلَيْهِ»: جار ومجرور متعلقان بعاكفين، و«عَاكِفِينَ» خبر نبرح، فالخبر في هذه الجملة غير محذوف كما رأيت.

في حين أن الخبر في قوله: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ محذوف تقديره: سائراً أو أسيراً، المعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، وإنما حسن حذف الخبر اعتماداً على السياق، فالحال التي ذُكرت فيها العبارة حال سفر، ويناسبها السير، وما بعدها: مكان يراد الوصول إليه وغاية مضروبة: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾، فناسب كذلك تقدير خبر محذوف: "أسير" أو "سائراً" كما سلف^{١١٩}.

وعبارة النسفي الرشيقة:

﴿لَا أَبْرَحُ﴾: لا أزال، وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه، أما الأولى فلأنها كانت حال سفر، وأما الثاني فلأن قوله: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ غاية مضروبة^{١٢٠}.

(١١٩) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٥٢

(١٢٠) تفسير النسفي، ٢/ ٣٠٨.



ب- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ {آل عمران ١٠٦}.

فلنبداً ببيان موطن الحذف:

ف (الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ) الاسم الموصول منها في محل رفع المبتدأ، وأما الخبر فمحذوف، والتقدير: "فيقال لهم": أكفرتم، فالجملة الفعلية: يقال، في محل رفع خبر محذوف، ولما حُذف الخبر حذفت الفاء الداخلة عليه.

أما لماذا أُوثر حذف الخبر؟ فالجواب: أنه مفهوم معلوم لا داعي لذكره وإطالة الكلام بما لا فائدة منه.

قال أبو حيان الأندلسي في بحره المحيط - وهو رائد النحو من المفسرين -:

"وَالْخَبْرُ هُنَا مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَيَقَالُ لَهُمْ: أَكْفَرْتُمْ؟
كما حُذِفَ الْقَوْلُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ﴾ {الرعد ٣١}، أَي: يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. وَلَمَّا حُذِفَ الْخَبْرُ حُذِفَتِ الْفَاءُ" ١٢١.



ثانيا: تقوية المعنى بتعدد وجوه التقدير:

ذلك أن الحذف يترك للذهن تقدير المحذوف، وقد يفسح ذلك للذهن العديد من التقديرات؛ التي يتقوى المعنى بتعدددها، بخلاف ما لو استعيض عن الحذف بالذكر؛ الذي يحسم كل احتمال ويغني ذهن عن استمطار التقديرات!

انظر في الأمثلة القادمة وتأمل؛ فإن هذا مبحث عزيز:

أ- قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ {الأنفال ٤١}..

فقوله: (فَإِنَّ لِلَّهِ) مبتدأ خبره محذوف، تقديره: فحق، أو فواجب أو فلازم أو ففرض أن الله خمسه، أو غيره من التقديرات المحتملة المناسبة للسياق.

وقد قارن ابن عاشور بين القراءة المشهورة: (فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ) وبين قراءة أخرى مروية بكسر الهمزة: (فإن لله خمسه)، وأحال فضل المعنى وقوته للقراءة المشهورة، وبين أن السبب هو حذف الخبر؛ المقتضي تعدد وجوه التقدير، أترك له المقام للكلام:

"وروى الجعفي عن أبي عمرو: "فإن لله بالكسر"، وتقويته قراءة النخعي: فله خمسه.

والمشهورة^{١٢٢} أكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه، من حيث إنه إذا حذف الخبر، واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد^{١٢٣}.

(١٢٢) أي: القراءة المشهورة: بفتح الهمزة: (فإن لله خمسه).

(١٢٣) تفسير الزخشي، ٢/ ٢٢١، وانظر: تفسير الرازي، ١٥/ ٤٨٤.



ب- ومثله قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ {التوبة ٦٣}

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا) على حذف الخبر، أي: فحق أن له ١٢٤، أو فواجب أن له، أو فحتم أن له نار جهنم خالداً فيها، والمقصود: أن تعدد وجوه الخبر المقدر مما يُطرق للمعنى قوة وزيادة تأكيد لا تحصل لو ذكر الخبر وانتفت الحاجة إلى التقدير.

والحاصل:

أن حذف الخبر هنا قوى المعنى بتعدد وجوه التقدير التي يملؤها الذهن بسبب الحذف، ولو استعاض عن الحذف بالذكر لما استفدنا هذه الفائدة، ولتحدّد خبر واحد منها، وتساقطت كل الاحتمالات الواردة المناسبة الأخرى!

ثالثاً: أن يتعلق بحذف الخبر فوائد ومعانٍ إضافية - لفظية ومعنوية - لا تتحقق بذكره:

وإني أذكر مثلاً على ذلك مما جال في ساحات "الكشاف" من فرائد الفوائد، والمثال يحتاج إلى التأمل بل التمهّل في التأمل ليشرق على القلب نور الفهم له:

أ- ذلك في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ﴾ {النور ٢٤}، حيث جاء في تعليق الإمام أحمد بن المنير على تفسير الزرخشري للآية ما يأتي: (مع التنبيه إلى أن ما بين الأقواس من توضيحي لكلاميهما رحمهما الله):



"قال محمود (يعني الزمخشري): «في الرفع وجهان^{١٢٥}، أحدهما: الابتداء والخبر محذوف، وهو إعراب الخليل وسيبويه.

والتقدير: وفيما فرض عليكم: الزانية والزاني (يعني: حكم الزانية والزاني)، أي: جلدهما.

الثاني: أن يكون الخبر فاجلدوا، ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي، وقد ضُمِّن معنى الشرط».

قال أحمد (المقصود: صاحب الكلام أحمد بن المنير): وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه (من اختيار كون الخبر محذوفاً بتقدير: فيما فرض عليكم الزانية والزاني؛ يعني حكمهما) لوجهين: لفظي ومعنوي.

أما اللفظي؛ فلأن الكلام أمر (يعني: أمر بجلد الزناة) وهو يُحْيَل اختيار النصب (يعني بالنصب: نصب "الزانية والزاني"، ويوضحه ما جاء في حاشية الطيبي على الكشف: "وإنما اختار الخليل وسيبويه النصب لأنه أمر، والأمر بالفعل أولى ١٢٦، وقوله: وهو يُحْيَل النصب: يعني يجعل قراءة النصب أولى: "الزانية والزاني"؛ لما علمت من أن الأمر بالفعل أولى منه بالاسم، وهذا مُخَالِف لقراءة العامة بالرفع: "الزانية والزاني"، ومع ذلك قراءة العامة (يعني أن القراءة التي عليها القراء بالرفع لا بالنصب)، فلو جعل فعل الأمر (فاجلدوا) خبراً وبنى المبتدأ عليه؛ لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من مخالفة الاختيار".

وهذا الوجه هو الأول الذي فُضِّل به القول بأن الخبر محذوف، وحاصله:

(١٢٥) في الأصل: في الرفع وجهين، ولعله من أخطاء النساخ، والصواب ما أثبتناه.

(١٢٦) فتوح الغيب للطبي، ١١/٧، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات، ط ١، ٢٠١٣.



أن في القول بحذف الخبر تجنباً لمخالفة الاختيار عند الفصحاء، الذين يرون النصب هو الوجه الأليق بالأمر، من حيث إن النصب يقتضي فعلاً ناصباً - محذوفاً بطبيعة الحال -.

ثم إنه لم يكتف بالتنبية على فضل القول بحذف الخبر لمقتضى نحوي أو لفظي، بل أرفده بوجه آخر معنوي، فلنكمل القراءة، وقد اختصرت كلاماً أثبتته في مثال قادم إن شاء الله:

"وأما من حيث المعنى فهو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر؛ لأن يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملاً حيث قال: الزانية والزاني وأراد: وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمال ذكر حكمهما مفصلاً، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة، والله أعلم" ١٢٧.

وهذا تحليل بديع - كما ترى - من ابن المنير على عبارة الزمخشري رحمهما الله وأجزل لهما المثوبة.

ب- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ...﴾ {محمد} الآية، وقد جاء التمثيل بها ضمن كلام ابن المنير السابق في تعليقه على عبارة الزمخشري، وقد نقل التمثيل بها عن سيبويه، وحاصله:

أنه صدر الكلام بقوله (مَثَلُ الْجَنَّةِ) ولا يستقيم جزماً أن يكون قوله: (فِيهَا أَنْهَارٌ) خبره، فتعين تقدير خبره محذوفاً، وأصله: فيما نقص عليكم: مثل الجنة.

ثم لما كان هذا إجمالاً لذكر المثل؛ فُصِّل بقوله: (فِيهَا أَنْهَارٌ) إلى آخرها، والفائدة اللطيفة في حذف الخبر أن يقال: إن التقدير: "فيما نقص عليكم مثل الجنة": كلامٌ مجمل؛ تشوف النفس إلى الاطلاع على ما يحمله ذلك الإجمال من تفصيل، فيأتي التفصيل وقد تطلعت النفس إلى تلقيه، فإذا تلقتَه تمكَّن منها ووقع موقع الاهتمام.

(١٢٧) من حاشية ابن المنير على الزمخشري، ٢٠٨/٣.



"ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون مثلاً: الصلاة، الزكاة، السرقة. ثم يذكرون في كل باب أحكامه، يريدون مما يصنف فيه ويوب عليه: الصلاة، وكذلك غيرها، فهذا بيان المقتضى عند سيبويه" ١٢٨.

ج- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فُوتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ {سبا ٥١} حذف الخبر يناسب السياق الممتلئ سرعة، وبيان ذلك أن السياق في وصف الاضطراب والفرع وقت البعث وقيام الساعة: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فُوتَ) التقدير: فلا فوت لهم، أي: "لا يفوتون الله ولا يسبقون يد القدر، فحذف الخبر وبقيت كلمة واحدة، وسياق السرعة الفائقة والحركات المتلاحقة جعل حسن الحذف لا يتناهى، وقد بُني هذا التعبير على التركيز الشديد، وكأن كل كلمة فيه جمع هائل في هذا الحشد الذي ضم أطراف البشرية كلها من لدن آدم عليه السلام إلى آخر نفسٍ تموت، وحذف الجواب يؤذن بمزيد من صور الهول التي لا تتناهى ولا تنضب ولا يصفها أبلغ بيان" ١٢٩.

رابعاً: مما تكرر حذفه في القرآن: حذف الخبر في المقابل أو المعادل، ومن فوائده المهمة: الإشعار بإهماله وازدراؤه وسقوطه عن درجة المقارنة، ومن أمثلته:

أ- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ {الرعد ٣٣}:

(١٢٨) حاشية ابن المنير على الزمخشري، ٢٠٨/٣.

(١٢٩) خصائص التركيب القرآني، محمد أبو موسى، ٣٧٨.



"مَنْ" من قوله: "أفمن" موصولةً صلتها مَا بَعْدَهَا، وهي مُبْتَدَأٌ، والخبرُ مُحذوفٌ تَقْدِيرُهُ: كمن ليس كذلك مَنْ شُرَكَائِهِمُ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ).
وَيَحْسَنُ حَذْفَ هَذَا الْخَبَرِ كَوْنُ الْمُبْتَدَأِ يَكُونُ مُقَابِلَهُ الْخَبَرُ الْمُحذوفَ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ)، اسْتِثْنَاةٌ إِبْخَارٍ عَنْ سُوءِ صَنِيعِهِمْ، وَكَوْنِهِمْ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ مَا لَا يَصْلُحُ لِلْأُلُوهِيَّةِ^{١٣٠}.

هذا كلام أبي حيان مختصراً، وشيءٌ من التأمل في السياق قَادَنَا إِلَى أَنْ نَسْجِلَ ملاحظةَ أُخْرَى، تلك: أَنَّ الْآيَةَ نَفْيٌ لِلتَّسْوِيَةِ بَيْنَ اللَّهِ الْقَائِمِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَبَيْنَ أَهْلَتِهِمُ الْعَاجِزَةِ، وَلَمَّا كَانَتِ التَّسْوِيَةُ مُسْتَهْجَنَةً غَرِيبَةً؛ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ لَا تَرِدَ عَلَى الْخَاطِرِ وَلَا تَتَوَهَّمُهَا الْأَوْهَامُ؛ فَضْلاً عَنْ أَنْ تَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَيَتَجَهَّ إِلَيْهَا الْإِعْتِقَادُ؛ لَمَّا كَانَتْ كَذَلِكَ حُسْنُ حَذْفِ الْمُقَابِلِ الْمُسْتَهْجَنِ تَسْوِيَتُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى - وَهُوَ الْخَبَرُ -، فَكَانَ فِي تَرْكِ ذِكْرِ إِهْمَالٍ لَهُ وَازْدِرَاءٍ؛ بِحَيْثُ يُوحِي الْحَذْفُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ حَتَّى الذِّكْرَ فِي سِيَاقِ نَفْيِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً.

ورأيت هذا المعنى من كلام العلامة د. محمد أبو موسى، حيث قال تعليقاً على هذا الحذف: "وفي حذفه إشعار بإهماله وازدراؤه والضمنُّ به أن يُذكر في مقابلة الحق جل جلاله"^{١٣١}.

(١٣٠) البحر المحيط، ٦/ ٣٩٢، والدر المصون، ٧/ ٥٦، وانظر: الباب في علوم الكتاب، ١١/ ٣١١.

(١٣١) خصائص الترطيب القرآني، محمد أبو موسى، ٢٧٥.



ب- ومثله: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ {الزمر ٢٢}، "من" من قوله: (أَفَمَنْ): اسم موصول في محل رفع المبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كَالْقَاسِيِ قَلْبُهُ الَّذِي هُوَ فِي ظُلْمَةٍ، وإنما قدّرناها: "كالقاسي قلبه"، لما دلّ عليه قوله تعالى بعد: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ)، ولعل وجه الحذف في هذا الموضع وأشباهه: التنبيه على سقوط المقابل عن درجة ذكره في معادلة المذكور، وهنا نفى القرآن التسوية بين مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ، وبين القاسي قلبه من ذِكْرِ اللَّهِ فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ! فأبي تسوية يمكن أن تخطر على قلب- أي قلب- بينهما؟! إن القصد إلى نفي التسوية جعل من حذف المعادل أبلغ من مجرد نفيه!

ثم انظر قوله: (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ)، "فإنها كلمة لا تجد لحسنها نهاية، وصاحبها لا يمشي على طريق منير فحسب؛ وإنما يمشي على نور، وهو نور يملأ القلب ويتوهج في الضمير لأنه من ربه!

ولعل في الحذف هنا سرّاً آخر:

وهو الرغبة في أن ينصرف الذهن إلى هذه الصورة ليمتلئ القلب بها، وتبقى وحدها في التعبير؛ لا تنازعها أخرى" ١٣٢.

ت- مما يُفيدُه حذفُ الخبرِ المقابل: التعظيم كذلك، ولتأمل الأمثلة القرآنية الآتية:

• قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..) {الزمر ٢٤}، فالخبر المعادل محذوف والتقدير: "كمن ينعم في الجنة"، والحذف هنا مُشعر بتعظيم المحذوف، وأنه أكرم على الله من أن يُذكر في مقابلة هذا الشقي، وفيه أيضاً:



القصد إلى أن يتجه الهم كله إلى المذكور الذي يتقي بوجهه سوء العذاب ليمتلئ القلب بصورته وهو في النار؛ فزُع طائشٌ لا يدري كيف يدرأ العذاب عن نفسه، فهو يتقي بوجهه، والوجه تسوؤه النار، والذي فيه نبض من نفس وعقل يتقي وجهه من النار ولا يتقي بوجهه النار، لكن المذكور قد طاشت نفسه وأفرغ لُبُّه، من هول ما يرى فهو متخبط وَالِهٌ، ثم إن في ذكر الوجه هنا إشعاراً بإهانة هذه الوجوه وذهاب أقدارها، فالوجه فيه معنى الشرف والتقدم، وإذا كان المذكور يتقي العذاب بوجهه فهو وجه مبتذل مهين، والمقام مقام تخويف وترهيب، وصورة اتقاء النار بالوجه من أبلغ ما يؤثر في النفس حين تُحسِّن تصوُّرها" ١٣٣.

• وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ {الزمر ١٦}، الخبر المعادل محذوف، والتقدير: كمن اتقى ربه فحقت له كلمة النجاة والفوز.

وحذفه للإشعار بعلو مكانته؛ بحيث لا يحسن أن يوضع في مقابل ذلك الخاسر الهالك!

والتعبير عنه بـ "من حقت عليه كلمة العذاب" للإشعار بحتمية هلاكه من جهة، واستحقاقه العذاب بظلمه وجهله وتفريطه من جهة أخرى، والتأمل في "كلمة العذاب" قد يقودنا إلى استحضار وعيد الله تعالى للشيطان وأتباعه: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ...﴾ {الحجر ٤١} الآية، فقد جعل الشقي في تلك الزمرة التي سبق وعيدها بالعذاب بسبب اتباعها للشيطان.



وملاحظة سياقية تستدعي التأمل:

غني عن الذكر أن الخبر قد يُذكر في مواضع مشابهة، كما في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟﴾ {النحل ١٧}، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟﴾ {الرعد ١٦}، ففي هذه المواضع وغيرها جاء الكلام على الأصل؛ من ذكر المبتدأ والخبر المقابل، ومحسن ذكره - والله أعلم - عند إرادة إظهار الفرق بين المتقابلين؛ ذلك أن ذكرهما يصور في ذهن السامع الفارق الكبير بينهما.

والفرق بين المقامين فيما يبدو لي:

أن حذف الخبر في مثل هذه التراكيب مفيدٌ للإشعار بسقوط المقابل عن درجة الذكر؛ لما أنه لا وجه للمقابلة بينه وبين مقابله؛ الذي هو المبتدأ هنا. وأما ذكره فلاظهار الفرق بينهما، وبيان مقدار التباعد بين وصفيهما، والله أعلم بذلك.

أمثلة تدريبية من كلام المفسرين

هذان مثالان من كلام المفسرين يستدعيان التحليل، فاقراً وتأمل ودارس مع إخوة الطريق، فارتياح هذه البقاع يقوّي القرينة ويعمق الفهم ويلين لك الحديد من كلام المفسرين:

التمرين الأول:

تأمل كلام البقاعي في تعليل حذف الخبر من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ {المجادلة ٢}، حيث كان الرجل يشبه زوجته بأمه، فيقول: أنت عليّ كظهر أمي، كالذي حصل من أوس بن الصامت وزوجه رضي الله عنهما، فنزلت الآيات تبين بطلان لك التحريم، وقوله: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ...) مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: مخطئون، وقد أقيم التعليل مقامه، فقال: (مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ)، وهذا إنما هو تعليل للخبر المقدّر أقيم مقامه، فلتأمل هذا التعبير العالي من برهان الدين البقاعي: (وما بين الأقواس من كلامي):



"ولما كان وجه الشبه (يعني التشبيه في كلام المظاهر بين الزوجة والأم): التحريم، وكان للتحريم رتبتان: عليا موصوفة بالتأييد والاحترام، ودنيا خالية عن كل من الوصفين، وكان التقدير خبراً للمبتدأ: مخطئون في ذلك لأنه كذب، لأن التشبيه إن أسقطت أداته لم يكن حملة على الحقيقة ليكون من الرتبة العليا ولو على أدنى أحوالها من أنه طلاق لا رجعة فيه، كما كانوا يعتقدونه، وإن أثبت ليكون من الدنيا لم يكن صحيحاً لأنه ممنوع منه لأن التشريع إنما هو لله، والله لم يكن يشرع ذلك، وكان تعليل شقي التشبيه يفيد معنى الخبر بزيادة التعليل، حذف الخبر، واكتفى بالتعليل فقال معللاً له مهجناً للظهار الذي تعودته العرب من غير أن يشاركهم فيه أحد من الأمم:

{ما هن} أي نساؤهم: {أمهاتهم} على تقدير إرادة أحدهم أعلى رتبتي التحريم، والحاصل أنهم لما كانوا يعتقدون أنه طلاق لا رجعة فيه جعلوا معتقدين أن المرأة أم؛ لأن الحرمة المؤبدة من خصائص الأم، فخطبوا بذلك تقريراً لهم لأنه أردع، وفي سورة الأحزاب ما يوضح هذا^{١٣٤}.

﴿التمرين الثاني﴾:

قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ {البقرة ١٨٥}.

ف (شَهْرٌ) هنا: خبرٌ لمبتدأ محذوف على وجهه، والتقدير: هو شهر رمضان، وغاية حذف المبتدأ هنا أن المقام مقام مدح، ويحسن هذا في مقامات المدح، وقد جاءك من قبل ما يشبه هذا المثال، فألحقه به واجعله من صوره.

والوجه الآخر:

أن (شَهْرٌ) مبتدأ، والخبر محذوف، لعل التقدير: شهر رمضان معظم، ثم قال: (الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)، فكأنه علل الخبر، وثمة وجوه أخرى؛ لا نقصد إلى استقصائها.



أتركك مع كلام صاحب المنار وشيخه لتتأمل:
 "وَانْظُرْ كَيْفَ ابْتَدَأَ هُنَا بِذِكْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهِ، وَوَصَفِ الْقُرْآنَ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَحْكِي عَنْهُ لَذَاتِهِ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ حُكْمِ الصَّوْمِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْأَمْرِ فَلَمْ يُفَاجِئِ النَّفْسَ بِهِ مَعَ ذَلِكَ التَّمْهِيدِ لَهُ حَتَّى قَدَّمَ الْعِلَّةَ عَلَى الْمُغْلُولِ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ حِكْمَةِ حَذْفِ خَبَرِ الْمُبْتَدَأِ إِذَا قُلْنَا إِنَّ كَلِمَةَ (شَهْرُ رَمَضَانَ) مُبْتَدَأٌ، أَوْ حَذْفِ الْمُبْتَدَأِ إِذَا قُلْنَا إِنَّهَا خَبَرٌ لِمَحْذُوفٍ.

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: إِنَّ حَذْفَ الْخَبَرِ جَارٍ عَلَى مَا نَعَهْدُهُ مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ بِحَذْفِ مَا لَا يَقَعُ الْإِسْتِثْنَاءُ بِحَذْفِهِ، وَإِنَّ الْبَيَانَ بَعْدَ الْإِبْهَامِ جَاءَ عَلَى أَسْلُوبِهِ فِي ذِكْرِ الْأَشْيَاءِ ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّتَهَا وَحِكْمَتَهَا، وَهِيَ هُنَا إِنْزَالُ الْقُرْآنِ الَّذِي هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَجَعَلَهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى" ١٣٥.

تمارين أخرى للتدريب

في الأمثلة الآتية خبرٌ محذوف، تأمل سرَّ حذفه، ارجع إلى المظان، وأعمل التدبر:

- ﴿قوله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ {الزمر ٢٢} تقديره: كمن قسا قبله.
- ﴿﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ {هود ١٠٥}، وجبت له النارُ بموجب الوعيد ﴿وَسَعِيدٌ﴾ أي ومنهم سعيدٌ حُذف الخبرُ وهو: من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد" ١٣٦.
- ﴿﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...﴾ {فاطر ٨}، الخبر محذوف، والتقدير: كمن كان على هدى من الله؟!)

(١٣٥) المنار، ٢/ ١٢٨.

(١٣٦) جاء في إرشاد العقل السليم أن الحذف هنا دلالة ما قبله عليه، وهو واضح فتأمل، تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٤١.

This image shows a full page of white paper with horizontal dotted lines, typical of primary school writing paper. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

ثالثاً: حذف الفاعل

قد يكون المحذوف من الكلام: الفاعل، وأشهر صور حذفه: بناء الفعل للمجهول، أو بتعبير الكوفيين: بناؤه لما لم يُسمَّ فاعله، أو بناؤه للمفعول؛ بتعبير ثالث.

ومن المعلوم أنه لا يجوز حذف الفاعل إذا لم لذلك داع بلاغي؛ إذ حذف الفاعل يُطرق الغموض إلى الكلام، والفاعل ركن من أركان الجملة؛ فهو يمثل المسند إليه في الجملة الفعلية.

هذا؛ والواجب أن يتأمل المفسر في السرّ الذي لأجله حُذف الفاعل من الكلام ليفهم المراد من ذلك في ضوء السياق، لكننا على كل حال يمكننا أن نسجّل أهم الأسباب التي لأجلها يحذف الفاعل في الكلام البليغ، وأبلغ الكلام كلام الله تعالى.

أغراض حذف الفاعل

أولاً:

الإيجاز والاختصار، بحيث لا يُضيف ذكرُ الفاعل فائدة جديدة للسامع، أو أنه لا فائدة من أي نوع تتعلق بذكره.

﴿تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ {النحل ١٢٦}، تجد الفعل: (عُوقِبْتُمْ) مبنياً للمفعول، ولو أردنا صياغة الجملة على ذكرِ الفاعل لقلنا: وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عاقبكم به المعتدون!

تري بوضوح أنه ليس ثمة فائدة تتعلق بالتصريح بالفاعل، بل إن ذكره قد أطرق نوع ضعف على تركيب الجملة، وقد طالت وقلّ التركيز على عناصرها من غير فائدة، مع رِكةٍ ناتجة عن التعبير عن الفاعل بـ "المعتدون" أو بغيره!



﴿وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾﴾ {الأنفال ٢}، تجد أن الفعل: "ذكر"، و"تليت" مبنيان للمجهول، وإنما حسن ذلك لأن أياً من الفوائد لم تتعلق بذكر الفاعل فيهما، إذ التركيز في السياق على السلوك الإيماني للمؤمنين، المتمثل في وجل قلوبهم إذا ذكر الله أي أحد، بغض النظر عن هويته، وازدياد إيمانهم عند تلاوة آياته عليهم؛ بغض النظر عن شخص التالي! وأي فائدة تقع لو قلنا: إذا ذكر ذاكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تلا عليهم تال آياته زادتهم إيماناً!

﴿ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾﴾ {البقرة ١٣٨}، فأی فائدة تقع في ذكر السائل لموسى عليه السلام؟!

وتتقاطع الأمثلة ههنا وتقترب المعاني مع السبب الآتي ذكره من أسباب حذف الفاعل؛ وهو أن يكون معلوماً لدى السامع، ففي المثال السابق يمكن أن يقال: إنه حذف الفاعل لأنه معلوم، والفاعل المقدر هنا هو: قوم موسى، والتقدير: كما سأل قوم موسى موسى عليه السلام^{١٣٧}، ولما كان معلوماً كما رأيت فلا حاجة إلى ذكره، ولنفرّد هذا الغرض بالشرح والتشيل في القادم.

ثانياً:

أن يكون الفاعل معلوماً للسامع، فلا حاجة إذاً- لذكره، إذ ذكر الفاعل إنما يكون لتحديده من بين الفاعلين المحتملين، ولإزالة الغموض من الجملة!

(١٣٧) انظر: الدر المصون، ٢/ ٦٥.



وقد لا يكون كذلك تماماً، لكن المراد:
إشعار القارئ بأن الفاعل معلوم، من حيث كون هذا الفعل مما لا يتوهم أحد فيه المشاركة مع غيره، فتكون الرسالة المراد إيصالها إلى ذهن المتدبر:
أن الفاعل وإن نازع فيه بعضهم جدير بأن يكون معلوماً في كل ذهن، متفقاً عليه بين الناس لا متنازِعاً عليه^{١٣٨}!

﴿تأمل هذه الآية وأجر عليها المعاني المذكورة:
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ {النساء ٢٣} الآية، فقد بني الفعل "حُرِّمَتْ" على ما لم يُسمَّ فاعله كما ترى، والفاعل معلوم لدى المؤمنين، والفعل لا يُشركه فيه أحد: التحريم، ولذلك حُسن حذف الفاعل، "إِذْ مِنَ الْبَوَائِثِ عَلَى حَذْفِ الْفَاعِلِ الْعِلْمُ بِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُحَرَّمَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى" ١٣٩.
﴿وتأمل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ {الأنبياء ٣٧}، فمن المعلوم لدى السامع أن الخالق هو الله، ولا يُنازع في ذلك أحد ولا يجهله أحد، فلا حاجة إذاً لذكره وتعيينه، وهو لا يشتبه به أحد!

﴿وانظر قوله تعالى من فاتحة سورة الأعراف: ﴿الْمَصْ * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾
فالفعل: "أُنْزَلَ" فعلٌ مبني لما لم يُسمَّ فاعله، وفاعله: الله تعالى، والمخاطب في الآية: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه؛ فلا حاجة إلى بيان الفاعل، وهو فاعل أحد سبحانه لا يُشاركه في الفعل - الذي هو إنزال هذا الكتاب - أحد!

(١٣٨) سيأتي التمثيل عليه ضمن ما يأتي من الآيات في الغرض التالي، عند قوله تعالى: (إذا الشمس كورت) وأخوات هذه الآية.

(١٣٩) البحر المحيط لأبي حيان، ٣/ ٥٧٧.



مقارنة بلاغية وإعمال للفكر في فهم مناسبات السياق:

قَارَنَ ابنُ عاشور في تفسيره بين هذا الموضع وبين موضع آخر من سورة إبراهيم، حيث صرَّح ثمة بذكر الفاعل ولم يَبَيِّنِ الفعل لما يُسَمِّ فاعله - كما هو هنا في آية الأعراف، ولأترك المقام لذهنك برفقة ابن عاشور:

"كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {إبراهيم ١}.

الكَلَامُ عَلَى تَرْكِيبِ (الر* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ)، كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (المص* كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ) {الأعراف ١}، عدا أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ ذُكِرَ فِيهَا فَاعِلُ الْإِنْزَالِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ مَادَّةِ الْإِنْزَالِ الْمُشْعِرَةِ بَأَنَّهُ وَارِدٌ مِنْ قِبَلِ الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ، فَلِلْعِلْمِ بِمُنْزَلِهِ: حَذَفَ الْفَاعِلَ فِي آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَهُوَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ وَالْإِيجَازِ، وَلَكِنَّهُ ذُكِرَ هُنَا - يَعْنِي فِي آيَةِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ - لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الْإِمْتِنَانِ عَلَى النَّاسِ؛ الْمُسْتَفَادِ مِنَ التَّغْلِيلِ بِقَوْلِهِ: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، وَمِنْ ذِكْرِ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ بِقَوْلِهِ: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)، بِخِلَافِ آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ؛ فَإِنَّهَا فِي مَقَامِ الطَّمَأَنَةِ وَالتَّصْبِيرِ لِلنَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الْمُنْزَلِ إِلَيْهِ الْكِتَابُ، فَكَانَ التَّعَرُّضُ لِذِكْرِ الْمُنْزَلِ إِلَيْهِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَيْهِ أَهَمُّ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَضَاءٍ حَقِّ الْإِيجَازِ^{١٤٠}.



ثالثاً:

توجيه المخاطب لنفس الحدث، وتركيز ذهن المخاطب عليه؛ دون تشتيته على عناصر لا فائدة من ذكرها، وهذا كثير في القرآن، وقد قال أستاذنا الدكتور فضل عباس رحمه الله وأجزل له المثوبة في هذا الغرض من أغراض حذف الفاعل: إنه "مما يكاد يطرّد في حذف المسند إليه" ^(١٤١)، وأمثله كثيرة منها:

﴿قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾﴾، {الحاقة ١٣}، حيث نرى الأفعال الواردة في الآيتين كلّها مبنية لما لم يُسمَّ فاعله، والفاعل ليس يعني المخاطب كثيراً، ولا فائدة كبيرة من ذكره، والمراد- كذلك- توجيه ذهن المخاطب إلى نفس الحدث: النفخ، والحمل، والدك؛ إذ هي الأهم في السياق، وهي المعاني الأخطر التي ينبغي أن تقع في ذهن القارئ المتدبر دون سواها.

ولو قال: فإذا نفخ إسرافيل في الصور .. حملت الملائكة الأرض .. ودكت الملائكة الجبال .. لرأيت أن ذهن المخاطب ذهب إلى معالجة الفاعل للفعل، وانحاز ذهنه- ولو قليلاً- عن التفكير بذات الفعل؛ على أنه الأهم الأخطر في السياق!

﴿وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾﴾ {الفجر ٢٣}، من الذي يجيء يومئذٍ بجهنم؟



أظنك توافقني على أنه لا أهمية كبيرة في السياق لمعرفة الفاعل! فالأمر أخطر والمشهد أهول من الالتفات إلى تحديد الفاعل! فجهنم على مشهد من الجمع؛ يُجاء بها، ولها من الزمجرة والالتهاب والتغيظ ما تذوب معه القلوب، وتنمحي الملامح، وتنوء الركب لأجله بحمل أجساد أصحابها! وهذا المشهد الرعب هو ما يُراد توجيه ذهن المخاطب إلى تأمله، وأي إضافات أخرى ستوزع الذهن بين عناصر إضافية؛ ليست من الأهمية بالمكان الأولى!

ومن الأمثلة المشهورة كذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ {التكوير}، وما يُشبهها من آيات، إذ يرى المتأمل أن الأحداث المهولة هي محط أنظار العقول، وهي العناصر المهمة في السياق، ولا داعي إذاً لذكر الفاعل؛ ولا فائدة في ذكره أصلاً! فالمهم؛ أن الشمس قد كوّرت وأن الجبال قد سيرت، وأن العشار قد عطلت، فأما من فعل هذه الأفعال؛ فليس هو المقصود في السياق، ولا داعي لتشتيت الذهن بذكره!

ولك - أيها السالك طريق التفسير - أن تضيف معنى آخر يلفظ تسجيله هنا: ذلك أن مثل هذه الأفعال العظيمة مما لا يفعله أحدٌ البتة إلا الله تعالى، ولذلك فلا يغمضُ الفاعل على أحد من السامعين!

وقد يُراد الإشعار بأن الفاعل لا يخفى على أحد، وأن تحديده - والحال هذه - لا جديد فيها، إذ من المقرر عند الكل أن فاعل هذه الأفعال العظيمة هو الله وحده!

رابعاً:

الإطلاق والإشعار بأن الفعل قد وقع من الجميع؛ فلا حاجة - إذاً - إلى تحديد فاعلٍ معيّن، تأمل هذا المثال البديع:



﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {الزمر ٧٥}﴾، إذ نلاحظ أن فعلين في الآية قد بُنِيَ لهما لم يُسَمَّ فاعله: "قضي" و"قيل":

أَمَّا الْأَوَّلُ "قضي" فقد بُنِيَ لما يُسَمَّ فاعله، وفاعله: الله تعالى القاضي بين العباد سبحانه؛ لا معقَّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، وحذِفَ الفاعل هنا إحالةً على ما تقرر في ذهن القارئ من أن مثل هذا الفعل - القضاء بين الخلق في ذلك اليوم - مما لا يشتهه أحد في كون فاعله هو الله!

أما الفعل الثاني؛ وهو (وقيل) فبناؤه للمجهول أو لما لم يُسَمَّ فاعله يقصد به - والله أعلم - الإطلاق، والإشعار بكون الفعل مفعولاً للجميع.

فلنستمع بقراءة ما سجله الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره مبيناً علة بناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله، ومشيراً إلى مثال آخر من أمثلة الباب:

"إِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا بُدَّ أَنْ يُظْهَرَ خَلْقُهُ جَمِيعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمْ الْكَاذِبِينَ الْمُفْتَرِينَ. وَيُظْهَرُ لَهُمْ حُكْمُهُ الَّذِي هُوَ أَعْدَلُ حُكْمٍ فِي أَعْدَائِهِ، وَأَنَّهُ حَكَمَ فِيهِمْ حُكْمًا يَحْمَدُونَهُ هُمْ عَلَيْهِ فَضْلاً عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، بِحَيْثُ يَنْطِقُ الْكَوْنُ كُلُّهُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَحَذَفَ فَاعِلَ الْقَوْلِ لِإِرَادَةِ الْإِطْلَاقِ، وَأَنَّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى لِسَانِ كُلِّ نَاطِقٍ وَقَلْبِهِ!

قَالَ الْحَسَنُ: لَقَدْ دَخَلُوا النَّارَ وَإِنْ قُلُوبُهُمْ لِمُتَلَتَةٌ مِنْ حَمْدِهِ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ سَبِيلًا.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَسَنَ حَذْفَ الْفَاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا^ط﴾
 {الزمر ٧٢}، حَتَّى كَأَنَّ الْكَوْنَ جَمِيعُهُ قَائِلٌ ذَلِكَ لَهُمْ إِذْ هُوَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ فِيهِمْ وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ
 وَحَمْدِهِ "١٤٢".

وهذا مثال للذيد كما ترى!

مثال آخر للتأمل والمدارسة

كنا قد بينّا أن عدنا للأغراض والأمثلة إنما هو على سبيل التمثيل لا الحصر، ولتأمل هذا المثال
 الذي أبحر بنا فيه ابن عاشور رحمه الله تعالى لنرى آفاقاً أخرى من الأسرار يمكن أن تصل إليها
 الأذهان؛ إذ قد حُذِفَ فِيهِ الْفَاعِلُ وَبُنِيَ الْفِعْلُ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، واحتمل ذلك وجوهاً في
 التعليل، ذلك في تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿رَزَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ
 مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^ط وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
 {البقرة ٢٦٢}، فما هو فاعل (رَزَيْنَ)؟

الجواب يعتمد على معنى التزيين في الآية، وهو مُحْتَمِلٌ وجهين:

الأول: "أَنَّ مَا خُلِقَ زِينًا فِي الدُّنْيَا قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ نُفُوسِهِمْ وَاشْتَدَّ تَوَغُّلُهُمْ فِي اسْتِحْسَانِهِ، لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ
 الزَّيْنَةَ هِيَ حَسَنَةٌ فِي أَعْيُنِ جَمِيعِ النَّاسِ فَلَا يَخْتَصُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِجَعْلِهَا لَهُمْ زِينَةً كَمَا هُوَ مُقْتَضَى قَوْلِهِ:
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا؛ فَإِنَّ اللَّامَ تُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ".



والثاني: "تَرْوِجُ تَزِينُهَا فِي نُفُوسِهِمْ بِدَعْوَةِ شَيْطَانِيَّةٍ تُحَسِّنُ مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ كَالْأَقْسَةِ الشَّعْرِيَّةِ وَالْحَوَاطِرِ الشَّهْوِيَّةِ".

"وَالْمُزِينُ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَنَّهُمْ أَفْرَطُوا فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الزَّيْنَةِ، وَالْمُزِينُ عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الشَّيْطَانُ وَدُعَاتُهُ".

ولماذا حذف فاعل التزيين؟

"وَحُذِفَ فَاعِلُ التَّزِينِ لِأَنَّ الْمُزِينَ لَهُمْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:
خَلْقُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ حَسَنَةً بَدِيعَةً كَمَحَاسِنِ الذَّوَاتِ وَالْمُنَاطِرِ!
وَمِنْهَا:

إِلْقَاءُ حُسْنِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فِي نُفُوسِهِمْ وَهِيَ غَيْرُ حَسَنَةٍ كَقَتْلِ النَّفْسِ!
وَمِنْهَا:

إِعْرَاضُهُمْ عَمَّنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ حَتَّى انْحَصَرَتْ هِمْمُهُمْ فِي التَّوَعُّلِ مِنَ
الْمَحَاسِنِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَحْتَهَا الْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيًا!
وَمِنْهَا:

ارْتِيَاظُهُمْ عَلَى الْإِنْكِبَابِ عَلَى اللَّذَّاتِ دُونَ الْفِكْرِ فِي الْمَصَالِحِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ يَصْلُحُ كُلُّ
مِنْهَا أَنْ يُعَدَّ فَاعِلًا لِلتَّزِينِ حَقِيقَةً أَوْ عُرفًا، فَلَا جُلَّ ذَلِكَ طُويَّ ذِكْرُ هَذَا الْفَاعِلِ تَجَنُّبًا لِلْإِطَالَةِ".

هذا إذا وجه من الوجوه التي تكشف سرَّ حذف الفاعل، وهو مبنيٌّ كما ترى على الإشارة إلى أن
الفاعل ليس واحداً يُذكر؛ إنما هو محتمل وجوها متعددة؛ ذكرها سيطول لو ذكرتُ، فالوجه -
والحالة هذه - أن يُحال على الذهن ليتدبره على مهل!



وثمة وجه آخر قريب يراه ابن عاشور؛ مبني على أن الفاعل أمرٌ دقيق، يحتاج إلى طول تأمل في طبائع النفوس، واختلافها في تعاطيها مع اللذات والشهوات، ولما كان كذلك أحييت معرفته على غير هذا الموضع، وهو حريٌّ كذلك بالتأمل:

"وَيُحَوِّزُ أَنْ يَكُونَ حَذْفُ الْفَاعِلِ لِدِقَّتِهِ، إِذِ الْمَزِينُ لَهُمُ الدُّنْيَا: أَمْرٌ خَفِيٌّ فَيَحْتَاجُ فِي تَفْصِيلِهِ إِلَى شَرْحٍ فِي أَخْلَاقِهِمْ؛ وَهُوَ مَا اكْتَسَبَتْهُ نَفُوسُهُمْ مِنَ التَّعَلُّقِ بِاللَّذَاتِ وَبِغَيْرِهَا مِنْ كُلِّ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى التَّعَلُّقِ بِهِ التَّنَافُسُ أَوْ التَّقْلِيدُ حَتَّى عَمُوا عَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَضْرَارِ الْمُخَالَطَةِ لِلذَّاتِ، أَوْ مِنَ الْأَضْرَارِ الْمُخْتَصَّةِ الْمَغْشَاةِ بِتَحْسِينِ الْعَادَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ عَلَيْهِ ضَعْفُ الْعَزَائِمِ النَّاشِئِ عَنْ اعْتِيَادِ الْإِسْتِرْسَالِ فِي جَلْبِ الْمَلَأَمَاتِ دُونَ كَبْحٍ لِأَزِمَّةِ الشَّهَوَاتِ!

وَلِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِمْ بِهَذِهِ الْحَالَةِ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ رَبَّتِ الْأَذْيَانُ فِيهِمْ عَزِيمَةٌ مُقَاوِمَةٌ دَعْوَةِ النَّفُوسِ الذَّمِيمَةِ؛ بِتَعْرِيفِهِمْ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تِلْكَ اللَّذَاتُ مِنَ الْمَذْمَاتِ، وَبِأَمْرِهِمْ بِالْإِفْلَاحِ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ ضُرٌّ عَاجِلٌ أَوْ أَجَلٌ؛ حَتَّى يُجَرِّدُوهَا عَنْهَا إِنْ أَرَادُوا تَنَاوُلَهَا، وَيَنْبِذُوا مَا هُوَ ذَمِيمَةٌ مُحَضَّةٌ، وَرَاضَتْهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْبَشَائِرِ وَالزَّوَاجِرِ حَتَّى صَارَتْ لَهُمْ مَلَكَةً، فَلِذَلِكَ لَمْ تُزَيِّنِ الدُّنْيَا لَهُمْ، لِأَنَّ زِينَتَهَا عِنْدَهُمْ مَعْرُضَةٌ لِلْحُكْمِ عَلَيْهَا بِالْإِثْبَاتِ تَارَةً وَبِالنَّفْيِ أُخْرَى! فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ مَا فِي الْأَمْرِ الزَّيْنِ ظَاهِرُهُ مِنَ الْإِضْرَارِ وَالْقَبَائِحِ انْقَلَبَ زِينُهُ عِنْدَهُ شَيْنًا، - لِأَجْلِ ذَلِكَ كُلِّهِ - خُصَّ التَّزْيِينُ بِهِمْ، إِذِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿زَيِّنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ {البقرة ٢٠٥}، ذَمُّهُمْ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ خُلُقِهِمْ، وَهَذَا لَزِمَ حَمْلَ التَّزْيِينِ عَلَى تَزْيِينٍ يُعَدُّ ذَمًّا، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ تَزْيِينًا مَشُوبًا بِمَا يَجْعَلُ تِلْكَ الزَّيْنَةَ مَذْمُومَةً... "١٤٣".

هذا كلامه رحمه الله، ولمزيد من التأمل في المثال يمكن أن نقول:



إن المقصود من الآية: بيان كون الناس الذين كفروا في محل الافتتان بالدهماء؛ وهي تزيين الحياة الدنيا، فصاروا بذلك غافلين عن الحقائق، أعمَّتْهم الحُجُب عن إدراك وزن الدنيا ووزن الآخرة، فسخرُوا بالذين آمنوا، وهم فوقهم يوم القيامة، وشتان بين المقامين!

فليكن الذين كفروا على حَذَرٍ إذاً من سقوطهم صرعى الانخداع بالحياة الدنيا والانعماء ببريقها! وليس مهماً من الذي زَيَّن لهم الحياة الدنيا، فهذا بالنسبة إليهم ليس ذا أثر!

تنبيه على مهارة

لاحظت من خلال الأمثلة أن الأمر مبنيٌّ كما في كل أبواب هذا العلم على التأمل في السياق، ومحاولة الغوص في مراد المتكلم من الحذف، وهذا ولا شك يستلزم الكثير من الدربة على الأمثلة، والمداواة مع الخلان في طريق القرآن، والمطالعة لكتب التفسير ولما عُنِي بهذا العلم من كتب البلاغة والمتشابه اللفظي.

التأمل إذاً في السياق؛ مع افتراض مجيء النص خلياً عن الحذف الذي جاء عليه، ليتضح السرُّ من الحذف بالمقارنة.

ومثال آخر قريب من المثال السابق؛ سيوضح لك أن الواجب على الذهن أن يتجول في المساحات الخفية في النص؛ ليتمكن من الوقوع على المعاني المستكنة هنا وهناك في مغارات السياق، وإذا تأملت المثال، وأضفته إلى ما جاءك من بديع الكلام عن ابن عاشور في المثال السابق أدركت بأن على المفسر ألا يقنع بوجه واحد وقع عليه من كلام أحد العلماء، بل لا بدَّ أن يُعَمِّلَ ذهنه، ويؤكد فكره في البحث عن تلك المساحات الأخرى؛ لعله يظفر بالجديد!



﴿ذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رُزِّقَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾﴾ {التوبة ٣٧} ، وفعل التزيين هنا كما في الموضع السابق: مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، فانظر لم حذف الفاعل؟

قال بعضهم: للتحقير، فردَّ عليه بأنه لا يُحذف إلا إذا كان المفعول عظيمًا، فيحذف تحقيرًا له أن يُذكر معه!

وقال ابن عرفة: حُذف للعلم به، فردَّ عليه الخولاني بأن المفسرين اختلفوا في المزيّن، ف قيل: هو الله، وقيل: هو الشيطان، وإذا كان كذلك لم يكن القول بأنه حذف للعلم به صحيحًا، ولو كان صحيحًا لما حصل بينهم هذا الاختلاف!

وذهب آخرون إلى التفصيل في تعليل حذف الفاعل في الآية على ما يأتي:

- إذا كان المزيّن هو الله فالحذف للتعظيم، ووجه التعظيم أنه لما كان المفعول حقيرًا؛ وهو هنا: الذين كفروا؛ عُظّم الله أن يُذكر معه!
- وإن كان الشيطان فالحذف للتحقير لأنه غير معظّم، وحذفه لسقوطه وتحاشي ذكره^{١٤٤}.

مما زُعم فيه حذف الفاعل، وترتب على هذه الدعوى اختلاف كثير: ما ورد في سورة ص، من قول الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِيَادُ﴾ ﴿٣٣﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٤﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٥﴾ {ص}.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات وتعيين هذه القصة على قولين رئيسين، وتفرع عنهما قولان آخران^{١٤٥}، ولحذف الفاعل منهما محلُّ المركز في فهم المعنى الأصيل للآيات:

القول الأول: زعم بعض المفسرين - استناداً إلى روايات إسرائيلية كون الفاعل محذوفاً من قوله: (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)، قالوا:

حتى توارت الشمس بالحجاب^{١٤٦}، أي: اسْتَتَرَتْ بِمَا يَحْجُبُهَا عَنِ الْأَبْصَارِ^{١٤٧}، واستتارها: غروبها، شبه غروبها بتواري المخبأة بحجابها، فالفاعل هنا هو الشمس، وهو وإن لم يجر له ذكر؛ فإنما صحَّ حذفه للعلم به من حيث دلالة ذكر العشي عليه^{١٤٨}.

وقالوا في تفسير مجمل الآيات:

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ) أي سُلِّمَ (بِالْعَشِيِّ) بعد الظهر (الصَّافِنَاتُ) الصافن من الخيل: الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وهو من الصفات المحمودة في الخيل؛ الذي لا يكاد يكون إلا في

(١٤٥) لن أطيل الوقوف ههنا في استعراض الأقوال لثلا يخرج بنا هذا عن المقصود.

(١٤٦) تفسير الطبري، ٢١ / ١٩١.

(١٤٧) تفسير البغوي، ٤ / ٦٨.

(١٤٨) انظر: تفسير البيضاوي، ٥ / ٢٩.



العَرَابِ الخُلَّصِ، (الجِيَادُ) جمع جواد أو جود، وهو الذي يسرع في جريه، وقيل الذي يجود في الركض.

روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس، وقيل أصابها أبوه من العمالة؛ فورثها منه فاستعرضها، فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو عن وِرْدٍ كان له فاغتمَ لِمَا فاتَه؛ فاستردَّها فعقرها تقرباً لله^{١٤٩}.

﴿أما القول الثاني: فيقوم على أن الفاعل موجود في الكلام، وهو عائد على أقرب مذكور: (إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال: إني أحببت حبَّ الخير) أي الخيل (عن ذكر ربي) أي: إني آثرت حبَّ الخيل بسبب ما هو مذكور في كتاب ربي؛ وهو التوراة، من مدح ربط الخيل وإمساكها على الثغور في مواجهة الأعداء؛ لا لأجل زينة الدنيا وزخرفها ونصيب النفس وحظها وشهواتها، وإنما أحبها لأمر الله تعالى وإعزاز دينه، {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} أي: حتى غابت الخيل عن بصره عليه السلام، ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِثَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ {ص ٣٣}: أمر سليمان عليه السلام الرائضين للخيل والقائمين على شأنها أن يردُّوها ويعيدوها إليه، فلما عادت جعل يمسح سوقها وأعناقها بيده تشریفًا وإعزازًا لها وشفقة عليها وإظهارًا لمكانتها، إذ هي من أعظم ما يساعد المجاهد ويعاونه في دفع عدوه والانتصار عليه، وقد أبدى عليه السلام كمال التواضع في مباشرة ذلك الأمر بنفسه، وهكذا يضرب الأنبياء الأمثال لأقوامهم وأتباعهم ليتأسوا بهم^{١٥٠}.

(١٤٩) انظر: تفسير البضاوي، ٢٩/٥.

(١٥٠) انظر: التفسير الوسيط، ٤٩٩/٨.



وقد رجَّحَ هذا القول الإمام الطَّبْرِيُّ وابن عطية^{١٥١}، وانتصر له الإمام الفخر الرازي انتصاراً مؤزراً بأدلة دكَّت حصون قول المخالفين؛ وإن لم يكن له على الحقيقة حصون^{١٥٢}.

ومن أدلة تهافته:

أن ادَّعاء عود الضمير على فاعلي مذكور أولى من ادعاء عوده على محذوف من الكلام؛ بزعم العلم به! وأيُّ علم به وقد وقع فيه كلُّ هذا الخلاف، ونُسبَ فيه ما لا ينبغي إلى نبيِّ كريم من أنبياء الله!



فائدة في قاعدة مناسبة لهذا المثال

هنا ينبغي التنبه إلى أن ذكر الفاعل هو الأصل، وإن تعارض لدينا قولان في التفسير؛ أحدهما مبنيٌّ على أن الفاعل مذكور، والآخر على أنه محذوف؛ قدَّمنا القول المبني على أنه مذكور ما لم يكن لدينا أدلة أخرى أقوى، والكلام في الآية السابقة مثال تطبيقي على هذه القاعدة.

إضافات القارئ:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١٥١) المحرر الوجيز لابن عطية، ٤/ ٥٠٣.

(١٥٢) انظر: تفسير الرازي، ٢٦/ ٣٩٢.

رابعاً: حذف المفعول

حذف المفعول أشهر وأكثر من حذف غيره ^{١٥٣}، وقد علّق الإمام عبد القاهر على هذا المعنى وعلّله بقوله: "فإن الحاجة إليه أمسّ، وهو بما نحن بصده أخصّ، واللطائف كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه من الحُسن والرونق أنجب وأظهر" ^{١٥٤}.

أولاً: اعتياد حذف المفعول مع بعض الأفعال حتى صار من النادر ذكره.

بعض الأفعال متعدية في الأصل؛ تأخذ مفعولاً، لكن كثر فيها حذف المفعول حتى صار أصلاً أو شبيهاً بالأصل، وأحسب أن حذفه - والحالة هذه - مبنيٌّ على الإيجاز والاختصار.

﴿من ذلك هذا التركيب المشهور في آية سورة الكهف: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾﴾ ^(١١)، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ:

"مَعْنَاهُ أَنْمَنَاهُمْ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُ تَعَالَى ضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ حِجَابًا يَمْنَعُ مَنْ أَنْ تَصِلَ إِلَى أَسْمَاعِهِمُ الْأَصْوَاتُ الْمُوقِظَةُ، وَالتَّقْدِيرُ: ضَرَبْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ الْمَفْعُولَ الَّذِي هُوَ الْحِجَابُ؛ كَمَا يُقَالُ: بَنَى عَلَى امْرَأَتِهِ يُرِيدُونَ بَنَى عَلَيْهَا الْقُبَّةَ" ^{١٥٥}، فالتعبير لما صار متداولاً في الدلالة على معناه اعتيد على حذف المفعول به فيه حتى غدا أصلاً في استعماله أو كالأصل في ذلك، وتُنوَسِي المفعول حتى لا يكاد يُذكر في هذا التعبير!

(١٥٣) قال ابن عطية: "وحذف المفعول كثير من القرآن والكلام"، المحرر الوجيز، ٢٨٣/٤، وقال السمين الحلبي: "لأن

حَذَفَ الْمَفْعُولُ كَثِيرٌ جَدًّا لَا نِزَاعَ فِيهِ"، الدر المصون، ١٧٦/٩.

(١٥٤) دلائل الإعجاز، ١١٨.

(١٥٥) تفسير الرازي، ٢١، ٤٢٩.



﴿وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾﴾ {البقرة ١٧}.

فإن قيل: لم حذف المفعول من «يبصرون»؟
فالجواب: أنه من قبيل المترك الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدّر المنوي؛ كأن الفعل غير متعد أصلاً^{١٥٦}، ونزلناه منزلة اللازم!

﴿وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾﴾ {البقرة ٢٤٦}.

و"فصل" من الفصل وهو انقطاع بعض من كل، وأصله: فصل نفسه أو جنده أو نحو ذلك، ولكنه كثر حذف المفعول للعلم به فصار يستعمل استعمال اللازم^{١٥٧}، وما عاد المفعول يُذكر في مثل هذا التعبير.

﴿ولقد تكاثر حذف المفعول في "شاء"؛ كما في أكثر مواضع وروده في القرآن، ومنه: (فلو شاء هداكم أجمعين)، والتقدير: فلو شاء هدايتكم هداكم! ومنه: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)، والتقدير: ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها!

(١٥٦) اللباب في علوم الكتاب، ١/ ٣٨٠.

(١٥٧) نظم الدرر، ٣/ ٤٢٦.



وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ {النور ٣٨}، والتقدير: والله يرزق من يشاء رزقه بغير حساب!

وهكذا لا تكاد ترى مفعول هذا الفعل إلا نادراً، وإنما كان كذلك لدلالة الجواب على ذلك المحذوف.

وذكره إن ذكر إنما هو في الشيء المستغرب، كقول القائل:
فلو شئت أن أبكي دماً لبكيتك ... عليك ولكن ساحة الصبر أوسع
وأتى فيه بالمفعول ^{١٥٨}لأن بكاء الدم مستغرب ^{١٥٩}.

ثانياً: حذف المفعول للعلم به؛ من العادة أو من السياق أو من سبب النزول.

ومثال ذلك من العادة الدالة على المفعول المحذوف:
﴿قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ {يوسف ٢٢}، ويرتفع فعل يستلزم مفعولاً، والمفعول هنا محذوف، والتقدير: يرتفع المَوَاشِي أَوْ غَيْرَهَا مما تجري العادة به ^{١٦٠}!

ومثاله من المعلوم من السياق الدال على المفعول المحذوف:

• قوله تعالى على لسان بني إسرائيل في منازعتهم أمر موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ {المائدة ٢٢}، وداخلون: اسم فاعل يعمل عمل

(١٥٨) المفعول به هنا: هو المصدر المؤول من "أن" والمضارع الذي يليها: "أبكي"، والتقدير: ول شئت بكاء الدم لبكيتك.

(١٥٩) انظر: السراج المنير، ١/ ٣٠.

(١٦٠) انظر: البحر المحيط، ٦، ٢٥٤..



فعله، ومفعوله محذوف: أي: فإننا داخلون الأرض المقدسة؛ حَذَفَ المفعول لدلالة السياق عليه.^{١٦١}

﴿وَمِثَالُهُ مِنَ الْمَعْلُومِ مِنْ سَبَبِ النُّزُولِ الدَّالُّ عَلَى الْمَفْعُولِ الْمَحْذُوفِ: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ {التحریم ٥٢}، اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال، والأشهر منها: أنه تحريم الجارية، فإنه لما حرمها قال حفصة: لا تخبري بذلك أحداً، والمقصود بـ (بَعْضِ أَزْوَاجِهِ): حفصة؛ (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)؛ كانت حفصة قد أخبرت عائشة رضي الله عنهما بما أسرَّ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية، فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك، فقوله: (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) حذف المفعول، وهو عائشة رضي الله عنها^{١٦٢}، وإنما عَرَفْنَا ذلك من سبب النزول، وحذفه: فيه إحالة على السبب واكتفاء بعلمهم به من خلاله، وكذلك القول هنا في حذف الفاعل: عِلْمٌ مِنْ سَبَبِ النُّزُولِ.

ثالثاً: حذف المفعول لإفادة العموم.

من المعلوم أن ذكر المفعول تخصيص له بكونه محلاً لوقوع الفعل، وحذفه قد يدلُّ على قصد التعميم، وأحسب أن دلالة حذف المفعول على التعميم من أشهر الأغراض التي يُحذف لأجلها. والأمثلة القرآنية على هذا وافرة، ولنتدبر ما تيسر منها:

﴿قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ {العلق ١} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ {العلق ١}. نلاحظ أن عندنا فعلين للخلق - و"خلق": فعلٌ متعدّدٌ - الأول - في الآيات - محذوفُ المفعول، والثاني مذكورُ المفعول، والدُّكْر هو الأصل - كما لا يخفى -، ولنتأمل سرَّ الحذف:

(١٦١) انظر: الدر المصون، ٢٢ / ٤.

(١٦٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ / ٣٩٠، والقصة مشهورة موجودة في التفاسير، وأنا أحيلك عليها لمزيد اطلاع.



هذه أول آيات نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن مرادتها تعريفه برَّبِّه الذي يُخاطبه، وأول ما يُعرَّف به الربُّ سبحانه وتعالى أنه الخالق: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، وإنما حذف المفعول لقصد العموم، كأنه قال: الذي خلق كل شيء، وهذا أول معنى من معاني الربوبية التي يتعرف الله بها إلى عباده!

ثم قال: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)؛ فذكر مفعول الفعل: "خلق"، حيث خصَّص الإنسان ههنا بالخلق لما فيه من العجائب والعبء، ويحتمل أنه أراد الذي خلق الإنسان كما قال ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ {الرحمن}. ثم فسره بقوله خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^{١٣}، والأول أوجه وأنسب للسياق.

وفي روح البيان وجوه لطيفة متقاربة:

"(الَّذِي خَلَقَ) أي: الذي له الخلق والمستأثر به، لا خالق سواه، فيكون "خلق" مُنزَّل منزلة اللازم، وبه يتم مرام المقام؛ لدلالته على أن كل خلقٍ مختصُّ به، أو خلق كل شيء؛ فيكون من حذف المفعول للدلالة على التعميم، وقال في فتح الرحمن: لما ذكر الرب وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام: أرباباً؛ جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها فقال: (الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ):

على الأول: تخصيصُ خلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات؛ لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير.

وعلى الثاني: إفرادُ للإنسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه؛ إذ هو أشرفهم وعليه نزل التنزيل، وهو المأمور بالقراءة.



ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضا خلق الإنسان، ويقصد بتجريده عن المفعول: الإبهام ثم التفسير؛ رومًا لتفخيم فطرته مِنْ عَلَقٍ^{١٦٤}.

وقبل مغادرة المقام يحسن التنبيه على سرٍّ آخر من أسرار السياق نفسه، ذلك في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ {العلق ٥}، إذ الأصل: علّم الإنسان ما لم يعلمه، بذكر الضمير المفرد الذي هو محل نصب المفعول به!

وإنما حُسِّن الحذف - على رأي أبي السعود - مع التعبير بعنوان "عدم المعلوماتية"^{١٦٥} لفوائد جليلة القدر؛ حاصلها: أن "في حذف المفعول أولاً، وإيراده بعنوان عدم المعلوماتية ثانياً؛ من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال كرمه، والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم ما لا تحيط به العقول ما لا يخفى^{١٦٦}.

قاعدة في حذف المفعول

إذا حُذف المفعول ولم يدلّ دليلٌ على تعيينه؛ فالوجه: حمله على العموم، لأن التحديد يفتقر إلى دليل، وانعدام دليل التخصيص دالٌّ على إرادة العموم.

(١٦٤) روح البيان، ١٠/ ٤٧٢.

(١٦٥) إشارة إلى قوله تعالى: (علم الإنسان ما لم يعلم).

(١٦٦) تفسير أبي السعود، ٩/ ١٧٨.



مزید من التطبيقات:

انظر كلام ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ {الاعلى ٢١}، إذ اشتملت جملة: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) عَلَى وَصْفَيْنِ: "وَصَفِ الْخَلْقِ وَوَصَفِ تَسْوِيَةِ الْخَلْقِ، وَحُذِفَ مَفْعُولُ "خَلَقَ"، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ عَامًّا، وَهُوَ مَا قَدَّرَهُ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، وَرُويَ عَنْ عَطَاءٍ، وَهُوَ شَأْنُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ إِذَا لَمْ يَدَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، أَيْ خَلَقَ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ مُوسَى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ {طه ٥٠}.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ خَاصًّا، أَيْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ كَمَا قَدَّرَهُ الزَّجَّاجُ، أَوْ خَلَقَ آدَمَ كَمَا رُويَ عَنِ الصَّحَّاحِ، أَيْ بِقَرِينَةٍ قَرْنَ فِعْلٍ خَلَقَ بِفِعْلِ «سَوَّى»، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ {الحجر ٢٩} {الآية ١٦}.

ومن الأمثلة كذلك والتطبيقات على القاعدة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ {الاعراف ٣٨} حيث حُذِفَ مفعول "يأمر"، واحتَمَلَ حذفه وجهين:

الأول: أن المراد من حذفه: التعميم، والتقدير: إن الله لا يأمر أحداً - أي أحد - بالفحشاء، وكأنه هنا دَلَّلَ على بطلان ما ادعوه مما نسبوه إلى الله تعالى؛ بأن الله لا يأمر أحداً بمثل هذا، وعليه؛ فإنه لا يأمركم أنتم كذلك؛ إذ أنتم داخلون في العموم، فهو نفْيٌ حمل معه دليله! ويسمى هذا النسق من الاستدلال عند أهل الفن: "الاستدلال البرهاني"!



والثاني: أن نقدر مفعولاً معيناً؛ هو المدعون المخاطبون في الجدل في السياق من الذين كفروا وقاموا بالفحشاء بدعوى نسبتها إلى أمر الله تعالى الله عن ذلك، والتقدير: لا يأمركم يا مدعي ذلك^{١٦٨}، والأول أولى لما قد علمت من القاعدة السالفة الذكر، ولما احتواه معنى العموم من براعة الاستدلال والجدل.

ومنها: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ {الحجرات ١}، فـ "تقدموا" حذف مفعوله؛ لأنه أريد به العموم، كأنه قال: لا تقدموا أي أمر أبداً مهما كان ذلك الأمر صغيراً أو كبيراً، والزموا الأدب مع الله ورسوله بالتسليم المطلق!

وحذف المفعول هنا يُطرق إلى الذهن احتمالات متعددة في تقدير المفعول؛ لاحتماله لأمر لو قدر أحدها كان ترجيحاً بلا مرجح؛ فيقدر أمراً عاماً - كما تقرر في القاعدة - لأنه أفيد مع الاختصار^{١٦٩}.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ {المائدة ٨٧}، حيث نلاحظ حذف المفعول من قوله: (وَلَا تَعْتَدُوا).

وفي الآية النهي عن أمرين:

الأول: تحريم الطيبات التي رزقنا الله تعالى، وذلك قوله: (لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)، أي لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذذة؛ بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكاً وتقرّباً إليه تعالى.

(١٦٨) انظر: الباب في علوم الكتاب، ٧٩/٩.

(١٦٩) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي، ٧٠/٨.



والثاني: النهي عن الاعتداء في الطيبات، وذلك قوله: **(وَلَا تَعْتَدُوا)** فِيهَا، وإنما يكون الاعتداء فيها بوجهين:

- أ. بِتَجَاوُزِ حَدِّ الْعِتْدَالِ إِلَى الْإِسْرَافِ الضَّارِّ بِالْجَسَدِ، كَالزِّيَادَةِ عَلَى الشَّبَعِ وَالرِّيِّ فَهُوَ تَفْرِيطٌ، أَوْ تَجَاوُزُ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ النَّفْسِيَّةِ، كَجَعْلِ التَّمَتُّعِ بِلَذَائِهَا أَكْبَرَ هَمِّكُمْ، أَوْ شَاغِلًا لَكُمْ عَنْ مَعَالِي الْأُمُورِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ لَكُمْ وَلَا مُنْتِكَم.
- ب. أَوْ "وَلَا تَعْتَدُوهَا" أَيِ الطَّيِّبَاتِ الْمُحَلَّلَةِ، بِتَجَاوُزِهَا إِلَى الْخُبَائِثِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَالِإِعْتِدَاءُ - إِذَا - يَشْمَلُ الْأَمْرَيْنِ: الْإِعْتِدَاءُ فِي الشَّيْءِ نَفْسِهِ، وَاعْتِدَاءٌ هُوَ تَجَاوُزُهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ.

قال صاحب المنار بعد ذكر الوجهين السابقين: "وقد حذف المفعول في الآية؛ فلم يقل: "فَلَا تَعْتَدُوا فِيهَا" أَوْ "فَلَا تَعْتَدُوهَا" ... لِيَشْمَلَ الْأَمْرَيْنِ: اعْتِدَاءُ الطَّيِّبَاتِ نَفْسِهَا إِلَى الْخُبَائِثِ، وَالِإِعْتِدَاءُ فِيهَا بِالْإِسْرَافِ، لِأَنَّ حَذْفَ الْمُعْمُولِ يُفِيدُ الْعُمُومَ ^{١٧٠}.

﴿وَمِنْ لَطِيفِ الْمَوَاضِعِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ {النحل ٩٦}.

في الآية: كشف عن وجه من وجوه الضلال، التي يعيش فيها المشركون بالله، وهو أنهم لا يفقهون بكفرهم بنعم الله عند حدّ جحدها، وجحد المنعم بها، بل يتجاوزون ذلك إلى أن يضيفوا هذه النعم إلى غير الله، وأن يقدموها قرباناً إلى ما يعبدون من دون الله من أصنام! وهذا فوق أنه كفر بالله، هو عدوان على الله، وحرب له!

(١٧٠) تفسير المنار، ١٧/٧.



وفي قوله تعالى: «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ» حذف المفعول به، لإطلاق نفي العلم من هؤلاء المعبودين، وأنهم لا يعلمون شيئاً البتة، وفي هذا زيادة تشنيع على المشركين، وتسفيه لأحلامهم؛ إذ عدلوا عن التعامل مع رب العالمين، الذي يعلم كل شيء إلى التعامل مع ما لا يعلم شيئاً^{١٧١}.

ويمكن أن يقال في هذا كذلك:

إننا نزلنا الفعل المتعدي: "يعلمون" منزلة اللازم، وليس تقدير المفعول مقصوداً أصلاً، إنما المقصود: أن هذه الآلهة التي اتخذوها غير متصفة بالعلم؛ فهي جاهلة! وأنى للجاهل الذي لا يدرك ما حوله أن يتخذ إلهاً!

ومن بديع أمثلة الحذف: حذف ما يتعدى به الفعل في العادة من الحروف، ومثاله مما يدل على العموم:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ {آل عمران ١٨٥}.

والمتمثل لهذا النص المحكم؛ الواعظ للقلب موعظة بليغة يجد أن الفعل "فاز" تجرد عن ما يتعدى به في العادة، وهو فعل متعدٍ بهذا المعنى، بحيث إنك لو قلت: فزت أو فاز فلان؛ لبادرك السامع بالسؤال: فاز بماذا؟ فتقول: فاز بكذا.

إذا؛ الفعل "فاز" في الأصل يتعدى بالباء الجارة والمجرور، وهو الذي لم يُذكر في هذه الآية؛ فلماذا أوتر الحذف وعُدل عن الأصل؟

إن نهاية كل حي هي الموت، والناس من بعد ذلك يتفرقون وتختلف مصائرهم! فمن أنعم الله عليه بأمرين فقد حاز الفوز، **أما الأول**: فالنجاة من النار؛ وقد عبّر عنها بالزحزحة عنها؛ إذ الزحزحة



تُستعمل مع الثقيل من الأشياء، والفعل زحزح، مركب في الأصل من فعلين: زاح زاح، مثل: زلزل؛ من زال زال، ولما كان هذا الفعل مستعملاً في الأصل مع الثقيل من المواد؛ بحيث تحتاج إزاحتها إلى جهدٍ وتردادٍ؛ أوحى استعماله هنا بأن النجاة من النار تستلزم جهداً وإصراراً ومكافحةً للهوى وترويضاً للنفس الماردة!

وأما الثاني؛ فدخول الجنة، المعبر عنه بقوله: (وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ) بالفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله، ذلك أنه لا يدخل أحد الجنة بعمله؛ كما جاء في حديث البخاري المشهور^{١٧٢}، وإنما يدخل برحمة الله! فمن حصل له الأمران من الزحزحة عن النار وإدخاله الجنة فقد فاز! فاز بماذا؟ هذا السؤال الذي قد يردُّ على الذهن بادي الرأي! الحقُّ أن المفعول أو ما يتعدى به الفعل - قَصْدَ بيانِ محلِّ وقوعه - حُذِفَ هنا للدلالة على العموم؛ إذ من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز بكل شيء حقاً، وما خسر شيئاً أبداً! "ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها"^{١٧٣}.

رابعاً: حذف المفعول لإتاحة فسحة للذهن أن يتصوّر المحذوف بما يناسب السياق، وما يناسب القارئ.

سبق وذكرنا أن من فوائد الحذف: الإفساح للذهن ليملاً الفراغ الذي أحدثه الحذف بالمناسب، وهذا المناسب يُشترط لقبوله: أن يدلَّ عليه السياق ويؤشِّر عليه، وقد يُضاف إلى هذا وجهٌ آخر للمناسبة؛ سآتي على ذكره إن شاء الله. ولنستعرض بعض الأمثلة؛ والله الموفق.

(١٧٢) عن أبي هريرة، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ"



﴿قوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾﴾ النساء (٩)﴾.

الآية فيها وعظ لشاهدي قسمة التركة ومتوليها بالعدل والوقوف عند ما يُرضي الله تعالى فيها، وتخويفٌ على طريقة التلويح؛ ذلك: أن هؤلاء أبناء قد يكونون من الضعفاء، وإنهم سيسوؤهم إن ماتوا وتركوهم من ورثتهم بين أيدي ظلمة لا يرقبون فيهم العدل! فإذا كانوا يخشون ذلك على ذريتهم الضعفاء فليتقوا الله في أبناء الآخرين وورثتهم، وليقولوا قولاً سديداً.

ولم يرد في الآية ذكرُ مفعول: (وَلِيَخْشَ)، وإنما حَذَفَ الْمُفْعُولُ لِتَذَهَبَ النَّفْسُ فِي تَصَوُّرِهِ إِلَى كُلِّ مَا يُخْشَى فِي ذَلِكَ، ويمكن أن يُقال: المفعول محذوف للعلم به، والتقدير: لِيَخْشُوا اللَّهَ ^{١٧٤}، والأول أولى وأروع معنى وأعم - والله أعلم.

﴿ومن الأمثلة التي يمكن أن تشهد لهذا الغرض من أغراض حذف المفعول: ما جاء في قول الله سبحانه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾﴾ الصافات (١٧٥)﴾، إذ الآية وعيد للمشركين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم؛ يروونه بأعينهم فيما يصابون به في أنفسهم يوم يلتقي الجمعان، يوم بدر، وهو من الإخبار بالغيب؛ إذ الآية مكية!

وفي حذف مفعول «يُبْصِرُونَ» إشارة إلى أن هذا الذي سيصرونه؛ هو مما سيطلع عليهم من عالم الغيب، من حيث لا يقدرون، ولا يتوقعون ^{١٧٥}، فلتذهب نفوسهم في تخيل ما ستقع عليه أبصارهم كل مذهب، ولتمتلئ صدورهم رعباً بما يُمكنُ خيالاتهم أن تستجلبه في هذا المقام!

(١٧٤) انظر: تفسير المنار، ٣٢٢/٤، وتقديره على الوجه الثاني: ليخشوا الله: رأى الشيخ محمد عبده كما صرح بذلك

صاحب المنار.

(١٧٥) التفسير القرآني للقرآن، ١٢/١٠٤٢.



فائدة عزيزة متعلقة بالآية:

وههنا فائدة فلنشرها في هذا الموضع:

ذكرنا قبل أسطر أن المفعول المحذوف يترك للذهن فسحةً ليملاها بالمناسب، وشرطنا في المناسب هذا أن يكون ضمن باقة المعاني التي يأذن بها السياق، وقلت: هناك وجه آخر للمناسبة أذكره فيما بعد، وهذا وقت ذكره.

ولتتصبر لصيد هذا المعنى المتعلق بالمناسبة:

ذكرنا في هذا المثال أن حذف المفعول أفسح للذهن أن يقدّر محذوفاً يملئه السياق، وثمة عامل آخر قد يمليه؛ ذلك: نفسية القارئ وطبيعة شخصيته ومكونات عقليته، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص، تأمل:

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)، يُبْصِرُونَ ماذا؟ سيبدأ كل قارئ بتأمل ما يمكن أن ينتظر أولئك المجرمين المهددين؛ وتتدفق مخاوفهم في الفسحة التي يحكمها الذهن؛ فهذا يتخيل مقاتل القوم وسفك دمائهم، وثانٍ يقع في ذهنه زوال مجدهم وتحطيم عروشهم، وثالث: تحركه مخاوف الأسر وما فيه من استذلال، ورابع يقع في قلبه استرقاق النساء والولدان! كل على حسب بُنيته النفسية ومخاوفه المركوزة في طبعه، والبيئة والذكريات!

هذه دلالات نفسية - إذاً - استفدناها من حذف المفعول؛ أضافت معاني رقيقة للنص، ما كانت لتكون لولا هذا الأسلوب القرآني البديع!

ومن جنس هذه الفائدة كذلك: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ {المطففين ٢٢}، حيث إن الفعل "نظر" يتعدى في الأصل بـ "إلى" والمجرور، فتقول: نظرتُ إلى المصحف، ولو قلت: نظرتُ، وسكتُ، لبادرك السامع بالسؤال: نظرتُ إلى ماذا؟



وفي الآية هنا: حُذِفَ ما يتعدى به الفعل (يَنْظُرُونَ)، والمراد: العموم من جهة، ليقال: إنه حُذِفَ الجار والمجرور المقيدان لمحل وقوع الفعل لإفادة العموم؛ إذ هم ينظرون إلى كل ما يتلذذون برؤيته، ويسرُّهم أن ينظروا إليه!

وثمة ملحظ نفسي بديع في الحذف يمكن أن تضيفه أيها السالك الحاذق: إن النصَّ القرآنيَّ العجيب قد أُوْثِرَ فيه حذف الجار والمجرور لمعنى آخر غير قصد العموم، والله أعلم، ذلك: أن المقصود من الآية والسياق: وصف ما يتنعم فيه أولئك الأبرار الموفقون من ألوان النعيم! والمراد: تشويق النفس لدخول تلك الجنة الموعودة، وبذل النفوس دون ذلك: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ {المطففين ٦٦}!

وإن تشويق كلِّ أحد إلى النعيم يختلف باختلاف الأشخاص، ورغباتهم وميولهم وطبائعهم، بل وأعمارهم كذلك! وليملاً كل قارئ لهذه الآية الفجوة التي أحدثها الحذف بما يناسب طبعه وميله ورغبته وسنّه!

أظنك توافقني أن تقدير المحذوف سيختلف باختلاف كل ذلك؛ إذ سيقدر قارئ المحذوف على نحو: على الأرائك ينظرون إلى قصور الجنة، وثانٍ: إلى بساطينها الخضراء وأشجارها ذات الأفنان، وثالث: إلى الحور العين، وما أبدع الله تعالى فيهن من الجمال، ورابع: إلى أنهار الجنة وتنوعها، وخامس: إلى طعامها وشرابها، وسادس وسابع وثامن؛ كلُّ حسبها يشتهي أن يرى، وما يزيد شوقه إليها! نسأل الله من فضله.



خامساً: فوائد أخرى، يستلها الذهن عند التأمل في السياق.

بيّنّا أن ذكر الأغراض في مثل هذه الأبواب من العلم إنما هو على سبيل التمثيل لا الحصر، ثم إن ما تمّ ذكره مما مضى هو مما يكثر وروده، حتى إن بعضها يمكن تععيده؛ كما في القاعدة المتعلقة بإفادة الحذف للعموم.

لكنّ هناك نمطاً من الفوائد والأسرار المتعلقة بحذف المفعول لا يمكن حصره ولا تععيده ضمن قواعد واضحة؛ إنما يعتمد الأمر فيه على الملكة التي يملكها الناظر في النص القرآني، وعلى مدى تعمّقه في فهم السياق، وإدراكه لمرامي التركيب القرآني البليغ!

والسبيل إلى التوضيح لا يعدو التمثيل ببعض الأمثلة القرآنية التي تقرّب الأمر وتوضّح المقصود العامّ منه.

المثال الأول والثاني:

سأذكر مثالين متشابهين وردا في كلام أهل العلم، أحدهما من الأمثلة المشهورة في حذف المفعول، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ {الضحى ٣}،^{١٧٦} إذ لو ذكر المفعول - كما في الفعل الأول: (وَدَّعَكَ) - لقال: وما قلاك؛ فالكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به، وقد رأينا أنها حُذِفَتْ! فما السرُّ في ذلك؟

يذهب بعضهم إلى تعليل هذه ومثيلات بمراعاة الفواصل، وقد جاءك عرض سريع للموضوع؛ حاصله: أننا وإن كنا لا نرى بأساً في جعل مراعاة الفواصل علةً من علل الظواهر السياقية في النص القرآني؛ فإننا لا نرى الاكتفاء بها دون التعليلات المعنوية؛ كما نقلنا عن الإمام عبد القاهر في ذلك السياق، وعلى ذلك فإن حصر العلامة الشنقيطي صاحب أضواء البيان العلة في المثالين المشار إليهما في الكلام القادم في مراعاة الفاصلة؛ أمرٌ نراه يفتقر للإجابة الشافية؛ حيث قال:

(١٧٦) القلي: البغض، كما سيأتي في النقول.



"قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ طه (٧٩)، يعني: أَنَّ فِرْعَوْنَ أَضَلَّ قَوْمَهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَمَا هَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَالنُّكْتَةُ الْبَلَاغِيَّةُ فِي حَذْفِ الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: (وَمَا هَدَى)، وَلَمْ يَقُلْ: "وَمَا هَدَاهُمْ"، هِيَ مُرَاعَاةُ فَوَاصِلِ الْآيَاتِ، وَنَظِيرُهُ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى^{١٧٧})"

يرى الشنقيطي إذاً أن علة حذف المفعول في المثالين تعود إلى مراعاة الفاصلة، وهو ما نراه يستلزم مزيد بحث لإدراك جواب أنسب للسياق وأعمق في النظر، ولندرس المثالين واحداً واحداً؛ ولنبدأ بالمثال الذي سُقنا الكلام لأجله، وهو قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).

﴿الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى).﴾

وفي جولة في رحاب كتب التفسير يمكننا أن نجد إجابات متعددة على السؤال المتعلق بسرّ حذف المفعول من قوله: (وَمَا قَلَى)، وسأورد بعضها مع ترتيب الإجابات واختصارها.

إضافة الزمخشري لجواب آخر زائد على "مراعاة الفاصلة":

يرى الزمخشري أن علة الحذف: ظهور المحذوف وعدم خفائه، وقد بينّا من قبل في سياق آخر أن من علل الحذف بعامة: كون المحذوف معلوماً؛ فلا تدعو الحاجة إلى ذكره وتعيينه! قال رحمه الله:

"حذف الضمير من (قَلَى) كحذفه من الذّاكِرَاتِ في قوله: ﴿وَالذّاكِرِينَ اللّٰهُ كَثِيْرًا وَالذّاكِرَاتِ﴾ {الأحزاب (٣٥)}، يريد: والذاكراته، ونحوه: فأوى، فهدى، فأغنى، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف"^{١٧٨}.

(١٧٧) أضواء البيان، ٤/ ٧٣.

(١٧٨) تفسير الزمخشري، ٤/ ٧٦٥، وانظر: تفسير النسفي، ٣/ ٦٥٣.



وهذه العلة جاءت في كلام آخرين، إلا أن الجيد أنهم لم يُفردوها بالذكر كذلك؛ بل أضافوا إليها فوائد إضافية، وسيأتي عرض بعضها.

صار عندنا إذاً فائدتان للحذف حتى الآن:

﴿مراعاة الفاصلة.

﴿ظهور المحذوف وعدم الحاجة إلى ذكره.

وقد جمعها بعض المفسرين في عبارة واحدة:

"(وَمَا قَلَى) وما أبغضك، وحذف المفعول استغناءً بذكره من قبل، ومراعاة للفواصل" ^{١٧٩}.

وثمة - إذا تأملنا - المزيد:

حيث أضاف الإمام الرازي وجماعة سبياً آخر يمكنك أن تضيفه إلى ما سبق، حيث يقول:
"وَالْقَلَى: الْبُغْضُ، يُقَالُ: قَلَاهُ يَقْلِيهِ قَلَى وَمَقْلِيَّةٌ إِذَا أَبْغَضَهُ، قال الفراء: يريد: وما قلاك، وفي حذف الكاف وجوه؛ **أحدها**: حُذِفَتِ الْكَافُ اكْتِفَاءً بِالْكَافِ الْأُولَى فِي وَدَّعَكَ، وَلِأَنَّ رُؤُوسَ الْآيَاتِ بِالْيَاءِ، فَأَوْجَبَ اتِّفَاقُ الْفَوَاصِلِ حَذْفَ الْكَافِ.

وثانيها: فائدة الإطلااق: أَنَّهُ مَا قَلَاكَ وَلَا [قلا] أحد من أصحابك، وَلَا أَحَدًا مِمَّنْ أَحَبَّكَ إِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ، تَقْرِيراً لِقَوْلِهِ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ^{١٨٠}.

(١٧٩) تفسير البضاوي، ٣١٩/٥، وانظر: التسهيل لابن جزي، ٤٩٠/٢.

(١٨٠) تفسير الرازي، ١٩٢/٣١، وانظر: نظم الدرر، ١٠٣/٢٢.



وجمعت عبارة أبي السعود الثلاثة الأسباب المذكورة:
 "وحذفُ المفعول؛ إما للاستغناء عنه بذكره من قبل، أو للقصدِ إلى نفي صدورِ الفعلِ عنه تعالى
 بالكلية، مع أنَّ فيه مراعاةً للفواصل" ^{١٨١}.

ثم وجدنا سبباً رابعاً بديعاً؛ يدلُّ تأملك فيه على روعة النص القرآني العجيب وعلى براعة الغواص
 الذي أتانا به، وقد نقلَه عن الشَّهاب ^{١٨٢}، ذلك جمال الدين القاسمي صاحب محاسن التأويل؛ وإنه
 لعمرو الحق غَوَّاص ماهر:
 "وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به، وليجري على نهج الفواصل التي بعده، أو لئلا يخاطبه
 بما يدل على البغض" ^{١٨٣}.

والأخيرة هنا هي المقصودة من كلامنا، وبيانها:
 إنه سبحانه لو ذكر الكاف لجاء الكلام على هذه الهيئة: ما ودعك ربك وما قلاك، وقد ذكرنا أن
 القلي: البغض، فيكون قد أضاف القلي إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم، وإن على سبيل النفي،
 والذوقُ القرآني أعلى، وإجلالُ القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم، والمخاطبةُ الربانية
 للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أرقُّ! فأوثر لأجل ذلك حذف المفعول "الكاف" لئلا يخاطبه بما يدل على
 البغض!

وبعد؛ فهذه بعد جولة "غير استقصائية" جمعنا فيها أربعة أسباب يحسُن أن تذكر في تعليل الحذف!

(١٨١) تفسير أبي السعود، ١٦٩/٩.

(١٨٢) رجعت إلى الشَّهاب فلم أجده، وإلى البيضاوي؛ فلم أجده كاملاً كما هو هنا!

(١٨٣) محاسن التأويل، ٤٩١/٩.



﴿مثال آخر من سورة الضحى قبل متابعة الطريق:

هذا، وقبل أن نغادر الكلام في رحاب سورة الضحى أحبُّ أن أسجّل مثلاً آخر منها على حذف المفعول، وهو من قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ {الضحى ٥}، والفعل "يعطيك" يأخذ مفعولين؛ أحدهما مذكور، وهو كاف الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمفعول الثاني محذوف: يعطيك ربك ماذا؟ يعطيك كل شيء فإنه إنما حذف المفعول "لغرض العموم، فيشمل مقام الشفاعة وسائر المزايا التي تخصه"^{١٨٤}، فهو يعطيه كل ما وعده، وكل ما يرضيه، ولذلك قال بعدها: (فَتَرْضَى).

والفعل "رضي" كذلك يتعدى في الأصل كذلك: فتقول: رضيت بالله رباً، و"رضينا برسول الله قسماً" كما جاء في كلام الأنصار بعد غزوة حنين والطائف! وفي سورة المائدة: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ {المائدة ٣}، ولم يتعد الفعل في الآية بشيء كما ترى: (فَتَرْضَى)، وقصد التعميم محتمل، ليكون المعنى: (فَتَرْضَى) عن كل ما جاءك من عطاياه العظام؛ بحيث لا يبقى لك طلب بعد تلك العطية^{١٨٥}.

ويمكن أن تقول: إنه نزل الفعل "ترضى" منزلة الفعل اللازم؛ للدلالة على حالته الدائمة بغض النظر عن المفعول، كأنه يقول: ستظل راضياً، والله أعلم.

﴿المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ {طه ٧٩}﴾

هذا المثال الثاني الوارد في كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله، إذ حذف المفعول فلم يقل: وأضل فرعون قومه وما هداهم! ومفعول الفعل الأول: "أضل" مذكور: (قَوْمَهُ)، وأما الفعل الثاني: (هَدَى) فقد حُذف مفعوله! وقد علّل الحذف فيه بمراعاة الفاصلة كما في المثال الأول!

(١٨٤) غاية الأمانى في تفسير الكلام الرباني، ١/٤٠٣.

(١٨٥) انظر: غاية الأمانى في تفسير الكلام الرباني، ١/٤٠٣.



وشيء من التأمل سيقودك إلى علل أخرى، وغني عن الذكر أن تكون إحداها: ظهور المفعول بدلالة السياق؛ الأمر الذي يحسن - لغرض الإيجاز - حذفه؛ إذ لا فائدة تتعلق بذكره!

أما الأخرى فيمكن أن نتأمل لنقول:

إن هذا الطاغية "فرعون" قد زعم نفسه رباً، وهذا ادّعاء يقطر بل يتدفق تكبراً وطغياناً: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ {النازعات ٢٤}، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ {القصص ٣٨}! ثم إنه زعم فيما زعمه أنه يهدي من اتبعه سبيل الرشاد، ألم يقل فيما قصّه الله تعالى علينا: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ {غافر ٢٩}! وجاءت هذه الآية لتصرّح بأنه قد أضل قومه، وأنه ما هداهم، وهو لم يهد أحداً أبداً، ولم يكن مصدراً أصلاً من مصادر الهدى، بل كان خلياً عنه البتة!

والذي أفاد هذا المعنى: حذف المفعول، إذ لو قال: وما هداهم؛ لكان نفى هداهم على سبيل التحديد، لكن الحذف أفاد التعميم، فأفاد: أنه لم يهدهم ولم يهد غيرهم، ولم يكن منه هدىً أصلاً!

تنبيه على مهارة

تأمل الفرق بين اكتفاء المفسر بقوله: حذف المفعول مراعاة للفواصل، وبين غوصه لنيل مثل هذه المعاني الواردة في تعليل الحذف في هذين المثالين القرآنيين السابقين! أظنك توافقني أن الفرق كبير - وأرجو أن تعود إلى التأمل -!

ليكون تفسيرك للنص القرآني ثرياً غنياً: لا تكتفِ بالإجابات العامة؛ كقولك: مراعاة للفاصلة، أو للإيجاز أو ما أشبه، بل اذكرها - ولا ضير -، وانتقل من بعد إلى الأسرار المتعلقة بالموضع المقصود وبالسياق المحدد! يعني: ابحث عن السرّ المتعلق بهذا الموضع بشكل خاص.



﴿مثال ثالث وفائدة أخرى:﴾

لعله قد ورد هذا السؤال على أذهاننا أثناء التلاوة والتدبر لقول الله تبارك وتعالى:
﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ {الأعراف ٤١}، إذ ذكر الفعل "وعد" مرتين في الآية على لسان أصحاب الجنة، الأولى: مفعوله مذكور: "وعدنا"، نحن المؤمنين من أصحاب الجنة، والثانية: (فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) ولم يقل: ما وعدكم، فحذف المفعول!

السياق واحد، والفعْلان متقاربان في الذكر، لكنه ذَكَرَ المفعول مرةً وحذفه أخرى! ذكره عند كون مفعوله: أصحاب الجنة من المؤمنين، وحذفه عند كون مفعوله: أصحاب النار من الكافرين، فما السر؟!

أظنك تُسرّع إلى استذكار الأغراض والعلل العامة المعهودة، فتقول: المفعول ليس خفياً، والسياق دلّ عليه، وذكره مع الفعل الأول أغنى عن إعادته مع الفعل الثاني! نعم؛ أحسنت!

لكن الغواص المتمرس أبا السعود يهديك درّة إضافية؛ بل درّتين تتعلّقان بهذا الحذف فيقول:
"حُذِفَ المفعولُ من الفعل الثاني:

﴿إسقاطاً لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد.

﴿وقيل: لأن ما ساءهم من الموعد لم يكن بأسره مخصوصاً بهم وعداً؛ كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة؛ فإنهم قد وجدوا جميع ذلك حقاً، وإن لم يكن وعده مخصوصاً بهم" ١٨٦.

(١٨٦) تفسير أبي السعود، ٣/٢٢٩، وانظر: روح البيان، ٢/١٦٥.



جزى الله أبا السعود خيراً؛ فقد كانت هديته ثمينة: معانٍ راقية ونظرات عميقة!
ثم إن تأملك وتدبرك وتقلبك النظر في السياق قد يأتي بفوائد أخرى تغيب عن القانع بمرور
سريع على هذا النص الثري!

﴿مثال رابع وفائدة من حقل آخر:﴾

في سورة التوبة قول الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ {التوبة ٤٧}، ولنقف مع تفسير
إجمالي للآية قبل أن نقف مع النكتة التي نقصد.

"يقول تعالى ذكره: لو خرج، أيها المؤمنون، فيكم هؤلاء المنافقون (مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا)، يقول:
لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فساداً وضراً، ولذلك ثَبَّتَهُمْ عن الخروج معكم.
(وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ)، يقول: ولأسرعوا بركائبهم السَّير بينكم.

وأصله من "إيضاع الخيل والركاب" وهو الإسراع بها في السير، يقال للناقة إذا أسرع السير:
"وضعت الناقة تَضَع وَضْعًا وَمَوْضِعًا" و"أوضعها صاحبها"، إذا جدَّ بها وأسرع، "يوضعها
إيضاعاً".

وأما أصل "الخلال"، فهو من "الحَلَل"، وهي الفُرَج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها، ومنه
قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تَرَأُّوا فِي الصُّفُوفِ لَا يَتَخَلَّلُكُمُ الشَّيَاطِينُ" ^{١٨٧}.



وأما قوله: (يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ)، فإن معنى: "يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ"، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم بتشبيطهم إياكم عنه" ١٨٨.

وموضع الحذف كما تلاحظ في قوله: (وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ)، لأوضعوا ماذا خلالكم؟ تبين لنا أن الإيضاح تهيج المركوب وحمله على الإسراع، والتقدير: "لأوضعوا ركائبهم خلالكم" على حذف المفعول، والذي سوّغ الحذف بالإضافة إلى السبب العام؛ الذي يدور حول كونه معلوماً: كون السياق يصور حالة أولئك المنافقين وهم حريصون على زرع الفتنة بين المسلمين مسرعين في ذلك، وسياق السرعة ناسبه حذف المفعول، والمراد: المبالغة في تصوير إسراعهم بالنمائم ١٨٩.

بج مثالان تدريبيان من تفسيرين نفيسين:

• الأول من تفسير الرازي "مفاتيح الغيب":

تأمل براءة الفخر الرازي في استلال هذا المعنى الرائق من الحذف في قول الله تعالى من آخر البقرة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ لَهُ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ {البقرة ٢٨٥} قبل إتمام القراءة قف هنا، وعد إلى الآية التي قرأت، وابحث فيها عن موضع الحذف، فإن إدراك موضع الحذف أول خطوة بين يدي تعليله.

(١٨٨) تفسير الطبري، ٢٧٩/١٤، مختصراً.

(١٨٩) حام حول المعنى صاحب روح البيان، ٤٤٣/٣.



أظنك قد أدركت أن الحذف في الفعلين: سمعنا، أطعنا، ولأتركك مع الرازي يتفنن في البيان: "المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: قوله: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)، أي: سَمِعْنَا قَوْلَهُ، وَأَطَعْنَا أَمْرَهُ، إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ الْمَفْعُولَ، لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ مُدْحُوا بِهِ.

وأقول- والكلام للرازي-: هذا من الباب الذي ذكره عبد القاهر النحوي رحمه الله أن حَذَفَ المفعول فيه ظاهراً وتقديراً أولاً؛ لأنك إذا جعلت التقدير: سَمِعْنَا قَوْلَهُ، وَأَطَعْنَا أَمْرَهُ، فإذن هاهنا قول آخر غير قوله، وأمر آخر يطاع سوى أمره، فإذا لم يُقدَّر فيه ذلك المفعول أفاد أنه ليس في الوجود قول يجب سَمْعُهُ إِلَّا قَوْلَهُ، وليس في الوجود أمر يُقال في مُقَابَلَتِهِ: أَطَعْنَا إِلَّا أَمْرُهُ فَكَانَ حَذَفُ الْمَفْعُولِ صُورَةً وَمَعْنَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَوَّلَى^{١٩٠}.

فانظر كيف جعل الحذف مطلقاً أولاً من الحذف الذي يَرْقُبُ فيه القارئ المفعول؛ فهم يسمعون ويطيعون؛ لا داعي لتقدير المفعول؛ إذ لا قول يُسمع أصلاً إلا قوله، ولا أمر يُطاع إلا أمره!

• الثاني: من تفسير أبي حيان "البحر المحيط":

من قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ {البقرة ١٩٧}، حيث لم يذكر مفعول الفعل: تزودوا، تزودوا من ماذا؟

يتنازع التقدير دليلاً:

الدليل الأول: سبب النزول، إذ ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يحجون بغير زاد، وكان بعضهم إذا أحرم رمى بما معه من الزاد واستأنف غيره من الأزودة، فأمر الله جل ثناؤه من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره، ومن كان منهم ذا زاد أن يحتفظ بزاده فلا يرمي به^{١٩١}.

(١٩٠) تفسير الرازي، ٧/ ١١٣.

(١٩١) تفسير الطبري، ٤/ ١٥٦.



والدليل الثاني: دليل السياق.

ولنبق مع أبي حيان لنرى صنعته في التقدير والترجيح:
 "فعلى ما رُوي من سبب نزول هذه الآية يكون أمراً بالتزود في الأسفار الدنيوية، والذي يدل عليه سياق ما قبل هذا الأمر وما بعده، أن يكون الأمر بالتزود هنا بالنسبة إلى تحصيل الأعمال الصالحة التي تكون له كالزاد إلى سفره للآخرة، ألا ترى أن قبله: وما تفعلوا من خير يعلمه الله ومعناه الحث والتخريض على فعل الخير الذي يترتب عليه الجزاء في الآخرة؟ وبعده فإن خير الزاد التقوى، والتقوى في عرف الشرع والقرآن عبارة عن ما يتقى به النار! ويكون مفعول: تزودوا، محذوفاً تقديره، وتزودوا التقوى، أو: من التقوى، ولما حذف المفعول أتى بخبر "إن" ظاهر ليدل على أن المحذوف هو هذا الظاهر، ولو لم يحذف المفعول لآتى به مضمراً عائداً على المفعول، أو كان يأتي ظاهراً تفخيماً لذكر التقوى، وتعظيماً لشأنها^{١٩٢}.

هذا، ولنقف عند هذا الحد من الكلام عن حذف المفعول، وإن كان في الباب أمثلة أخرى بديعة وغزيرة الفوائد، لكنني أحسب أن فيما ذكر كفاية نظرية عامة، ولتجعل من التفاسير حقلاً لبحثك، ومن النص القرآني فسحة لتدبرك؛ تقف على المزيد من العطايا، واسأل الله الفتح والعون والكشف؛ ينكشف لك المزيد من الكنوز المستورة!

[illegible]

خامساً وسادساً: حذف الصفة أو الموصوف

هذا الباب من الحذف كثير في القرآن، سائر في مواضع عديدة منه، والشرط العام فيه - كما هو في بقية أبواب الحذف - أن يكون المحذوف معلوماً، وأن لا يُحْدِثَ حذفه لبساً في ذهن السامع. وأما غرضه العام: فالإيجاز والاختصار، وقد تلحق به أغراض أخرى. ولنبق مع أمثلة الباب، ولنعرض أولاً لحذف الصفة، ونتبعه بحذف الموصوف.

حذف الصفة

قد يُذكر الموصوف وتحذف الصفة، وإنما سَوَّغَ هذا الحذف مع الحاجة للتعريف بصفة الموصوف: أن السياق يدلُّ عليها؛ وكذلك يدلُّ عليها العقل أو العادة! ولما دلت هذه عليها لم نَعُدْ بحاجة إلى تطويل الكلام بذكر ما لا فائدة للسامع فيه؛ فصار حذفه حسناً.

ولنقف مع ما تيسر من الأمثلة:

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ {البقرة ١٣٣}.

قال ابن عرفة: حكاية هذه المقالة إما على سبيل الإبطال لها أو على سبيل التقرير لها والموافقة عليها، والأول باطل لئلا يلزم أن يكون كل فريق منهم على شيء، والثاني باطل لئلا يلزم عليه أنها لو حكيت على سبيل أنها حق لم يصح ترتب الذم عليهم مع أن مساق الآية يقتضي ذمهم على ذلك.



قال: وأجيب عنه: بأن اليهودية والنصرانية لهما اعتباران فهما من حيث أصلهما الذي نشأ عنه وهو موسى وعيسى حق ومن (حيث) دعوى المنتمين إليهما (والمتدينين بهما) باطل، فقول اليهود: «لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ» إبطال لأصل ملّة النصرانية وليس هو إبطال لدعوى المنتمين إليها، فحكيت هذه المقالة على معنى الإبطال لها أو ذمّ قائلها أي قولهم ذلك وإبطاهم له باطل، بل هم على شيء باعتبار أصل الملّة لا باعتبار الدعوى وهذا حق وهو على حذف الصفة أي ليسوا على شيء ديني^{١٩٣}.

٢- بعض العمومات القرآنية التي يُعوّل في تخصيصها على الذهن: كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ {الأنعام ١٥٤}.
فقوله: (لِكُلِّ شَيْءٍ) مُرَادُّ بِهِ: الشَّيْءُ الْمُهِمُّ، فَيَكُونُ مِنْ حَذْفِ الصِّفَةِ، والتقدير: وتفصيلاً لكل شيء يهكم أو لكل شيء تنتظم الحياة به أو ما أشبه!

ونظير هذا قوله تعالى في هلاك قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ {الأحقاف}.

فالريح المدمرة تدمر كل شيء، أي: كل شيء أُمِرَتْ به، كما هي عبارة الطبري^{١٩٤}، وانظر كلام الرازي في التعليق عليه وعلى موضع مشابه له:
"هل في قوله تعالى: (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ) مُبَالَغَةٌ وَدُخُولُ تَخْصِصٍ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)، نقول: هُوَ كَمَا وَقَعَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: (أَتَتْ عَلَيْهِ) وَصَفٌ لِقَوْلِهِ:

(١٩٣) تفسير ابن عرفة، ١/ ٣٩٨.

(١٩٤) تفسير الطبري، ١٢/ ٥١٢.



(شَيْءٍ)، كَأَنَّهُ قَالَ كُلُّ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ أَوْ كُلُّ شَيْءٍ تَأْتِي عَلَيْهِ جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ السَّمَوَاتُ؛ لِأَنَّهَا مَا أَتَتْ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهِ الْأَجْسَامُ الَّتِي تَهْبُ عَلَيْهَا الرِّيَّاحُ، فَإِنْ قِيلَ: فَالْجِبَالُ وَالصُّخُورُ أَتَتْ عَلَيْهَا وَمَا جَعَلْتَهَا كَالرَّمِيمِ؟ نَقُولُ: الْمُرَادُ أَتَتْ عَلَيْهِ قَصْدًا، وَهُوَ عَادٌ وَأَبْنَيْتَهُمْ وَعُرُوشَهُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَأْمُورَةً بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَكَأَنَّهَا كَانَتْ قَاصِدَةً إِيَّاهُمْ فَمَا تَرَكْتَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ" ١٩٥.

مثال قريب للمناقشة

وجعل ابن عاشور رحمه الله مثله قول الله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ {الانعام ٣٨} ١٩٦، وهذا إنما يستقيم إن كان المقصود بالكتاب: القرآن، فيكون المعنى: ما فَرَطْنَا في القرآن من شيء تحتاجون إليه في دينكم أو في أسس استخلاصكم أو ما أشبهه! إلا أنه لا بدَّ من التنبيه ههنا إلى أن أكثر أهل التفسير ذهبوا إلى أن المقصود بـ "الكتاب" في الآية: اللوح المحفوظ ١٩٧، وهو الذي يدل عليه سياق الآية، فإن كان كذلك - وهو الصحيح إن شاء الله - لم يكن هذا من باب حذف الصفة، بل قوله: "شيء" نكرة في سياق النفي، وهي مفيدة للعموم، فقصُّ التجريد من الصفات إذاً مقصود.

٣- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ {الاسراء ٥٨}.

يوهم العموم في الآية بأنه ما من قرية إلا والله تعالى مهلكها، إلا أن التحقيق أن قوله: "قرية" موصوف محذوف الصفة، والصفة التي يدل عليها السياق وتدل عليها الآيات الأخرى: قرية ظالمة، أو مكذبة معادية لله ورسوله أو ما أشبهه، جاء في أضواء البيان:

(١٩٥) تفسير الرازي، ٢٨/ ١٨٤، وانظر: تفسير ابن عرفة، ٤/ ٧١.

(١٩٦) التحرير والتنوير، ٨/ ١٧٧.

(١٩٧) تفسير الطبري، ١١/ ٣٤٤.



"وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَذْفُ الصِّفَةِ، أَيِ: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ ظَالِمَةٌ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا، وَهَذَا النَّعْتُ الْمَحْذُوفُ دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ {القصص ٥٩} ، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ {الانعام ١٣١} ، أَيِ: بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُنذِرَهُمُ الرُّسُلُ فَيَكْفُرُوا بِهِمْ وَيَرْجِبَهُمْ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ {هود ١٧} ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾ ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا {الطلاق} إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ ١٩٨.

استخلاص وتنبية على مهارة

في الأمثلة السابقة كلها: سَوَّغَ حَذْفَ الصِّفَةِ: دلالة السياق عليها أو العقل والعادة، ولما دل ذلك عليها صار الحذف إيجازاً حسناً، لكنني أندبك أيها المتدبر إلى عدم القناعة بمثل هذا الجواب مجرداً، إذ أزعـم أنه يمكنك الغوص أكثر أو المحاولة، ثم لعلك تقع على جديد فريد، وإني أرى مخايل فائدة أخرى تترقق من بين كلمات المفسرين المباركة؛ تقريرها: أن الإيجاء بإرادة العموم على سبيل المبالغة مما يزيد المعنى تألقاً، ويضيف إلى المعنى ما يشد الانتباه!

وهذا واضح في الأمثلة السابقة:

انظر مثلاً قوله: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ {الانعام ١٥٤} نعم؛ يفهم المتدبر أن المقصود: كل شيء مهم، أو كل شيء تدعو الحاجة إليه، لكن حذف الصفة أوقَعَ في النفس نوع مبالغة في استيعاب هذا الكتاب لتفصيلات كل شيء؛ كل شيء على الإطلاق؛ وهي مبالغة في مدحه في استيعاب المقصود، فتأمل!



٤- ومثله: ما جاء في سورة الكهف من قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ {الكهف ٧٦}؛ إذ يقف بعضهم أمام هذه الآية وقد لفتت الحيرة، لا يفهم العلاقة بين خرق السفينة وذاك الملك الذي يأخذ "كل سفينة" غصباً! إذ ما دام يأخذ كل سفينة غصباً فما الذي فعله العبد الصالح إذ خرّقها؟!

نعم الاستشكال واضح إذا لم تقدّر موصوفاً محذوفاً للسفينة، ويبدو بسيطاً سهلاً إذا فعلت: (يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)، أي يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصباً، وإن كانت معيبة تركها.^{١٩٩} جاء في زاد المسير:

"قوله تعالى: (يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) أي: كل سفينة صالحة، وفي قراءة أبي بن كعب: «كُلَّ سفينة صحيحة»، قال الخضر: إنما خرقتها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها، ورقعها أهلها فانتفعوا بها.^{٢٠٠}

فائدة تفسيرية

بمناسبة الحديث عن آية سورة الكهف من قصة موسى والعبد الصالح؛ فإنني أحب أن أستطرد لأهدي القارئ هديةً من نتاج ذهن الإمام الفخر الرازي رحمه الله في التعليق على المسائل الثلاث لموسى عليه السلام مع العبد الصالح؛ إذ قال:

"المَسَائِلُ الثَّلَاثَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ عِنْدَ تَعَارُضِ الضَّرَرَيْنِ يَجِبُ تَحْمُلُ الْأَدْنَى لِدَفْعِ الْأَعْلَى، فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْمَسَائِلِ الثَّلَاثَةِ.

أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فَلِأَنَّ ذَلِكَ الْعَالَمَ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَعِْبْ تِلْكَ السَّفِينَةَ بِالتَّخْرِيقِ لَغَضَبَهَا ذَلِكَ الْمَلِكُ، وَفَاتَتْ مَنَافِعُهَا عَنْ مُلَّاكَيْهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَوَقَعَ التَّعَارُضُ بَيْنَ أَنْ يَخْرِقَهَا وَيَعْيِيَهَا فَتَبْقَى مَعَ ذَلِكَ عَلَى مُلَّاكَيْهَا، وَيَبْنَ أَنْ لَا يَخْرِقَهَا فَيَغْضَبَهَا الْمَلِكُ فَتَفُوتَ مَنَافِعُهَا بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى مُلَّاكَيْهَا، وَلَا

(١٩٩) تفسير النسفي، ٢/ ٣١٤.

(٢٠٠) أزد المسير، ٣/ ١٠٢، وانظر: تفسير الطبري، ١٨/ ٦٧، وأضواء البيان: ٣/ ١٦٣.



شَكَ أَنَّ الضَّرَرَ الْأَوَّلَ أَقْلٌ فَوَجَبَ تَحْمُلُهُ لِدَفْعِ الضَّرَرِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ أَعْظَمُهُمَا.
وَأَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: فَكَذَلِكَ لِأَنَّ بَقَاءَ ذَلِكَ الْعُلَامِ حَيًّا كَانَ مَفْسَدَةً لِلْوَالِدَيْنِ فِي دِينِهِمْ وَفِي دُنْيَاهُمْ، وَلَعَلَّهُ عَلِمَ بِالْوَحْيِ أَنَّ الْمُضَارَّ النَّاشِئَةَ مِنْ قَتْلِ ذَلِكَ الْعُلَامِ أَقْلٌ مِنَ الْمُضَارِّ النَّاشِئَةِ بِسَبَبِ حُصُولِ تِلْكَ الْمَفَاسِدِ لِلْأَبَوَيْنِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ أَقْدَمَ عَلَى قَتْلِهِ.
وَالْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشَقَّةَ الْحَاصِلَةَ بِسَبَبِ الْإِقْدَامِ عَلَى إِقَامَةِ ذَلِكَ الْجِدَارِ ضَرَرُهَا أَقْلٌ مِنْ سُقُوطِهِ لِأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ لَضَاعَ مَالُ تِلْكَ الْإِيْتَامِ، وَفِيهِ ضَرَرٌ شَدِيدٌ.^{٢٠١}

٥- ومن لطيف حذف الصفات في القرآن ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ {آل عمران ١٣}.

والتقدير لو تأملت:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ) مؤمنةٌ (تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) تقاتل في سبيل الطاغوت، (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ) الآية، فحذف الوصف وهو لفظ "مؤمنة" في الأوائل؛ لدلالة مقابله في الأواخر لفظ "كافرة"، وحذف من الأواخر جملة (تقاتل في سبيل الطاغوت)، لدلالة مقابله في الأوائل، وهي جملة تقاتل في سبيل الله.

وهذا الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، ومن الأواخر لدلالة الأوائل يسمى "الاحتباك" إذا اجتمع الحذفان معاً، وله في القرآن نظائر^{٢٠٢}.

وهذه فائدة نفيسة فتنبه لها!

(٢٠١) تفسير الرازي، ٤٨٩/٢١.

(٢٠٢) البلاغة القرآنية، الميداني، ٣٤٧.

٦- ومما حُذِفَ من الصفات اكتفاءً بدلالة الأوائِل على الأواخر أو الأواخر على الأوائِل في القرآن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ {الأنفال ٦٥}

قبل أن أحدد لك الموضع من الآيات يحسن أن تعطي نفسك فرصة للتدريب على التنبه لمثل هذا؛ تأمل أين هو حذف الصفات في الآية؟
أراك تتفق معي أن عندنا احتباكاً قريباً من الذي مضى معك قبل قليل!
(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) من الذين كفروا، (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ) صابرون (يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)!
أسلوب لذيذ يتذوقه عقل المتدبر دون غيره ممن يمرُّ على الآيات غير متنبِّهٍ لشيءٍ من فوائدها المعنوية ولطائفها التعبيرية.

حذف الموصوف

أما حذف الموصوف فهو الأكثر في القرآن، لكن يُشترط فيه شرطان:
(أ) كون الصفة خاصة بالموصوف حتى يحصل العلم بالموصوف، فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف، حتى لا يلتبس الأمر على السامع.
(ب) أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هي متعلق غرض السياق^{٢٠٣}، وسيأتي التمثيل؛ فاجتهد في ملاحظة تحقق الشروط فيها!



فإن لم يتوفر الشرطان فلا يُذهب إلى القول بحذف الموصوف، وقد جاء في الدر المصون أثناء مناقشة بعض المسائل:

"الأصل عدم حذف الموصوف فلا يُصار إليه دون ضرورة"^{٢٠٤}، وأحسب أن ادّعاء اشتراط "الضرورة" مبالغة بدليل كثرة وجوده في القرآن وفي اللغة عموماً، لكن نقول: إن وجد من المعاني ما يُحسّن حذفه وتوفّر الشرطان المذكوران فلا بأس بالحذف؛ بل قد يكون هذا مقتضى البلاغة!

الغرض الرئيس من حذف الموصوف:

ومن الأغراض التي يُحذف الموصوف لأجلها: الإيجاز؛ طالما أن الالتباس بعيد: فلماذا نذكر ما لا فائدة فيه؟!

لكن الأغراض الأخرى المناسبة للسياقات واضحة هنا أكثر منها في حذف الصفة؛ إذ الإيجاز هناك أوضح، واستقلاله - أقصد: "الإيجاز" - بكونه علة الحذف أقرب، لكن مهمة المفسّر في البحث عن أغراض إضافية في "حذف الموصوف" أكد، وإنعام النظر في أسرارها أوجب؛ لما يترتب على ذلك من استتال الفوائد الخفية والفرائد البهية من هذا النوع من الحذف أكثر منه في قسميه.

وغنيّ عن الذكر أن حصر هذه الأغراض ضرب من العشواء، إنما هو التأمل ومحاولة فهم مقصود المتكلم من الحذف!

ولنقف مع الأمثلة نتماً لها، فالتمثيل يفتح لنا أبواب التفكير، ولنتدرج في ذكرها:

١ - من المواضع الرائجة في حذف الموصوف: التعبير عن الأعمال الصالحات بـ "الصالحات"، بحذف الموصوف: "الأعمال"، حتى إنه غلب عليها فلا يكاد الموصوف يُذكر معها إلا قليلاً، انظر مثلاً قوله تعالى: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، وقوله: (واعملوا صالحاً)، ومثله قوله: (والباقيات الصالحات خير عند ربك)، فهذه الآيات ومثيلاتها احتوت على حذف الموصوف، فـ "الصالحات" هي الأعمال الصالحات، و"الباقيات الصالحات" هي الأعمال الباقيات الصالحات، وحذف

الموصوف حسن لما أنه معلوم في ذهن السامع لا يُحدث حذفه لبساً!

وكذلك:

إن حذف الموصوف أشعر بمبالغة في اتصاف الموصوف بالصفة التي ذُكرت وصارت عنوانه، وصار هو يُعرف بها دون غيرها من الصفات؛ حتى لكانها صارت علماً عليه، وصار ذكرها مجرداً دالاً على ذاته! فهي "باقيات" تبقى للمرء ولا تتركه، وهل من شيء يبقى له من بعد موته إلا تلك الأعمال التي أودعها في صندوق أيامه ولياليه؟! هل من باقية له إلا ركعات خشع بها لربه؟ أو صدقات جادت بها نفسه احتساباً؟ أو صوم أراد به إرضاء خالقه؟ فلا ضير من حذف الموصوف وقد دلت الصفة دلالة تامة عليه، وأضاف معنى لطيفاً حسناً من المبالغة المتعلقة بمقصود السياق.

وكذلك: الصالحات، في التعبير عن الأعمال الصالحات؛ إذ المبالغة من جهة كونها أعمالاً متجردة من كل وصف، متخلصة من كل شائبة، حتى لكانها عين الصلاح الذي وُصفت به ليس إلا!

٢- من المواضع التي يحسن التمثيل عليها واستمطار معنى لطيف زائد على المعاني العامة في مثل هذه المواضع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ {فصلت ٣٢}، واذن لي أيها القارئ المبارك أن أنقل كلام برهان الدين البقاعي حول هذه الآية متضمناً الكلام على هذا الموضع، قال:

"(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا) أي من جهة القول (مِمَّنْ دَعَا)، وحّد الضمير دلالة على قلة هذا الصنف، (إِلَى اللَّهِ) أي الذي عمّ بصفات كماله جميع الخلق، فهو يستعطف كلّ أحد بما تعرّف إليه سبحانه به من صفاته.



(وَعَمِلَ) أي والحال أنه قد عمل (صَالِحًا) في نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه، أعمّ من أن يكون ذلك الصالح نية أو قولاً أو عملاً للجوارح الظاهرة سراً أو علناً، ولذا حذف الموصوف لئلا يُوهم تقيّده بالأعمال الظاهرة، وللاِغناء عنها بقوله: (دَعَا)، بخلاف ما كان سياقه للتوبة؛ كآية الفرقان، أو اعتقاد الحشر؛ كآية الكهف، فإنه لا بدّ فيه من إظهار العمل ليكون شاهداً على صحة الاعتقاد وكمال التوبة، والدعاء هنا مغنٍ عن ذلك^{٢٠٥}.

(وَقَالَ) مؤكداً عند المخالف والمؤالف؛ قاطعاً لطمع المفسد فيه: (إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أي: الراسخين في صفة الإسلام؛ متظاهراً بذلك لا يخاف في الله لومة لائم، وإن سماه أبناء زمانه كذا: جافياً وغلظاً عاسياً لتصلبه في مخالفته إياهم فيما هم عليه بتسهّله في انقياده لكل ما أمره به ربّه سبحانه^{٢٠٦}.

٣- وتأمل قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ {القمر ١٣}؛ تجد أن المقصود بذات الألواح والدُسْر: السفينة، لكنه حذف الموصوف وأقام الصّفة مقامه، إشارةً إلى أنّها كانت من ألواح مُركّبة موثقة بدُسْر^{٢٠٧}، وكان انفكاكها في غاية السّهولة لبساطة صناعتها، ولم يَقعْ فهو بمحض فضل الله ورعايته وإنجائه^{٢٠٨}.

(٢٠٥) تنبه إلى إشارته في المقارنة مع المواضع التي ذكر فيها الموصوف ولم يحذفه، فأية الفرقان: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)، وآية الكهف: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا): قال: "فإنه لا بدّ فيه من إظهار العمل ليكون شاهداً على صحة الاعتقاد وكمال التوبة".

(٢٠٦) نظم الدرر، ١٧/ ١٨٦.

(٢٠٧) الدُسْر: المسامير.

(٢٠٨) انظر: تفسير الرازي، ٢٩/ ٢٧٩.



٤- ومن المواضع المشهورة في حذف الموصوف قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ {النور ٢٤}، وكل هذه الصفات لموصوفين محذوفين، وقد اختلف في تقدير الموصوف، وتوجيهات المفسرين لمعنى الآية بناء على ذلك!

وقد رأينا رأيين مشهورين بينهم في تقدير الموصوف:

الأول: أن تكون أوصافاً للرجال والنساء، فيكون المعنى: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، ومعنى الآية على تقدير هؤلاء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب، وعليه؛ فزوجه عائشة رضي الله عنها طيبة كذلك^{٢٠٩}.

واضطر أصحاب هذا القول إلى تأويل ما في الآية؛ إذ من المشاهد أن بعض النساء طيبات وليس كذلك أزواجهن، وبعض الرجال طيبين وليست كذلك أزواجهن!

فقالوا: هذا من حيث الاستحقاق، وإن كان قد يحصل خلافه في الواقع.

والثاني: وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، وكل إناء يرشح بما فيه، فلا يتكلم بالكلام الكاذب الفاحش إلا كاذب فاحش، وهذا - كما ترى - لا يحتاج إلى تأويل.

لكن الأكثر ذهب - وهو الراجح إن شاء الله - إلى الأول، ومستظهره استدلال على الموصوف المحذوف بلغة الآية أو بالظاهر من لغة الآية، من حيث إن جمع السلامة دل على الموصوف، وكذلك جمع سلامة الإناث دل عليهم، وهذا يناسب أن يكون الموصوف المحذوف: الرجال والنساء، وإن قدرناه: الكلمات بدلا من الرجال والنساء فستكلف، قالوا: ولو كان الموصوف الكلمات لا الرجال والنساء لقل ما تقديره: الكلمات الخبيثة - لا الخبيثات - للرجال الخبيثين، والكلمات الطيبة - لا

(٢٠٩) انظر: غرائب التفسير، ٢/ ٧٩٣.



الطيبات - للرجال الطيبين، وستكلف مزيد تكلف في توجيه: والخبيثون "من الرجال" للخبيثات من الكلمات، والطيبون من الرجال للطيبات من الكلمات! نعم؛ قد يصحُّ من حيث اللغة، لكنه خلاف الدارج المشهور.

فانظر إلى الحوار التفسيري كيف اعتمد ههنا على حذف موصوف اعتركت الأنظار في تقديره!

٥- من سورة الناس الاستعاذة من شر ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، والوسواس الخناس هو الشيطان كما لا يخفى على أحد، لكنه حذف الموصوف - من جهة - لشهرته ومعلوماته في أذهان المخاطبين بلا التباس، فالوسواس والخناس: وصفان لموصوف محذوف، وحسن حذف الموصوف هاهنا غلبة الوصف، حتى صار كالعلم عليه.

"والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركاً، فيقع اللبس كالطويل والقيح، والحسن ونحوه، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره، فأما إذا غلب الوصف واختص، ولم يعرض فيه اشتراك فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسن حذف الموصوف: كالمسلم والكافر، والبر، والفاجر، والقاصي، والداني، والشاهد والوالي، ونحو ذلك، فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره، وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل" ٢١٠.

ومن جهة أخرى؛ فإن المبالغة في اتصافه بوصفي "الوسواس الخناس" ملاحظة بإقامة هذه الصفة مقام الموصوف، وإقامة الصفة مقام الذات موحٍ بغلبة الصفة وتمحُّص الذات لها!



٦- وانظر إلى مساحة أخرى من مساحات التدبر واستلال الفوائد من هذه الظاهر السياقية، وتأمل كلام ابن عاشور رحمه الله في بيان سر حذف الموصوف من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ {الاسراء ٩}، نعم؛ لدينا موضعان في الآية لحذف الموصوف، الأول: (يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ): للطريق التي هي أقوم، والثاني: (يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ): يعملون الأعمال الصالحات، وقد مثلنا مراراً على هذه الثانية، فلنتأمل كلام ابن عاشور في تعليقه على الموضع الأول:

"وَلِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ يَهْدِي، أَيِّ لِلطَّرِيقِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، لِأَنَّ الْهَدَايَةَ مِنْ مُلَازِمَاتِ السَّيْرِ وَالطَّرِيقِ، أَوْ لِلْمِلَّةِ الْأَقْوَمِ، وَفِي حَذْفِ الْمُوصُوفِ مِنَ الْإِيجَازِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ التَّفْخِيمِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى مَا رَجَّحَ الْحَذْفَ عَلَى الذِّكْرِ^{٢١١}.

هذا؛ وفيما ذكر كفاية في إيضاح الباب، وإشارة إلى مساحات من التأمل تنمي الملكة وتشحذ سيف القرينة، والله الموفق.

إضافات الدراس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

سابعاً: حذف جواب الشرط وجواب: "لو" و"لولا"

حذف جواب الشرط ظاهرة سائرة في القرآن الكريم، وكذا جواب "لو" و"لولا" ^{٢١٢}!

• ويمكن أن نقول: إن شرط حذف الجواب ^{٢١٣} - كما هو شرط كل حذف -:

﴿أَلَا يُحَدِّثُ لِبَسَافٍ فِي ذَهْنِ السَّامِعِ، أَوْ يُوْهِمُهُ مَعْنَى غَيْرِ مَرَادٍ، يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى أَحَدِ مَوَاضِعِ الْحَذْفِ:

"وَتُرِكَ جَوَابُ الْجَزَاءِ فَلَمْ يَذْكُرْ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةِ السَّامِعِينَ بِمَعْنَاهُ، وَقَدْ تَفَعَّلَ الْعَرَبُ ذَلِكَ فِيمَا كَانَ يُفْهَمُ مَعْنَاهُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِلرَّجُلِ: "إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْهَضَ مَعْنَا فِي حَاجَتِنَا، إِنْ قَدَرْتَ عَلَى مَعُونَتِنَا"، وَيُحْذَفُ الْجَوَابُ، وَهُوَ يَرِيدُ: إِنْ قَدَرْتَ عَلَى مَعُونَتِنَا فَافْعَلْ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمُخَاطَبُ وَالسَّامِعُ مَعْنَى الْكَلَامِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الْجَوَابِ، لَمْ يَحْذَفْهُ؛ لَا يَقَالُ: "إِنْ تَقُمْ"، فَتَسَكَّتْ وَتَحْذَفُ الْجَوَابُ، لِأَنَّ الْمَقُولَ ذَلِكَ لَهُ لَا يَعْرِفُ جَوَابَهُ إِلَّا بِإِظْهَارِهِ، حَتَّى يَقَالُ: "إِنْ تَقُمْ تَصْبُ خَيْرًا"، أَوْ: "إِنْ تَقُمْ فَحَسَنٌ"، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ" ^{٢١٤}.

(٢١٢) لو: أداة امتناع لامتناع، ولولا: أداة امتناع لوجود، وتفصيل ذلك ينبغي أن يُراجع في غير هذا الكتاب.

(٢١٣) هناك شروط نحوية؛ ليس هذا مكان ذكرها، مثل ما نصَّ عليه أبو حيان والسمين الحلبي في كتابيهما: "لِأَنَّهُ لَا يُحْذَفُ جَوَابُ الشَّرْطِ إِلَّا عِنْدَ مُضِيِّ فِعْلِهِ قَالَ تَعَالَى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ) (أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمِ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(٢١٤) تفسير الطبري، ١١/ ٢٣٦.



• وأغراض الحذف تتمحور في نوعين من الأغراض:

الإيجاز، والاستغناء عن ذكر ما لا فائدة فيه.

ترك فُسحة للذهن يسيح في أرجائها متأملاً المعنى المناسب لجواب القسم، وبالتالي: يتيح هذا أن تعدد التقديرات المناسبة وتتنوع؛ الأمر الذي يفرض توسيع المعنى بالمناسب من الاحتمالات الواردة على ذهن المفسر والمتدبر، ويمنع من ذلك: ذكر الجواب الواحد والنص عليه! وستأمل بعض النصوص القرآنية في الأمثلة الآتية، ونحللها مستعينين بالله تعالى أولاً وأخيراً، ومستفيدين من كلام أئمة التفسير فيها، مضيفين ما نراه مما فتح الله تعالى به، والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

١- اشترط أكثر أهل اللغة أن يكون جواب الشرط لاحقاً للشرط لا سابقاً عليه، تقول- مثلاً-: إن جاهدت وصلت، ولو طالعت لتعلمت!

لكن قد يأتي التعبير بطريقة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ {الطور ٣١}، فيظن الظان أن الجواب قد سبق الشرط، إلا أنه لا بد من التنبيه إلى أن جمهور أهل اللغة قد قدر الشرط لاحقاً، وجعلوا ما قبله دالاً عليه، وهذا النمط أكثر حذف جواب الشرط في القرآن^{٢١٥}.

ولنبق مع مثال قريب:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ {البقرة ٢٣}، يبدو لك سريعاً أن في الآية شرطين؛ الأول: جوابه المذكور: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ)، وأما الثاني؛ وهو قوله: (إِنْ كُنْتُمْ

(٢١٥) نعم؛ أجاز بعض أهل اللغة أن يكون الجواب سابقاً للشرط، وقد جاء في حاشية الشهاب على البيضاوي أثناء

نقاش مسألة من المسائل: "وهذا منقول عن الفراء وغيره ممن يجوز تقديم جواب الشرط عليه"، أما الأكثر فلا يجوزون

ذلك.

صَادِقِينَ)؛ فشرطُ حُذْفِ جوابه للدلالة عليه، تقديره: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فافعلوا، ومتعلّق الصديق محذوفٌ، والظاهرُ تقديره هكذا: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي كُونِكُمْ تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَارِضَةِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى حَيْثُ قَالَ تَعَالَى حَاكِياً عَنْهُمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ {الأنفال ٣١} ٢١٦.

وعبارة أبي السعود:

"(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أَي فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ شَرْطٌ حَذَفَ جَوَابُهُ لِدَلَالَةِ مَا سَبَقَ عَلَيْهِ، أَيِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَاسْتَلْزَمُوا الْمَقْدَمَ لِلتَّالِي مِنْ حَيْثُ إِنْ صَدَقَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّعْمِ يَسْتَدْعِي قُدْرَتَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؛ بِقَضِيَّةٍ مِشَارَكَتِهِمْ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبُشْرَةِ وَالْعَرَبِيَّةِ مَعَ مَا بِهِمْ مِنْ طَوْلِ الْمَارِسَةِ لِلخُطْبِ وَالْأَشْعَارِ وَكَثْرَةِ الْمَزَاوِلَةِ لِأَسَالِبِ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي حِفْظِ الْوَقَائِعِ وَالْأَيَّامِ، لِأَسِيْمَا عِنْدَ الْمَظَاهِرَةِ وَالتَّعَاوُنِ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الشَّيْءِ مِنْ مَوْجِبَاتِ الْإِتْيَانِ بِهِ وَدَوَاعِي الْأَمْرِ بِهِ" ٢١٧.

٢- وَمِنْ جِنْسِ هَذَا الْمِثَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ {البقرة ٢٧٨}، وَالْمَعْنَى: (وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا): وَاتْرَكُوا بَقَايَا مَا شَرِطْتُمْ مِنْهُ عَلَى النَّاسِ تَرْكاً كَلِيّاً، (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) عَلَى الْحَقِيقَةِ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْهُ! فَإِنْ إِيمَانُكُمْ مُسْتَلْزِمٌ لِامْتِثَالِ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ أَلَبَتَهُ، وَهُوَ شَرْطٌ حُذَفَ جَوَابُهُ ثِقَةً بِمَا قَبْلَهُ، كَمَا تَرَى، أَي: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَاتَّقُوا وَذَرُوا

٢١٨.

(٢١٦) الدر المصون، ١/ ٢٠٢، وثمة احتمال آخر لتقدير الجواب ذكره السمين الحلبي، لكنني اخترت هذا لموافقته

للسياق ودلالته عليه!

(٢١٧) تفسير أبي السعود، ١/ ١٦٦.

(٢١٨) انظر: تفسير أبي السعود، ١/ ٢٦٧.

تنبيه على مهارة؛ وفائدة حقيقة بالنظر

هذا النموذج السائر من الشروط المحذوفة الجواب، المُكْتَفَى بها قبلها للدلالة عليه كثير، ولا يحتاج منك إلى جهد كبير في الكشف عنه، وعماد الأمر فيه:

أن تنظر فيما قبل الشرط، ثم تعكسه بعده بالمناسب من العبارات:

- ﴿الْمُتُوبَةُ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ {البقرة ١٦٣}: هكذا: لو كانوا يعلمون لعلموا أن متوبة من عند الله خير مما شروا به أنفسهم!
- ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ {النور ٢٤}: فلا ينبغي لتلك الرأفة أن تأخذكم بهما.

لعلك تلحظ أنك لا تضيف معنى جديداً كبيراً، فالأمر هنا أمر الصنعة النحوية في تخريج اشتراط تأخر الجواب عن الشرط، من جهة، أما الجهة الأخرى وهي التي تهمننا في هذا الكتاب المعنيّ بأعمال المفسرين التفسيرية: تأكيد معنى الشرط وتعلقه بالمشروط!

فأنت بهذا التقدير تؤكد على الشرط وعلى تعلقه بالمشروط مرتين: مرة بذكر ما يشبه جواب الشرط، والذي لم نعتبره جواباً له لأنه سابق للشرط، والجواب لا يسبق شرطه عند أهل اللغة، ثم في تقدير الجواب "الرسمي" للشرط بعده، فتكرر الاعتناء إذاً بذكر الجواب؛ مرة من قبل ومرة من بعد، وهذا أكد في المعنى، وأبلغ في تقرير ذلك الارتباط! وهذه فائدة عزيزة؛ فتنبه لها!



٣- وانظر إلى نمط آخر من الأمثلة القرآنية في هذا الباب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيِّنَاتٍ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {الانعام ٢٧}.
حيث جاءت "لَوْ تَرَىٰ" في صدارة الجملة؛ يقرأها القارئ وينتظر الجواب في ما بقي من الآية، لكنه إذا انتهى من تلاوتها لَفَتَهُ أنه لم يقرأ جواب "لو" الذي كان ينتظره: لو ترى إذ وقفوا على النار لحصل ماذا؟ كذا يتساءل القارئ!

إن جوابها محذوف؛ وهذا الحذف أفسح للقارئ فسحةً يسيحُ ذهنه فيها باحثاً عن جواب مقدّر مناسب، هذا البحث الذهني يتيح توارد الأفكار حول الجواب: ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ما قالوا لرأيت أمراً عظيماً يجلّ خطره عن الوصف، ولا تفي به الكلمات! هو جواب يمثل هول المشهد وانعكاسه "النفسي" في قلب القارئ ومشاعره^{٢١٩}.

وعبارة الزمخشري:

"وَلَوْ تَرَىٰ جوابه محذوف تقديره: ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً: وَقَفُوا عَلَى النَّارِ؛ أروها حتى يعاينوها، أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها"^{٢٢٠}.

(٢١٩) انظر: تفسير النسفي، ١/ ٤٩٨.

(٢٢٠) تفسير الزمخشري، ٢/ ١٥.

٤- وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ {الرعد ٣١}.

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) شرطٌ حذف جوابه، ولو أن قرأنا وكلاماً يُتلى ويصلح أن تُسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لشدة تأثيره لكان ماذا؟

عندنا احتمالان للجواب المحذوف:

- لكان هذا القرآن.

- لما آمنوا ولما تأثرت به قلوبهم القاسية.

"والمراد منه تعظيم شأن القرآن، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم، أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارها، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَتصدَّعت من خشية الله عند قراءته، أَوْ شُقِّقَتْ فجعلت أنهاراً وعيوناً، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى فتسمع فتقرؤه، أَوْ فتسمع وتجب عند قراءته: لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار، أَوْ لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ {الانعام ١١٣}، الآية" ٢٢١.

هذه عبارة الإمام البيضاوي، وأقول: ذكر الإمام الوجه المحتمل الأول في تقدير الجواب، وهو: لكان هذا القرآن، وقد صدر الكلام بأن هذا الجواب فيه تعظيم القرآن، وقد يتساءل القارئ عن وجه ذلك ومن أين استفاد الإمام هذا المعنى من تقدير الجواب: ولو أن قرأنا سيرت به الجبال ... لكان هذا القرآن؟

وتقرير ذلك: أن يقال:

إن حذفه دلّ على تعظيم القرآن من حيث إن الحذف هنا أشار إلى معلومية المحذوف، وأن ذكره مما لا داعي له لظهوره وإن أنكره البلهاء، فكأنه قال: إنه لا كلام يصلح أن يوصف بهذا أو يتبادر إلى الذهن أنه مما يصلح له إلا هذا القرآن، وفي هذا المعنى من التفتيح ما لا يخفى.

٥- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ {المائدة ٧٠}.

المقصود من الآية: بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به السورة، وهو قوله أو فوا بالعقود، فقال: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، يعني خلقنا الدلائل وخلقنا العقل الهادي إلى كيفية الاستدلال، وارسلنا إليهم رسلاً بتعريف الشرائع والأحكام.

وقوله: (كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ) جملة شرطية وقعت صفة لقوله (رُسُلًا)، وقد يسأل المتأمل: أين جواب الشرط؟ فإن قوله: (فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) لا يصلح أن يكون جواباً لهذا الشرط، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين؟

والجواب: أن جواب الشرط محذوف، وإنما جاز حذفه لأن الكلام المذكور دليل عليه، والتقدير: كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ نَاصِبُوهُ، ثُمَّ إِنَّهُ قِيلَ: فَكَيْفَ نَاصِبُوهُ؟ فْقِيلَ: فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وقوله: الرَّسُولُ الْوَاحِدُ لَا يَكُونُ فَرِيقَيْنِ. فنقول: إن قوله كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ يَدُلُّ عَلَى كَثَرَةِ الرُّسُلِ، فَلَا جَرَمَ جَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ^{٢٢٢}.

هذا التقرير "النحوي" لحذف الجواب، وهو جواب وإن كان كاملاً في الصنعة النحوية إلا أن المفسر المتدبر يحسن ألا يقنع به! بل يحسن به أن يخطو خطوة أخرى في البحث عن السبب الذي لأجله اختير حذف الجواب!

فلنتدبر المثال السابق: ما السرّ في حذف الجواب؟

قدّره الإمام الرازي فيما سبق من الكلام المذكور عنه بـ "ناصبوه"، وكان قد نقله عن الزمخشري، بحيث يكون الكلام هكذا: كلما جاءهم رسول ناصبوه، وهذا صحيح لكنه ليس متعيّناً، أقصد: أن بإمكانك أيها المتدبر للمعاني الجليلة للقرآن أن تطلق ذهنك في فضاءات المعنى؛ لتحصل على معاني متنوعة متعددة أخرى مناسبة للسياق:

كلما جاءهم رسول ناصبوه، آذوه، تأمروا عليه، اختلفوا عليه، خانوا دعوتَه، لم ينقادوا له... وغير هذا من المعاني الثرية التي أتاح الحذف للذهن السباحة فيها، ولو أن جواباً واحداً منها ذكر في الآية دون غيره لحسم الأمر وانتهت فسحة الذهن وارتبط بالمذكور ولم يكن له الانطلاق لالتقاط المعاني المناسبة الأخرى؛ فتأمل!

وما أحسن تعليق ابن المنير رحمه الله في تعليقه على تقدير الزمخشري للجواب المحذوف: "ناصبوه"، حيث أعمل قاعدة تفسيرية مهمة في تقدير الجواب، وهي قاعدة تفسير القرآن بالقرآن، فقال: "ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى، وهي توأمة هذه، قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ {البقرة ٨٧}، فأوقع قوله استكبرتم جواباً، ثم فسّر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض، فلو قدّر الزمخشري هاهنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال: وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا، لكان أولى، لدلالة مثله عليه" ٢٢٣.

تمثيل

جاءك فيما سبق أمثلة على ضرورة إعمال الذهن في استلال فائدة حذف جواب الشرط، وحرّي بك - إن وجدت همة - وإخالك كذلك - أن تتأمل فائدة الشرط نفسه؛ لا فائدة حذف الجواب فحسب، فيتحصل: أن عليك أن تنظر في مسألتين:

الأولى: السرّ في حذف جواب الشرط، وقد جاءك التمثيل عليه فيما مضى.
والثانية: الفوائد الملحوظة في استعمال الشرط ودلالات ذلك، سأحيل أمر التمثيل على المفسّر الحاذق ابن عاشور، إذ سأختار لك مثالين مناسبين إن شاء الله، آملاً أن يضيئ لك تلك المساحة من مساحات تأمل النص:

المثال الأول

من سورة يوسف عليه السلام قول الله تعالى في سياق حكاية المحاورة بين إخوة يوسف قبل إلقائه في الحب: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْحُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ {يوسف ١٠}.

يقول ابن عاشور رحمه الله في التعليق على جملة الشرط:
وجملة: (إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ) شَرْطٌ حُذِفَ جَوَابُهُ لِدَلَالَةِ (وَأَلْقُوهُ) أَي: إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ إِبْعَادَهُ عَنْ أَبِيهِ فَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْحُبِّ وَلَا تَقْتُلُوهُ.
وفيهِ: (تَأَمَّلْ):

تَعْرِضُ بزيادة التَّريُّثِ فيما أَضْمَرُوهُ لَعَلَّهُمْ يَرَوْنَ الرُّجُوعَ عَنْهُ أَوَّلَى مِنْ تَنْفِيذِهِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي شَرْطِهِ بِحَرْفِ الشَّرْطِ، وَهُوَ "إِنْ" إِيَّاءً إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْجَزْمُ بِهِ، فَكَانَ هَذَا الْقَائِلُ أَمَثَلِ الْإِخْوَةِ رَأْيًا وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى التَّقْوَى، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ السَّيَّارَةَ يَقْصِدُونَ إِلَى جَمِيعِ الْجَبَابِ لِلْإِسْتِقَاءِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُحْتَفَرَةً عَلَى مَسَافَاتٍ مَرَّاحِلِ السَّفَرِ.

وَفِي هَذَا الرَّأْيِ عِبْرَةٌ فِي الْإِقْتِصَادِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ وَالْإِكْتِفَاءِ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْغَرَضُ دُونَ إِفْرَاطٍ ٢٢٤.

لم يكتفِ ابن عاشور ببيان حذف الجواب، بل أتبع ذلك بفوائد الإتيان بالشرط نفسه؛ وهذا أمرٌ يستلزم انغماساً في السياق، وملكةً تفسيرية عالية.

المثال الثاني

في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ {المؤمنون}.

يقول رحمه الله:

"و(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) شَرْطٌ حُذِفَ جَوَابُهُ لِدَلَالَةِ الْإِسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: فَأَجِيبُونِي عَنِ السُّؤَالِ". ويتابع مبيناً فوائد استعمال الشرط؛ فيقول:

"وَفِي هَذَا الشَّرْطِ تَوْجِيهٌ لِعُقُوبِهِمْ أَنْ يَتَأَمَّلُوا فَيُظْهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَأَنَّ مَنْ فِيهَا لِلَّهِ، فَإِنَّ كَوْنَ جَمِيعِ ذَلِكَ لِلَّهِ قَدْ يُخَفِّي؛ لِأَنَّ النَّاسَ اعْتَادُوا نِسْبَةَ الْمُسَبِّبَاتِ إِلَى أَسْبَابِهَا الْمُقَارِنَةِ، وَالتَّصَرُّفَاتِ إِلَى مُبَاشِرِهَا، فَنَبِّهُوا بِقَوْلِهِ: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إِلَى التَّأَمُّلِ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)، أَيْ يُجِيبُونَ عَقَبَ التَّأَمُّلِ جَوَابًا غَيْرَ بَاطِلٍ ٢٢٥".

ولنكتفِ بهذا القدر من التمثيل على هذا الباب الشري من أبواب الحذف، ولننتقل إلى آخر، والله الموفق.

(٢٢٤) التحرير والتنوير، ١٢، ٢٢٦.

(٢٢٥) التحرير والتنوير، ١٨، ١٠٩.

إضافات الدراسات:

This image shows a full page of white paper with horizontal dotted lines, typical of primary school writing paper. The lines are evenly spaced and run across the entire width of the page. There are no margins, text, or other markings present.

ثامناً: حذف جواب القسم

القسم في القرآن ظاهرة استدعت العلماء للوقوف أمامها وبيان بلاغة استعمالها؛ حتى أفردها بعضهم بالتصنيف^{٢٢٦}؛ فضلاً عما عرّضوا لها في كتبهم في التفسير عموماً أو الإعجاز القرآني^{٢٢٧}.

لا يسعنا في هذا المقام أن نستوعب الكلام فيه؛ إنما يكفينا أن نتكلم عن حذف جواب القسم، ذلك أن الأقسام في القرآن نوعان:

﴿قَسَمٌ يُذَكِّرُ جَوَابَهُ، وهو الأكثر، كقول الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ {الضحى}، وكقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ {الضحى}، وكقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ﴾ {التغابن} ٧﴾، وغير ذلك من المواضع.

﴿وقَسَمٌ يُحَذِّفُ جَوَابَهُ، وهو الأقلُّ وُروداً في القرآن، وسيأتي التمثيل، ولا بدَّ من التنبيه على أنه قد يقع الاختلاف أحياناً في تحديد جواب القسم، فيذهب بعضهم إلى أنه محذوف، وآخرون إلى أنه مذكور، وسيأتي عرض نموذج أثناء التمثيل.

(٢٢٦) ككتاب: التبيان في أقسام القرآن، أو في أيان القرآن، للإمام ابن قيم الجوزية.

(٢٢٧) كالدكتورة عائشة بنت الشاطيء في كتابها: الإعجاز البياني.

والذي يهمنّا أن نسلّط الضوء عليه في القليل القادم من الصفحات: هذا النوع من القسم في القرآن الكريم، وهو الذي حُذِف جوابه؛ ويهمنّا كذلك أن نبين بلاغة هذا النوع من الأقسام القرآنية؛ مع دراسة بعض النماذج المناسبة.

فائدة

ذكر الإمام البغوي فائدة استقرائية لطيفة لوجوه جوابات القسم الظاهرة في القرآن، فقال: "وَجَوَابَاتُ الْقَسَمِ سَبْعَةٌ: "إِنَّ" الشَّدِيدَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْفَجْرِ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ {الفجر}، و"مَا" النَّفْيُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالضُّحَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ {الضحى}، و"اللَّامُ" الْمُفْتَوَحَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ {الحجر}، و"إِنْ" الْخَفِيفَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ {الشعراء}، و"لَا" كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ {النحل}، و"قَدْ" كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ {الشمس}." ٢٢٨.

ويمكن الاسترشاد بهذه الجوابات الظاهرة لأقسام القرآن في تقدير المحذوف منها، لا على سبيل الوجوب ومنع غيرها ما دلّ عليه السياق؛ إنما يحسّن الاسترشاد بالظاهر المذكور على الباطن المحذوف.

وعودة على مسألة حذف الجواب؛ سنسجّل بعض الملاحظات المتعلقة ببلاغة هذا النوع من الاستعمال القرآني لهذا الباب من الظواهر اللغوية:

(٢٢٨) تفسير البغوي، ٧/ ٣٥٢، وسيأتي الكلام على الخلاف في المثالين الأول الأخير.



١- يُراعى في حذف جواب القسم أن يكون معلوماً عند السامع أو شبه معلوم^{٢٢٩}؛ بحيث لا يلتبس المعنى عليه، ولا يوقعه في توهمٍ مرادٍ بعيد، ومعلوميته هذه مصدرها السياق، وبيانه:

أن في السياق قرينة تدلّ على المحذوف في جواب القسم؛ فيُستدل على تقديره به، كقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ {النازعات}، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن، وإنما عرفنا الجواب من دلالة السياق:

فالنازعات: الملائكة التي تنزع أرواح الكفار، والناشطات التي تنزع أرواح المؤمنين، والسابحات: التي تسبح بأرواحهم إلى السماء، والسابقات: تتسابق بها لتبلغ محلها، والمدبرات: التي يدبر لها ما يتعلق بها^{٢٣٠} حتى إذا انتهت الأقسام قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ {النازعات}، ففهمنا أن الجواب له تعلّق بهذا الموضوع، وتقديره ينبغي أن يدور حول إنكار أولئك للبعث كما تدلّ عليه الآيات، ولذلك قُدِّر: لتبعثن، وفي الطبري في سياق بيان الاختلاف فيه:

"وقال بعض نحويي الكوفة: جواب القسم في النازعات: ما ترك لمعرفة السامعين بالمعنى، كأنه لو ظهر كان لتبعثن ولتحاسبن... والصواب من القول في ذلك عندنا- مؤكداً كلام "نحويي الكوفة الذين نقل عنهم الكلام السابق"-: أن جواب القسم في هذا الموضع مما استغني عنه بدلالة الكلام، فترك ذكره"^{٢٣١}.

(٢٢٩) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ١٠.

(٢٣٠) وقيل غير ذلك أو قريب منه، واخترت ما يناسب السياق، انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ٥/ ٤٣٠.

(٢٣١) تفسير الطبري، ٢٤/ ١٩٢، وانظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي، ١٠/ ١٧٦٣.

٢- هذه لها تعلق بما سبق، وأظنك تنبّهت إليها أثناء نظرك في مثال سورة النازعات، إذ إن ثمة علاقةً بين القسم وجوابه في القرآن باطرادٍ لا يتخلّف، كما يدلُّنا عليه الاستقراء التأمُّ لكلِّ المواضع التي ذُكر فيها الجواب، وبسُطِّ هذا له مقام غير هذا المقام، إلا أنني لا أفوّت فرصة تنبيهك على مهارة هذا محلّها، مشفوعة بمثال أو اثنين.

التنبيه على المهارة

ذكرتُ لك أن ثمة علاقة حتمًا بين القسم وجوابه؛ وعليه؛ فإنه لا ينبغي لك أن تمرّ على تفسير آيات فيها قسمٌ وجوابٌ؛ دون التنبيه على العلاقة بينهما.

ثم إن هذه العلاقة قد تكون واضحة أحياناً، وغامضة تستلزم الاجتهاد والنظر أحياناً أخرى، وإنما تدعو الحاجة إلى البيان في حالة غموض العلاقة بين القسم وجوابه.

تمثيل

في سورة البروج قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ {البروج}، قد اختلف في تعيين جواب هذه الأقسام، جاء في تفسير الرازي:

"اعلم أنّه لا بُدَّ لِلْقَسَمِ مِنْ جَوَابٍ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى وُجُوهِ أَحَدَهَا: مَا ذَكَرَهُ الْأَخْفَشُ، وَهُوَ أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ قَوْلُهُ: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) وَاللَّامُ مُضْمَرَةٌ فِيهِ، كَمَا قَالَ: (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) إِلَى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)، يُرِيدُ: لَقَدْ أَفْلَحَ، قَالَ: وَإِنْ شِئْتَ عَلَى التَّقْدِيمِ كَأَنَّهُ قِيلَ: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ.

وثانيها: ما ذكره الزجاج، وهو أن جواب القسم: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)، وهو قول ابن مسعود وقتادة.

وثالثها: أن جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ {البروج ١٠} الآية؛ كما تقول: والله إن زيداً لقائم، إلا أنه اعترض بين القسم وجوابه، قوله: (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) إلى قوله: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا).

ورابعها: ما ذكره جماعة من المتقدمين أن جواب القسم محذوف، وهذا اختيار صاحب «الكشاف» إلا أن المتقدمين، قالوا: ذلك المحذوف هو أن الأمر حق في الجزاء على الأعمال وقال صاحب «الكشاف»: جواب القسم هو الذي يدل عليه قوله: (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء، أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك لأن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتلوا بهم ويضربوا على أذى قومهم، ويعلموا أن كفار مكة عند الله بمنزلة أولئك الذين كانوا في الأمم السالفة يخرقون أهل الإيمان بالنار، وأحقاء بأن يقال فيهم: قُتِلَتْ قَرِيشٌ كما: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ" ٢٣٢.

أود منك - متفضلاً - أن تتأمل - أولاً - القول الرابع، الذي قدر فيه جواب القسم محذوفاً، وانظر كيف اعتمد أصحابه في تقديره على المقصود من السياق:

(٢٣٢) تفسير الرازي، ١٠٩/٣١، وجاء في السراج المنير مقتصرًا على القولين الأول والأخير: "واختلف في جواب القسم فقال الجلال المحلي: جواب القسم محذوف صدره أي: لقد {قتل} أي: لعن {أصحاب الأخدود} وقال الزمخشري: محذوف ويدل عليه قوله: {قتل أصحاب الأخدود} وكأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعني: كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم. واستظهر هذا البيضاوي"، السراج المنير، ٥١٠/٤.



"كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ مَلْعُونُونَ كَمَا لُعِنَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّورَةَ وَرَدَتْ فِي تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَصْبِيرِهِمْ عَلَى أَذَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَتَذْكِيرِهِمْ بِمَا جَرَى عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ التَّعْذِيبِ عَلَى الْإِيمَانِ حَتَّى يَقْتَدُوا بِهِمْ وَيَصْبِرُوا عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ يَحْرِقُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِالنَّارِ، وَأَحْقَاءُ بِأَنْ يُقَالَ فِيهِمْ: قُتِلَتْ قُرَيْشٌ كَمَا: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ".

ثم على الأقوال الأخرى التي لم تنح باتجاه القول بحذف الجواب لا بدّ فيها كذلك من الحديث عن العلاقة بين القسم وجوابه؛ فنقول:
قد قيل في الجواب غير هذا الوجه:

﴿إِنْ الْجَوَابُ هُوَ قَوْلُهُ: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)، عَلَى أَنْ (قُتِلَ) بِمَعْنَى لَعْنٍ، فَتَكُونُ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ صَالِحَةٌ لَتَكُونَ جَوَابًا لِلشَّرْطِ.

ويحتمل أن تكون جملة إنشائية، وتكون بمعنى الدعاء عليهم بالقتل، فإن كانت كذلك فلا تصلح الجملة الإنشائية لتكون جواباً للقسم، فجواب القسم خبريٌّ حتماً لا إنشائيٌّ.

﴿وَقِيلَ: إِنَّهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (إِنْ بَطَشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٍ)، وَمَشْكَلَتُهُ: طُولُ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْقِسْمِ وَجَوَابِهِ؛ وَهَذَا يُبْعَدُ احْتِمَالِيَّةَ هَذَا الْقَوْلِ، فَبَقِيَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ الْقَاضِي بِأَنَّ الْجَوَابَ قَوْلُهُ: (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) عَلَى تَفْسِيرِهَا بِأَنَّهَا جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ، مَعَ الْقَوْلِ بِالْحَذْفِ كَاحْتِمَالَيْنِ قَوِيَيْنِ لِيَكُونَ أَحَدُهُمَا جَوَابَ الْقِسْمِ.

لكن بعيداً عن الترجيح في هذه المسألة ما المناسبة بين الأقسام التي أقسم الله تعالى بها وجوابات القسم المحتملة؟ (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) أو: (إِنْ بَطَشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٍ)، ما العلاقة بين القسم وجوابه؟



البروج هي النجوم^{٢٣٣}، والنجوم أجرام عظيمة تتضاءل الأرض أمام حجومها حتى لا تكاد تذكر، والشمس: نجم صغير، تكبر الأرض بما يزيد على المليون مرة، وثمة نجوم تكبر الشمس بملايين المرات!

أما اليوم الموعود: فهو اليوم الذي وعده الله تعالى عباده؛ يقتص فيه من الظلمة، وينصر المؤمنين!

(شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ): كل شاهد وكل مشهود، فيعم ذلك كل موجود، وعبرة الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شهيد، ومشهود شهيد، ولم نجبرنا مع إقسامه بذلك أي شاهد وأي مشهود أراد، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا: هو المعني مما يستحق أن يقال له: (شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)"^{٢٣٤} اهـ. وقد ذكروا أعياناً وأزماناً ومعاني.

ووجه المناسبة أن يقال:

إنه أقسم في ضوء طغيان أصحاب الأخدود على لعنهم أو على أن بطشه شديد؛ أقسم على ذلك بالنجوم العظيمة الخلق الشديدة البنيان، وأين قوة هؤلاء الطغاة من عظيم هذا الخلق؟! وإن كان هؤلاء قد تعاضموا على ضعاف المؤمنين فليذكروا قوة الله تعالى وقدرته عليهم!

واليوم الموعود هو اليوم الذي توفي فيه كل نفس ما كسبت، فيوفي القتلة حسابهم، ويوفي الثابتون على أمر الله، الصابرون على ما أصابهم فيه حسابهم، وهو اليوم الذي أوعده الله تعالى القتلة والمجرمين، والذي وعده المؤمنين الصابرين.

(٢٣٣) انظر: تفسير الطبري، ٢٤ / ٣٣٣، وثمة أقوال أخرى، فانظر هناك.

(٢٣٤) تفسير الطبري، ٢٤ / ٣٣٧



(وَشَاهِدٍ) يشهد على ما فعله المجرمون بالمؤمنين، (وَمَشْهُودٍ) شُهد على ما حاق به من عذابات في سبيل الإيمان! إن كل قَسَمٍ من الأقسام له تعلقٌ بالجواب كما ترى وبموضوع الآيات من بعده.

وهكذا تجد أن التحقيق في شغلنا هذا- أقصد: التفسير والتدبر- أن تتجاوز المعاني الأولية والملاحظات الظاهرة؛ لتصل إلى أعماق النص وتدرّك خيوط ترابطه الخفية فضلاً عن الواضحة.

وما من قَسَمٍ في القرآن إلا ويحسن بك أن تبحث عن مناسبتة لجوابه، والله الموفق والمسدد.

٣- من وجوه بلاغة حذف جواب القسم في القرآن أن القسم نفسه غير قابل للتكذيب والنقض لا اعتبار أنه إنشاء لا خبر، بخلاف الجواب؛ الذي هو خبر.

وأحسب أنه مرَّ بك أن الخبر ما يقبل التصديق والتكذيب لذاته، وأن الإنشاء ما لا يقبل ذلك؛ كالاستفهام والنداء والأمر والنهي.

و"القسم ضرب من الأسلوب الإنشائي، لا مناص للخصم من الإقرار به، ولا وجه له في إنكاره، فإن شاء أن ينكر انصبَّ إنكاره على جواب القسم لا على القسم نفسه، لأن الجواب خبر لا إنشاء"

٢٣٥.



٤- من وجوه بلاغة استعمال أسلوب الحذف كذلك أنه: "قد يحذف جواب القسم في القرآن، وهو المقسم عليه، فيتقل بعد القسم إلى كلام آخر، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف.

والسرُّ في هذا أنه يسدُّ على المخاطب المنكر طريق الفرار، فلا يتقل من القسم وهو إنشاء، إلى الجواب وهو خبر، لئلا يجاري المنكر في الجواب، ثم ليكون القسم كالتمهيد والتنبيه فيسترعي سمع المخاطب؛ فيرهف أذنيه ليستمع ما بعد القسم، فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من القسم نفسه، كقوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾، فأقسم بحرف من حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن، على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز^{٢٣٦}، وأتبعه بالقسم بالقرآن، وحذف الجواب لدلالة التحدي عليه، كأنه قال: والقرآن ذي الذكر إنه كلام معجز، ولكن الكفار استكبروا ولم يدعنوا إليه، فعارضوا الرسول وكذبوه، أو كأنه قال: أقسم بالقرآن ذي الشرف العظيم، إنك لصادق فيما تبلِّغ عن ربك، ولكن الكفار استكبروا ولم يدعنوا للحق، وأصرُّوا على العناد، أو أقسم بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار، بل هم في استكبار ومخالفة، وعداوة لمحمد^{٢٣٧ ٢٣٨}.

(٢٣٦) هذا على القول بأن هذه الحروف المقطعة قد أقسم الله تعالى بها، وهو قول مشهور عند المفسرين.

(٢٣٧) القسم الظاهر في القرآن، سامي عطا حسن، ٤٣، جامعة آل البيت، بحث منشور على المكتبة الشاملة.

(٢٣٨) انظر: لاحتمالات جواب القسم في سور ص: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/ ٥٣٨.

أمثلة قرآنية على حذف جواب القسم، ومداولات العلماء فيها:

المثال الأول

فلنبق مع الآيات المذكورة سورة ص، حيث اختلف المفسرون في تحديد جواب القسم: (ص)^ج وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿٦٥﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ، فمنهم من قال: إن جواب القسم الذي صُدِّرت به السورة قوله بعده: (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)، وُضِعَ بَأَن (بَل) تدل على جواب القسم ولا تدخل عليه.

وقيل: جواب القسم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص) ﴿٦٥﴾ وقيل غير ذلك.

وقد ضعفها ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن^{٢٣٩}، وأردف قائلا:

"وذكر النحاس وغيره وجهاً آخر في الجواب، وهو أنه محذوف تقديره: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) ما الأمر كما يقوله هؤلاء الكفار، ودل على المحذوف قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وهذا اختيار ابن جرير وهو مخرَّج من قول قتادة، وشرحه الجرجاني فقال: "بل" رافعٌ لخبر قبله، ومثبتٌ لخبر بعده، فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله، وما بعده دليلٌ على ما قبله، فالظاهر يدلُّ على الباطن، فإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} مخالفاً لهذا المضمرة فكأنه قيل: والقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق"^{٢٤٠} (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) وليسوا كما زعموا!

(٢٣٩) وضعفها ابن جزي كذلك، تفسير التسهيل، ٢/ ٢٠١.

(٢٤٠) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ١٢.

وقد حذف الجواب "تفخيماً لتذهب النفس فيه كل مذهب"^{٢٤١}، بعبارة الإمام العز، ويمكنك تقدير الجواب بعبارة أخرى يسوقك لها تأملك في القسم وفي السياق.

وفي العبارات المتفاوتة، والمعاني المتقاربة وقد تنوّعت في تقدير جواب القسم إتاحةً لمزيد من ثراء النص ووفرة معانيه؛ التي تتدفق على ذهن المتأمل أثناء تجواله باحثاً عن جواب مناسب للقسم وللسياق.

ولأترك مع صاحب أضواء البيان يتفنن في تقرير المسألة على وجه لا مزيد عليه:
"اعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِ الشَّيْءِ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ مَذْكُورٌ، وَالَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُ مَذْكُورٌ اخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ، وَأَقْوَاهُمْ فِي ذَلِكَ كُلُّهَا ظَاهِرَةُ السُّقُوطِ.

فمنهم مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ).
ومنهم مَنْ قَالَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ {ص ٥٤}.
ومنهم مَنْ قَالَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ {ص ١٤}، كقوله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ {الشعراء ٩٧}.
وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ٢ ﴿التَّجَمُّ الثَّاقِبُ﴾ ٣ ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ {الطارق}.

(٢٤١) تفسير العز بن عبد السلام، ٧١/٣، وانظر العبارة قريبة في النكت والعيون، للهاوردي، ٧٦/٥.



وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ {الانعام ٦١}، ومن قال هذا قال: إِنَّ الْأَصْلَ: "لَكُمْ أَهْلَكْنَا"، وَلَمَّا طَالَ الْكَلَامُ، حُذِفَتْ لَامُ الْقَسَمِ، فَقَالَ: كَمْ أَهْلَكْنَا بِدُونِ لَامٍ.
قَالُوا: وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ {الشمس ٩}، لَمَّا طَالَ الْكَلَامُ بَيْنَ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، الَّذِي هُوَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا﴾ {الشمس ٩}، حُذِفَتْ مِنْهُ لَامُ الْقَسَمِ.
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ: (ص)، قَالُوا مَعْنَى (ص) صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)، وَعَلَى هَذَا فَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هُوَ صِدْقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ الْمَعْنَى: هذه (ص) أي السُّورَةُ الَّتِي أَعْجَزَتِ الْعَرَبَ، (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي لَا يَخْفَى سُقُوطُهَا.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ مُحذُوفٌ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَقْدِيرِهِ، فَقَالَ الزَّخَّشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ، التَّقْدِيرُ (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) إِنَّهُ لِعُجْزٍ، وَقَدَّرَهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ وَغَيْرُهُ فَقَالَ: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ.

قَالَ مُقَيَّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ - وَالْكَلَامُ لِلشَّنَقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ -: الَّذِي يَظْهَرُ صَوَابُهُ بِدَلِيلِ اسْتِقْرَاءِ الْقُرْآنِ: أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ مُحذُوفٌ وَأَنَّ تَقْدِيرَهُ: (وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ، وَأَنَّ قَوْلَهُمُ الْمُقْسَمَ عَلَى نَفْيِهِ شَامِلٌ لثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ مُتَلَازِمَةٍ:
الْأَوَّلُ مِنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَقُولُ الْكُفَّارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ {الرعد ١٣}.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْإِلَهَ الْمُعْبُودَ جَلَّ وَعَلَا وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ {ص ٥}.



وَالثَّالِثُ: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ {النحل ٣٨}، وقوله: ﴿رَزَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ {التغابن ٧}، وقوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ {سبا ٣}.

أَمَّا الدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ مُحذُوفٌ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ {ص ٢}، لِأَنَّ الْإِضْرَابَ بِقَوْلِهِ (بَلْ)، دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ الْمُحذُوفِ، أَيْ مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ)، أَيْ فِي حِمِيَّةٍ وَأَنْفَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَنِ الْحَقِّ، (وَشِقَاقٍ)، أَيْ مُخَالَفَةٍ وَمُعَانَدَةٍ.

وَأَمَّا دَلَالَةُ اسْتِقْرَاءِ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ الْمُنْفِيَّ الْمُحذُوفَ شَامِلٌ لِلْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ، فَلِدَلَالَةِ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: أَمَّا صَحَّةُ رِسَالَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَوْنُ الْإِلَهِ الْمُعْبُودِ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ فَقَدْ أَشَارَ لَهُمْ هُنَا.

أَمَّا كَوْنُ الرَّسُولِ مُرْسَلًا حَقًّا فَبَيَّنَّا قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ {ص ٤} يعني أي: لَا وَجْهَ لِلْعَجَبِ الْمَذْكُورِ، لِأَنَّ يَجِيءُ الْمُنْذِرُ الْكَائِنُ مِنْهُمْ، لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ بِإِرْسَالٍ مِنَ اللَّهِ حَقًّا" ٢٤٢.

فانظر يا رعاك الله إلى هذه المعاني الثرية المتدفقة التي اخترنت في حذف الجواب، وكيف أنه لو ذكر فيها جواب محدّد لحُرْمنا من هذه المعاني المتنوعة من جهة، ومن هذا العمل التفسيري الشيق الذي قدم الشنيطي رحمه الله نموذجاً عليه من جهة أخرى!

المثال الثاني

ومثل هذا الموضع قوله تعالى من سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ق﴾، إذ افتُتحت السورة بعد (ق) بالقسم: (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)، فَإِنْ قِيلَ: أَيْنَ جَوَابُ الْقِسْمِ؟

فالجواب: أنهم اختلفوا فيه كما اختلفوا في الموضع السابق من سورة ص سواء بسواء، فمنهم من قال:

﴿جَوَابُ الْقِسْمِ قَوْلُهُ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ﴿ق﴾ ٢﴾ أي: لقد علمنا، وَضَعَفَ بطول الفاصل بين القسم وجوابه.

﴿ومنها من قال: الجواب: (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ)، وَضَعَفَ بِأَنْ (بَلْ) لا تدخل على الجواب، بل هي دليل عليه.

﴿ومنها من قال: إِنْ جَوَابُ الْقِسْمِ مُحْذُوفٌ، وَمَعْنَاهُ: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) لتبعثن ٣، أو ما يقارب ذلك.

ولك أن تجول كما جال صاحب أضواء البيان، وتسبح لالتقاط مدلولات السياق وعكسها على جواب القسم أو أجوبته المحتملة.

(٢٤٣) انظر: التفسير البسيط للواحدى، ٣٧٧/٢٠، وتفسير السمعاني، ٥/٢٣٤.

المثال الثالث

وكذلك القسم في سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ {الشمس}

إذ قد اختلف المفسرون في تحديد الجواب على هذه الأقسام البديعة المرسومة الحية المتنوعة، ف قيل: الجواب: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، وهو قول جيد، أورد عليه أن الأصل أن تقع اللام في جواب القسم، فيقال: لقد أفلح، وأُجيب بأن اللام قد تقدّر في الجواب، وضربوا لذلك أمثلة قرآنية^{٢٤٤}، كقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ {البروج}، إلى قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ {البروج}، وقد جاءك أن هذا المثال لا يُسلم.

وقيل الجواب محذوف، وهو رأي المحققين - بتعبير أصحاب "الوسيط"، حيث "يرى المحققون من العلماء أن جواب القسم محذوف، للعلم به، فكأنه سبحانه قد قال: وحقّ الشمس وضحاها، وحقّ القمر إذا تلاها ليقعنّ البعث والحساب والجزاء، أو لتحاسبنّ على أعمالكم.

ودليل هذا الجواب قوله تعالى بعد ذلك: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها، تدلّ على أن الله تعالى قد اقتضت سنته، أن يحاسب من فسق عن أمره، وأصرّ على تكذيب رسوله.



وعلى هذا سار صاحب الكشف، فقد قال: "فإن قلت: فأين جواب القسم؟ قلت: هو محذوف، تقديره: ليدمدن الله عليهم، أي: على مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دمدم على قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام وأما قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) فكلام تابع لقوله: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء" ٢٤٥.

المثال الرابع

وكذلك: موضع سورة الفجر، تأمل هذه الأقسام وما لحقها: ﴿وَالْفَجْرِ ١ وَلَيْلٍ عَشْرِ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ إِذَا يَسِر ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ {الفجر} الآيات.

وقد قيل في جواب القسم وجهان:

الأول: أن يكون الجواب قوله: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)، وهذا ضعيف لوجهين:

- أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.
- والثاني: قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة وهي عاد وثمود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقررأً ومحدراً: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)، فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم ٢٤٦.

والثاني: أن يكون محذوفاً، ويشير بوضوح إليه قوله تعالى: (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ)، وقد بين الفخر الرازي الاحتمالين، وذكر الأولى منهما، وهو أن يكون محذوفاً، ويين من بعد بلاغة جعل الجواب محذوفاً، فقال:

(٢٤٥) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٥/٤١٣، وتفسير الزمخشري، ٤/٧٥٨.

(٢٤٦) التبيان في أقسام القرآن، ٢٠.



"وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ وَجْهَيْنِ **الْأَوَّلُ**: أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ هُوَ قَوْلُهُ: (إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ) وَمَا بَيْنَ الْمُؤْضِعَيْنِ مُعْتَرِضٌ بَيْنَهُمَا.

الثَّانِي: قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَافِ»: الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ وَهُوَ لِنُعَذِّبَ الْكَافِرِينَ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَلَمْ تَر إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ {الفجر}، وَهَذَا أَوَّلَى مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَتَعَيَّنِ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَهَبَ الْوَهْمُ إِلَى كُلِّ مَذْهَبٍ، فَكَانَ أَدْخَلَ فِي التَّخْوِيفِ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْدَهُ بَيَانُ عَذَابِ الْكَافِرِينَ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ أَوَّلًا هُوَ ذَلِكَ" ٢٤٧.

وكلام الرازي هنا في غاية البراعة، ولمراعاة كون المقصود من السياق: التخويف، وكان حذف جواب القسم في مثل هذه الأحوال أوقع في التخويف، وأبلغ لمقصود المتكلم من ذكره؛ قدّمنا القول بحذفه على القول الآخر، خصوصاً وأن الفاصل طويل بين القسم وجوابه إذا ما اعتمدنا الجواب قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ).

وكذلك: ما أشعر به قوله: (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ)، إذ أشعرت الآية بانتهاء القسم، وبلوغ المتكلم غايته منه، وهذا إنما يناسب كون الجواب محذوفاً مقدراً من قبلها، ولا يناسب كون الجواب بعدها!

This image shows a full page of white paper with horizontal dotted lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page, providing a guide for handwriting practice. There are no margins, text, or other markings on the page.

أمثلة للنظر والتدريب

- حاول الإجابة على ما يأتيك من أمثلة قرآنية قبل أن تقرأ الإجابة في الهوامش:
- ﴿قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ^ط وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ {البقرة ٢٥٢}، انظر بتأمل في الآية، وتنبه إلى مواضع الالتفات أولاً، وإذا فعلت ذلك حاول أن توجه الالتفات^{٢٤٨}.
- ﴿قوله تعالى على لسان الداعين الصادقين: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ {ال عمران ٩٠} ٢٤٩.
- ﴿قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ {الانعام ٩٩} ٢٥٠.
- ﴿قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَیَّةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ {يونس ٢٢} فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ {يونس ٢٥١}.

(٢٤٨) الالتفات في قول الله تعالى: (منهم من كلم الله)، وكان ضمير المتكلم هو الأسلوب في الجملة السابقة، وسيعود في الجملة اللاحقة: (فضلنا، وآتيناه، وأيدناه).

وقد قال الألوسي في روح المعاني توجيهها لاستعمال الالتفات هنا: "وفي إيراد الاسم الجليل بأسلوب الالتفات: تربية للمهابة، ورمز إلى ما بين التكليم والرفع وبين ما سبق من مطلق التفضيل وما لحق من إتياء البيئات والتأييد بروح القدس من التفاوت". ٢/٣.

(٢٤٩) في تفسير أبي السعود: "وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب الهائل...". ٤٤٢/١.

وانظر للمزيد: محمد فاضل السامرائي، مراعاة المقام في التعبير القرآني، ٦٤.

(٢٥٠) في روح المعاني: "والالتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله". ٢٣٧/٧.



إضافات الدراس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(٢٥١) جاء في البحر المحيط: "والذي يظهر والله أعلم أن حكمة الالتفات هنا هي أن قوله: (هو الذي يسيركم في البحر) خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين.

والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل، فحُسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكرت حاله آل الأمر في آخرها إلى أن المتلبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق؛ عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون مخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي". ١٣٨/٥، وانظر توجيهها آخر في روح المعاني، ٩٦/١١، وانظر في "مراعاة المقام في التعبير القرآني، للسامرائي، ٧٣ للمزيد من التوجيهات.



المبحث الخامس

التنكير والتعريف



باب كثير عروضه للمفسر أثناء تحليله للآيات، يكتنز الكثير من دقائق المعاني، وهو يفتقر إلى الكثير من الذائقة الحساسة عند النظر فيه، حاله حال غيره من أبواب علم المعاني؛ بل لعله أشدّ لخفائه!

وأحسب أنه يستلزم الكثير من التمرين ليصل الباحث القرآنيّ فيه إلى مستوى "التذوق" لأسراره، ومعرفة مدلولات استعماله.

ولنبداً باستعراض ما يتعلق بكل من هذين البابين: **التعريف والتنكير**.

التنكير

﴿النكرة: اسم يطلق على القليل والكثير، أو على المفرد أو على ما هو أكثر، ومعناه: شائع في جنس أو نوع أو صنف أو نحو ذلك، وهذا يصدق بالمشنى والجمع.﴾

وقيل:

النكرة هي: كل اسم وُضِعَ لا ليخصَّ واحداً بعينه من بين أفراد جنسه، بل ليصلح إطلاقه على كل واحد.

- فالشائع في أفراد دون تعيين مثل: رجل، امرأة، إنسان.
- والشائع في مثاني أو جموع دون تعيين مثل: رجلين، رجال، امرأتين، نساء.
- وما يطلق على القليل والكثير من الجنس أو النوع أو الصنف مثل: ماء، تراب، ريح^{٢٥٢}.

(٢٥٢) انظر: البلاغة العربية، الميداني، ١/ ٣٩٧.

﴿أسباب التنكير وأغراضه﴾:

قد ذكر البلاغيون أشهر الأغراض التي يفيدها التنكير؛ وهي إلى الحصر أقرب من أغراض التقديم والتأخير والحذف، فالتمثيل هناك هو الوجه، لكنّ الحصر في أغراض التنكير والتعريف أقرب، ولكنّ تكمن المهارة في هذا الباب في القدرة على التذوق؛ وهو أمر أسهل في البابين السابقين: التقديم والتأخير والحذف!

ولنذهب إلى ذكرها؛ مستشهدين بما تيسّر من أمثلة قرآنية:

الأوّل:

أن يقصد المتكلم إفادة معنى النكرة؛ النوعية أو الأفراد، وهذا هو الأصل في التنكير كما جاء في تعريف التنكير.

فإرادة الوحدة أو الأفراد نحو قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ {يس ١٠}.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ {الزمر ٢٩}.

• وإرادة النوع كقوله:

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ {الزمر ٦٩}، أي نوعٌ غريبٌ من الذِّكْرِ، ويجوز أن يُراد بالتنكير هنا

التعظيم، أي: ذكر وأيُّ ذكر هذا الذي جاءكم! وسيأتي المزيد.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ {البقرة ٧}، أي: نوعٌ غريبٌ من الغِشَاوَةِ لا يتعارفُهُ النَّاسُ؛ بِحَيْثُ

غَطَّى مَا لَا يُغْطِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْغِشَاوَاتِ، وَهِيَ التَّعَامِي عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ لِكُلِّ مَبْصُرٍ، ويجوز

كذلك أن يكون للتعظيم، أي غشاوة عظيمة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ {النور ٤٥}، أي كُلُّ نَوْعٍ مِّنْ أَنْوَاعِ الدَّوَابِّ مِّنْ نَّوْعٍ مِّنْ أَنْوَاعِ الْمَاءِ، وَكُلُّ فَرْدٍ مِّنْ أَفْرَادِ الدَّوَابِّ مِّنْ فَرْدٍ مِّنْ أَفْرَادِ النُّطْفِ.

الثاني:

أن يريد المتكلم بالتنكير التَّعْظِيمَ، مَعْنَى أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُعَيَّنَ وَيُعَرَّفَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ {البقرة ٢٧٩}، أَيِ بِحَرْبٍ وَأَيِّ حَرْبٍ! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ {البقرة ١٠١}، أَيِ عَذَابٍ عَظِيمٍ لَا يُوقَفُ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَهُوْلَهُ! ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ {الصافات ٥٦}، أَيِ سَلَامٌ عَظِيمٍ.

أنت ترى أن تذوق معنى "التعظيم" في هذه الأمثلة - وغيرها كثير في القرآن - يستلزم تأملاً يُعِينُكَ السياق على الوقوع عليه بوضوح.

الثالث:

التَّكْثِيرُ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن لَّنَا لِأَجْرًا﴾ {الاعراف ١٣}، أَيِ أَجْرًا وَافِرًا جَزِيلاً لِّيُقَابَلَ الْمَاجُورَ عَنْهُ مِنَ الْغَلْبَةِ عَلَى مِثْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يُقَابَلُ الْغَلْبَةَ عَلَيْهِ بِأَجْرٍ إِلَّا وَهُوَ عَدِيمُ النَّظِيرِ فِي الْكَثْرَةِ ٢٥٣. ﴿وَقَدْ أَفَادَ التَّكْثِيرُ وَالتَّعْظِيمَ مَعًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلُ﴾ {فاطر ٤١}، أَيِ: رُسُلٌ عِظَامٌ ذَوُو عَدَدٍ كَثِيرٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَقَعَ عَوْضًا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَحْزَنْ﴾ وَتَصَبَّرْ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْأَمْرِ وَتَكَاثُرِ الْعَدَدِ، وَهُوَ مَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ.

الرابع:

التَّحْقِيرُ أو التقليل، وأمثلة ذلك كثيرة، فمن أمثلة التحقير:

• قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ {عبس ١٨}، قال الزمخشري: أَيُّ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ مِهِينٍ، ثُمَّ بَيَّنَّهُ بقوله: ﴿مِنْ نَظْفٍ خَلَقَهُ﴾ ٢٥٤.

• وقوله تعالى في شأن المنكرين للبعث: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ {الجاثية ٣٢}.

فقولهم: (إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا) أَيُّ ظَنًّا ضعيفاً حقيراً لَا يُعْبَأُ بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ دِينًا، وَيَبْنُونَ عَلَى ذَلِكَ إِصْرَارَهُمْ عَلَى مَسْلَكِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ {النجم ٢٨}. ومثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ {يونس ٣٦}، أَي: إِلَّا ظَنًّا حقيراً لَا وَزْنَ لَهُ فِي مِيزَانِ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ الْمَطْلُوبِ.

• في قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ {النمل ٣٦}، فقد نَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَالَ: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ﴾، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِالتَّنْكِيرِ التَّحْقِيرَ، فَهُوَ مَالٌ حَقِيرٌ زَائِلٌ مَهْمَا بَلَغَ، فِي مُقَابِلِ الْعَقِيدَةِ الَّتِي نَحْمِلُ رِسَالَتَهَا!

أما التَّقْلِيلُ، فالفرق بينه وبين التحقير: أن التحقير في النوع، أما التقليل ففي العدد.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ {التوبة ٢٢} أي رضوان قليل من بحارِ رِضْوَانِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّاتِ، لأنَّ رضا المولى رأسُ كُلِّ سَعَادَةٍ، على طريقة قول الشاعر:
قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ ... قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ^{٢٥٥}

السادس:

قَصَدَ الْعُمُومَ بِأَن كَانَتْ النِّكَرَةُ فِي سِيَاقٍ:
• النَّفْيِ نَحْوُ: {لَا رَيْبَ فِيهِ}، {فَلَا رَفْثَ} {الآيَةُ}،
• أَوِ الشَّرْطِ، نَحْوُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ {التوبة ١٦}.
• أَوِ الْإِمْتِنَانِ، نَحْوُ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ {الفرقان ٢٤٨} {٢٥٦}.
وهذا الغرض محلُّ عناية الأصوليين، لما يترتب عليه من استنباط الأحكام.

أمثلة تدريجية، وملاحظة منهجية

إدراك هذه المعاني من التنكير والوقوف عليها: يستلزم نظراً طويلاً في السياق والقرائن؛ كما قال الزركشي: "هَذِهِ الْأُمُورُ إِنَّمَا تُعْلَمُ مِنَ الْقَرَائِنِ وَالسِّيَاقِ"^{٢٥٧}.
وقد تختلف الأنظار في تحديد الغرض من التنكير، وقد تعدد الأغراض حقاً وتتداخل، كلُّ ذلك يحسمه نظر المتدبر للنص المتأمل للسياق، وقد تكون بعض المواضع متداخلة إلى حد ما؛ ولناخذ ثلاثة أمثلة على ذلك:

(٢٥٥) انظر: البرهان للزركشي، ١/ ٩٠، وانظر كذلك: الإتيان للسيوطي، ٢/ ٣٤٠.

(٢٥٦) الإتيان، ٢/ ٣٤٠.

(٢٥٧) البرهان للزركشي، ١/ ٩١.

المثال الأول

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ {مريم ٤٥}

اختلفوا في دلالة التنكير في قوله: (عَذَابٌ) فيما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ هل غرض التنكير: التعظيم؟ فيكون إبراهيم أراد تخويف أبيه بمزيد من التهويل للعذاب المخوف من جهة الرحمن؟

أم ليس كذلك؛ ومراد إبراهيم: مزيد تلطّف في خطاب أبيه بتحقيق العذاب أو تقليله؟

فلنقف على السواء بين السكاكي والزخشي؛ كما جاء في البرهان:

"وَجَعَلَ مِنْهُ - أي من التعظيم -: السَّكَاكِيُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)، وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِ الزَّخْشَرِيِّ خِلَافُهُ، وَهَذَا لَمْ يَصْرَحْ بِأَنَّ الْعَذَابَ لَاحِقٌ بِهِ بَلْ قَالَ: {يَمَسُّكَ} وَذَكَرَ الْخَوْفَ وَذَكَرَ اسْمَ الرَّحْمَنِ، وَلَمْ يَقُلْ: الْمُتَّقِمُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ التَّعْظِيمَ" ٢٥٨.

السَّكَاكِيُّ اتَّكَأ - فيما أحسب - على ما هو مُعتاد في مثل هذه المواضع الزاجرة من التخويف، وهو ما يحصل مع تهويل العذاب وتعظيمه، فافترض أن التعظيم هو مقصود التنكير في قوله: "عذاب"!

في حين: أن الزخشيّ التفت التفاتةً أخرى راعى فيها قرائن واردة في السياق! ذلك واضح في قوله تعالى: (أَخَافُ)، و(يَمَسُّكَ)، وكلاهما فيه تلطّف، فالخوف ليس كالقطع، والمسُّ كذلك دون "الإصابة" أو "اللحاق" مثلاً، وكان يمكن أن يقال: إني أقطع أن يُصيبك عذاب، فعدّل عنه إلى ما عَرَفْتَ!



ثم اختار التعبير باسم الله: "الرَّحْمَنُ"، وهو من جانب توجيهٍ إلى رحمة الله العظيمة التي يتجلَّى بها على عباده، وهذه عبارة الزمخشري:

"ولم يخلُ ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحقٌ له وأن العذاب لاصقٌ به، ولكنه قال: أخاف أن يمَسَّكَ عذاب، فذكر الخوف والمسَّ ونكَّر العذاب" ^{٢٥٩}.

وفي البيضاوي كلام قريب، وفيه إشارة إلى معنى آخر لأجله كان التنكير، بالإضافة إلى فائدة أخرى أثرت إثباتها لروعتها:

"وذكر الخوف والمسَّ وتنكير العذاب: إما للمجاملة أو لخفاء العاقبة، ولعلَّ اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جنائياته لارتقاء همته في الربانية، أو لأنه ملاكها أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته منبه عليها" ^{٢٦٠}.

هذا النص؛ ولنبق مع ما نحن بصده: علَّل الإمام البيضاوي التنكير بأحد علتين:

الأولى: المجاملة، وهي ما ألح إليه الزمخشريُّ في كلامه، وسماه: حسن الأدب.

الثانية: خفاء العاقبة، وهذا ما ذكرناه أولاً في أغراض التنكير، وهو أصل الأغراض؛ وقد عبرنا عنه بقولنا: "إفادة معنى النكرة".

نعم؛ قد وافق الإمام أبو السعود السكاكِيُّ في أن التنكير أفاد التهويل والتعظيم، ووجه ما اعتبره الزمخشري والبيضاوي قرائن مجاملة وحسن أدب، فقال:

(٢٥٩) تفسير الزمخشري، ٣/ ١٨.

(٢٦٠) تفسير البيضاوي، ٤/ ١٢.



"تحذيرٌ من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان؛ وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده من العذاب الفظيع، وكلمة "من" متعلقة بمضمر وقع صفةً للعذاب، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، وإظهار "الرحمن" للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ {الانفطار ٦١} " ٢٦١.

والحاصل:

أنا رأينا هؤلاء الأئمة ينحون مناحي مختلفة في توجيه التنكير:

- فمن قائل: إنه أفاد التعظيم التهويل.
 - وآخر رأى أنه أفاد المجاملة وحسن الأدب.
 - وثالث رأى أنه ليس لإفادة التعظيم ولا لإفادة المجاملة؛ وإنما جاء التنكير لخفض العاقبة!
 - وكل ذلك كما رأيت معضوداً برؤية لدى المتذوق للنص، تابعة للزاوية التي ينظر منها المفسر إليه.
- فالملكة التفسيرية هنا هي الحاكمة على عمل المفسر أو المتدبر، المنتجة بعد النظر لتوجيهه للتنكير وبيان أسرارها.

المثال الثاني

﴿لَيَبْلُوتَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ {المائدة ٩٤}، نلاحظ تنكير: (بِشَيْءٍ)، والتنكير هنا محتمل لإفادة معنيين:



الأول: التحقير، بحيث يكون المقصود: تخفيف التكليف على المكلفين؛ كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {البقرة ١٨٣}، فقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لتسهيل الامتثال عليهم؛ فإن من عرّف أنه سبقه قوم في سلوك الطريق سهّل عليه السلوك، وكذلك قوله بعدها في السياق نفسه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ {البقرة ١٨٤}، وهذا تقليلٌ لهذه الأيام المفروض فيها الصيام تخفيفاً للفريضة على نفس المكلف! ومثل ذلك تنكير "شيء" في آية الصيد هنا؛ إذ هي للغرض نفسه، وهذا حاصل رأي الزمخشري رحمه الله ٢٦٢.

الثاني: أن لا يكون التحقير هو المقصود بالتنكير، وإنما "التنويح"، وهو من معاني التنكير الأساسية، كما جاءك في بداية الكلام عنه، إلى ذلك ذهب ابن عاشور رحمه الله في توجيهه في آية الصيد؛ فقال: "وتنكير 'بشيء' هُنَا لِلتَّنْوِيحِ لَا لِلتَّحْقِيرِ، خِلَافًا لِلزَّمْخَشَرِيِّ وَمَنْ تَابَعَهُ" ٢٦٣! ويكون المعنى: أننا سنبلوكم بأنواع من الصيد مختلفة متعددةٍ نمتحنُ بذلك إيمانكم!

وأنت ترى - أنار الله بصيرتك - أن أنظار المحققين تختلف زواياها، والمتأمل لا يستبعد أياً منها، ويراهها واردة محتملة، يحتملها السياق، وتتوارد على الخاطر أثناء التدبر، وإن كان يميل إلى بعضها الدارس أحياناً ويقوّيه بقرينة ما!

المثال الثالث

قول الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ {البقرة ٩٦}.

(٢٦٢) تفسير الزمخشري، ١/ ٢٧٧

(٢٦٣) التحرير والتنوير، ٧/ ٣٩.



قد لاحظ المفسرون تنكير قوله: (حياة)، ونبه على ذلك الكثيرون منهم، والتنكير هنا بالنظر إلى السياق يفيد التنويع، لكن بعضهم رأى في التنويع: التعظيم، وآخرون رأوا فيه التحقير، وإليك بسط الكلام:

الأول: أنه أراد نوعاً معيناً من الحياة، هو الحياة المتطاوله، وهذا التنكير يحمل معنى التعظيم بوجه ما، وإلى ذلك ذهب أكثرهم: فقد جاء في الكشف:

"فإن قلت: لم قال: على حياةٍ بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاوله" ^{٢٦٤}. وفي البضاوي:

"وتنكير حياة لأنه أريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاوله" ^{٢٦٥}.

ونصّ على ذلك آخرون، وقارنوا هذا الموضع بموضع آخر شبيه في العموم، ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ {البقرة ١٧٩}، ورأوا "أن تنكير "حياة" في الآية يفيد تعظيماً، فبدل على أن القصاص حياة متطاوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ {البقرة ٩٦}... ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء" ^{٢٦٦}.

الثاني: أن التنويع يحمل معنى التحقير، أي: أن هؤلاء اليهود الذين تتكلم الآية عنهم حريصون على الحياة؛ مهما كانت تلك الحياة حقيرة تافهة ذليلة!

(٢٦٤) تفسير الزمخشري، ١/ ١٦٦.

(٢٦٥) تفسير البضاوي، ١/ ٩٥.

(٢٦٦) البرهان للزركشي، ٣/ ٢٢٤، والإتقان، ٣/ ٨٨٦، وتفسير الوسيط، الطنطاوي، ١/ ٢٩٤.



وإليه ذهب مفسر تونس ومفتيها الطاهر بن عاشور:
 "وَنَكَّرَ (الْحَيَاةَ) قَصْداً لِلتَّنْوِيعِ، أَيَّ كَيْفَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ، وَتَقُولُ يَهُودُ تُؤْنَسُ - مَا مَعْنَاهُ-: «الْحَيَاةُ
 وَكَفَى»" ٢٦٧.

والمعنيان متداخلان إلى حدٍّ، كما ترى إذا تأملت!

التعريف

تعريف "المعرفة":

اسم يدلُّ على معيَّن مميّز عن سائر الأفراد أو الجموع المشاركة له في الصفات العامة المشتركة، مثل:
 "زيد" علماً لشخص معيّن، و"هؤلاء" اسماً يُشار به إلى جماعة معينة،
 وقيل:

المعرفة هي: الاسم الذي يدلُّ على مسمّى معيّن.

و قد ذكر النحويون أن المعارف سبعة أقسام، قالوا: وترتيبها بحسب الأعرافية ٢٦٨ كما يأتي:
 الأول: الضمير، مثل: أنا - أنت - أنتما - هو - هي - هما.
 الثاني: العلم، مثل: زيد - أبو بكر.
 الثالث: اسم الإشارة، مثل: هذا، هذه، أولئك.

(٢٦٧) التحرير والتنوير، ١ / ٦٧١.

(٢٦٨) روض البيان في إعجاز القرآن، فهد عبد الله الحزمي: "ثم إن المعارف والنكرات متفاوتة في مراتب التعريف
 والتنكير: فالأعراف منها التعريف بالضمير ثم العلم ثم التعريف باسم الإشارة ثم بالاسم الموصول ثم المعرف
 بـ"ال" ثم المعرف بالإضافة.

وأنكر النكرات: معلوم ثم شيء ثم جسم ثم حيوان ثم إنسان ثم رجل. ص ٧.



الرابع: اسم الموصول، مثل: الذي جاءني- التي تزوجتها.
الخامس: المحلّ بأل، مثل: الرجل، المرأة، المؤمن، النساء.
السادس: المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة، مثل: زوجة سعيد، غلام هذا، كتاب الرجل، وما يُضاف إلى ضمير، مثل: يدي، رأسه، قلمك.
السابع: النكرة المقصودة في النداء، مثل: يا رجل، تخاطب رجلاً بعينه^{٢٦٩}.

وسنأتي على بيان أغراض التعريف ببعضها الذي تشتدُّ حاجة المفسّر إليه، ونترك الأخرى لتعالجها المطوّلات.

أولاً: التعريف بالضمير

وأهمه فيما نحن بصده: ضمير الخطاب، قال البلاغيون:
"الأصل في ضمير الخطاب أن يكون لمعيّن؛ تقول: إن زرتني أكرمتك، تريد مخاطباً معيّناً، وقد يُراد بالخطاب العموم، فيكون موجهاً إلى كلّ من يتأتى منه الخطاب.

• وهذا يُفيد الأسلوب مزّيّة؛ من حيث يُشعرُ هذا العموم بأن الأمر جديرٌ بأن يكون ذائعاً، وأنه لا يختصُّ بمخاطب دون مخاطب، تقول في حال التشهير بالعيب واللؤم: فلان لئيم، إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك، لا تريد مخاطباً معيّناً، بل تريد: إن أكرمه أيُّ كريم أو أحسن إليه أيُّ محسن قابل ذلك بالإساءة.

وهذا كما ترى أدخل في باب التشهير والعيب ووصفه بلؤم النفس وفساد الطبع، قال الخطيب: أي أن سوء معاملته غر مخصصة بواحد دون واحد"، وقد تجد هذا الأسلوب وارداً في سياق الثناء والتنويه.



وقد ذكر البلاغيون من شواهد هذه الخصوصية، أعني عموم الخطاب: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ {السجدة ١٣}، المراد بالخطاب هنا كل من تتأتى منه الرؤية، وذلك للإشارة إلى أن هذه الصورة المتناهية في الفضاة تنامت أيضاً في الظهور، فلا تختص بها رؤية راء؛ بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب، وفيه إشارة أيضاً إلى الرغبة في تعميق هذه الصورة الفظيعة المنكرة في وجدان كل راء لتكون زجراً بليغاً للناس جميعاً، وعليك أن تجتهد في أن تُقيم نفسك في هذا الموقف كما تصفه الآية .. المجرمون في كل جيل من أجيال البشرية مجتمعون جميعاً، وقد وقفوا ناكسي رؤوسهم خضوعاً وذلاً في حضرة ذي الجبروت الذي عاشوا يتبجحون بإنكاره" ٢٧٠.

ثانياً: التعريف بالصلة:

التعريف بالصلة تكثر إشاراته وفوائده، والمقصود بالتعريف بالصلة: أن تأتي لتعريف المخاطب باسم من الأسماء الموصولة، والأسماء الموصولة معروفة؛ كالذي والتي والذين والواتي والذان واللتان، وهذه تسمى في كتب المتقدمين: "الصلة".

ويعبر المفسرون واللغويون عن الجملة التالية لها بـ "ما في حيز الصلة"، فقله مثلاً: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ {الهمزة ١} يمكن أن تقول فيه: "الذي": صلة، أو اسم موصول. "جمع مالا وعدده": هذا ما في حيز الصلة.

هذا، وتقرأ - أيها الممارس لكتب التفسير - هذه العبارة كثيراً في التفاسير التي تُعنى بالبلاغة؛ خصوصاً تفسير العلامة أبي السعود.

قاعدة التعريف بالصلة

وينبغي عند التعريف بالصلة مراعاة أن تكون معلومة للمخاطب؛ لأنها وسيلة تعريف، فيلزم أن تكون معروفة، كقولك: الذي كان عندنا أمس رجل عالم، فإنه يلزم أن يكون المخاطب عالماً بهذه الصلة أو بقصتها كما قالوا، بحيث يكون عالماً بالرجل الذي كان عندنا؛ بأن رآه أو عَرَفَ به بطريقة ما.

معاني يفيدها التعريف بالصلة معاني:

١ - الإشارة إلى تقرير الغرض الذي سيق الكلام لأجله، ومن أمثلة ذلك:

• في قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ {يوسف ١٣}، والغرض المسوق له الكلام هو تقرير نزاهة سيدنا يوسف عليه السلام، وذكر امرأة العزيز بهذه الصلة المشيرة إلى كونه في بيتها مما يقرر هذا الغرض!

فقد راودته امرأة هو في بيتها، وهي متمكنة منه في كل أوقاته من ليل أو نهار؛ تلح وتراود، لكنه عليه السلام استعصم، وهذه غاية النزاهة عن الفحشاء، ولو قال: وراودته زليخا أو امرأة العزيز لم تجد شيئاً من تلك المعاني!

• وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {يونس ١٠٤}، وقوله: (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ) تعريف بالاسم الموصول؛ وما في حيز الصلة قوله:



تخدم غرض الآية الذي هو إفراد الله تعالى بالألوهية؛ فإن الذي يَقْدِرُ على أن يَتَوَقَّى الأنفسَ جديرٌ بأن يُعْبَدَ، هذا مقصودُ السياق^{٢٧١}، فما دام يفعل ذلك وكان المصير إذ ذاك إليه فحريُّ بالعبد أن يقرَّ له دون سواه بالألوهية واستحقاق التوجه إليه بالعبادة.

٢- وقد يكون التعريف بالصلة مشيراً إلى الخبر مهدداً لذكره معللاً له، ومن الأمثلة على ذلك:
• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ {غافر ٦٠}، فقوله: (الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)، يُشير إلى الخبر، ويتوقعه القارئ الفطن، من حيث إن الاستكبار عن عبادة الله مؤدٌّ ولا شك إلى نكال وعذاب يحقُّ بذلك المستكبر عن عبادة الله تعالى؛ فصارت الصلة كالممهدة للخبر القادم ذكره.

ومن جهة أخرى:

فإن تعريفهم بأنهم الذين يستكبرون عن عبادته سبحانه يعلّل للقارئ دخولهم جهنم داخرين، ويبيّن سببه بوضوح.
وفيه إشارة إضافية أخرى؛ تلك هي التعميم، وإنزال ترتب العذاب على الاستكبار كقاعدة في كل صورة مشابهة!

• ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ {الأنبياء ١٦}، ومثله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ {الاعراف ٩٣}، وقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ {النور ١١}.

وأمثله كثيرة في كتاب الله؛ حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيئ النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به، وهذا لعمرك فنُّ من الكلام جزل دقيق، لا يهتدي إليه إلا فطن محدث^{٢٧٢}.

(٢٧١) انظر: خصائص التركيب، ١٩٥.

(٢٧٢) خصائص التركيب، محمد أبو موسى، ١٩٩.



٣- وقد تفيد الصلة معنى التفخيم والتهويل لما فيها من إبهام وغموض، ومن ذلك:
• قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ﴾ {طه ٧٨}، فالصلة تُفيد أن الذي غشيهم أمر مبهم أمره في الهول والشدة، وكأن اللغة لا تحيط به وصفاً، والذهن لا يدركه تخيلاً، فليُكتَفَ إذاً في التعبير عنه بمثل هذا الموصول المُوغِّل في الإبهام، ولتقف الكلمات عند هذا الحد، وكأنه لا مزيد عليه!

• ومنه قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ {النجم ١٦}، والمعنى: أنه تغشّاها أمور عظيمة مبهم أمرها في الجلال والكثرة، قال الزمخشري:
"وقد عُلِمَ بهذه العبارة أن ما يغشّاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يكتنفها النعت ولا يُحيط بها الوصف" ٢٧٣.

فائدة إضافية في مثل هذه التعبيرات:

من فوائد استعمال الاسم الموصول "ما" في مثل هذه التعبيرات: تشويق المستمع، ذلك أن الإبهام يستثيره لمعرفة المُبْهَم والوقوف على تفاصيله، فيتحرّك الذهن مزيد تحرّك، ويتجول في أنحاء المقصود من السياق!

قال العلوي:

"إن النفس إذا وقعت على كلام غير تامّ بالمقصود منه تشوّقت إلى كماله، فلو وقعت على تمام المقصود منه لم يبق لها هناك تشوّق أصلاً؛ لأنّ تحصيل الحاصل محال، وإن لم تقف على شيء منه فلا شوق لها هناك، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض فإن القدر المعلوم يُحدث شوقاً إلى ما ليس بمعلوم" ٢٧٤.

(٢٧٣) تفسير الزمخشري، ٤/ ٤٢١

(٢٧٤) نقلاً عن خصائص التركيب، ١٩٩.



٤- ومن المعاني التي يدل عليها التعريف بالاسم الموصول: كَرَاهَةُ ذِكْرِهِ بِخَاصِّ اسْمِهِ؛ إِمَّا سِتْرًا عَلَيْهِ أَوْ إِهَانَةً لَهُ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَيُؤْتَى بِالَّذِي وَنَحْوَهَا مَوْصُولَةً بِمَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ، وأمثلة ذلك من كلامنا كثير، لكننا اشترطنا أن يكون التمثيل بها في التنزيل:

• قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُهُ أَفٍّ لَكُمْ﴾ {الاحقاف ٧٧}، كان يمكن أن يعرف بالعلمية، فيقال: فلان، لكنه عدل عن التصريح باسمه إلى تعريفه بالموصول وما في حيزه إهانة له، وإعراضاً عن ذكر اسمه، وتسجيلاً عليه بقبيح الفعل الذي لازمه حتى صار معرفاً به، وكذلك: لعدم حصول فائدة في النص على اسمه.

• وقوله سبحانه: (وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا)، فقد عبر عن امرأة العزيز بـ "الذي هو في بيتها"، وهذا وإن كان لتقرير غرض السياق؛ الذي هو بيان كمال نزاهته وتام ثباته أمام الفتنة؛ كما مر قبل قليل؛ فإن فيه سترًا على المرأة بالإعراض عن ذكر اسمها؛ خصوصاً وأنها قد تابت من بعد، كما يدل عليه ظاهر التنزيل.

ثالثاً: التعريف باسم الإشارة

الكلام في التعريف بالإشارة يسوقنا للوقوف أمام مسألتين مهمتين:

الأولى: ما دلالة استعمال اسم الإشارة؟

الثانية: ما دلالة استعمال اسم الإشارة المعين؟ اسم الإشارة المستعمل للبعيد أو ذاك المستعمل للقريب؟

يحسن بالمفسر أن يقف وقفين إذاً أمام التعريف القرآني باسم الإشارة؛ باحثاً عن بلاغة استعماله!

ولنتناول المسألة الأولى، ولتتبعها بالثانية من بعد:

المسألة الأولى:

دلالات استعمال اسم الإشارة:

يمكننا أن نجمل أهم دلالات استعمال أسماء الإشارة في الكلام البليغ بما يأتي، وسيقترن هذا الذكر هنا بالتمثيل الذي تحصل به الكفاية إن شاء الله.

أولاً: الدلالة الأصلية التي يفيدها التعريف باسم الإشارة: تمييز المشار إليه أكمل تمييز، فاسم الإشارة بطبيعة دلالاته يحدد المراد منه تحديداً ظاهراً ويميزه تمييزاً كاشفاً، وهذا التحديد قد يكون مهماً للمتكلم لأنه حين يكون معنياً بالحكم على المسند إليه بخبر ما؛ فإن تمييز المسند إليه تمييزاً واضحاً يمنح الخبر مزيداً من القوة والتقير، وتمييز المسند إليه باسم الإشارة ليتقرر الحكم له؛ من الأساليب الشائعة في الكتاب العزيز، والاستشهاد على ذلك تكلف لقوة ظهوره، ولكننا نذكر بعض الصور ليُهتدى بها إلى غيرها:

• تأمل هذا المثال الذي حلق في بيانه أستاذ البيان الدكتور محمد أبو موسى، ذلك في قول الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ {النور ١٢}، قال: "هذا"، ولم يقل: "هو"، ليبرزه ويحدده، فيقع الحكم عليه بأنه: "إفكٌ مبين"!

• بعد هذا التمييز والتجسيد، وفي ذلك قدر كبير من قوة الحكم وصدق اليقين من أنه إفك مبين، يتكرر هذا الأسلوب بلهجته اللائمة، ويأتي قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ {النور ١٦}، فتأتي الإشارة في المرة الثانية لتجسد الحديث الدائر، ويتكرر الإخبار عنه بأنه بهتان عظيم، وقوله: (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا)



تجد اسم الإشارة فيه لا يغني غناه أن يقول: ما يكون لنا أن نتكلم به، لأن في الإشارة معنى أنه لا ينبغي لنا أن نتكلم به؛ وإن أذاعه المرجفون وأصبح حديثاً ظاهراً معلناً لأن قوة إشاعته لا تغير أنه باطل بين^{٢٧٥}.

• وتأمل قول الله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ {القمان ١١}، فإنه قد جاء بعد جولة فسيحة؛ لكنها خاطفة في أهم المظاهر الكونية: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ {القمان ١١}، ثم لما قال ذلك قال: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ)، فكأنه يحضره ليضعه أمام حس السامع يراه وينظر إليه على اتساعه وتنوعه وحيويته، وعبرة السيوطي في بيان سر استعمال الإشارة:

"وبالإشارة - يقصد أنه يعرف باسم الإشارة كما في الآية - : لتمييزه أكمل تمييز؛ بإحضاره في ذهن السامع حساً نحو: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)^{٢٧٦}.

• وقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {١٢٢} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {المؤمنون}: تجد اسم الإشارة يميز في الأولى الذين ثقلت موازينهم ليتقرر الحكم عليهم بأنهم مفلحون، وفي الثانية يميز الذين خفت موازينهم ليتقرر الحكم عليهم بأنهم خسروا أنفسهم، أي أن ذكره باسم الإشارة ليتقرر الحكم عليه لما في الإشارة من التمييز والوضوح^{٢٧٧}.

(٢٧٥) خصائص التركيب، ٢٠٠.

(٢٧٦) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ٣٤٩.

(٢٧٧) خصائص التركيب، ٢٠١.



ثانياً: ظهر لك من النقطة السابقة أن اسم الإشارة موضوع لاستعماله للإشارة إلى ما هو غاية في الوضوح والتمييز، وهذا البدهي؛ من حيث إنك لا تُشير إلا إلى شيء متميز متحيز تراه عينك وتُشير إليه بيدك لتلفت نظر المخاطب إليه، فالمُشار إليه - في الأصل - شيء محسوس، لكنه قد يُشار به أحياناً إلى غير المحسوس، ذلك أنه قد يعظم المعنى في نفس المتكلم حتى يُحِيل إليه أنه صار شيئاً محسوساً يُشار إليه، فيدلُّ عليه باسم الإشارة، فكأن في ذلك تجسيداً لغير المحسوس، أو تصويراً لغير المحسوس في صورة المحسوس، وهذا فيه مزية زائدة تُثري الكلام وتزيد مستوى تفاعل السامع، ومن أمثلة ذلك:

• قوله تعالى في بيان مقولة منكري البعث: ﴿قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ {المؤمنون}، أشاروا إلى البعث؛ وهو أمر معنوي - كما ترى - بقولهم: (لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ)، فأفادوا بذلك أن القول بالبعث مما هو شائع في أجيالنا شيعواً كأنه به محدد منظور، ومع ذلك فنحن نرفضه كما رفضه آباؤنا، فكأنهم يوهمون بذلك أن رفضهم كان بعد بحثه والنظر فيه، وتأمل قولهم بعد ذلك: (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، تجد أنهم ميّزوه وأبرزوه مرة ثانية في صورة محسوسة ليتقرّر الحكم عليه في زعمهم أنه أساطير الأولين، ثم إن هذا الحكم بأنه أساطير الأولين كان كأنه نتيجة بحث ونظر^{٢٧٨}.

• وخذ قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ {النور}، فالإشارة تُفيد أن تقليب الليل والنهار عبرة واضحة شاخصة، والبعد يفيد أنها مع وضوحها لا تهتدي بها ولا تعرج إليها إلا النفوس المهيأة لوعي آيات الله في كونه، الإشارة إذن تضع آيات الله



الكبرى في المنظور الحسي ثم تستحثُّ وعي الإنسان ليستشرفها، وهذا لا يخطئك في كثير من الآيات الكريمة^{٢٧٩}.

ثالثاً: ومن أشهر الأغراض التي يذكرها البلاغيون للتعريف باسم الإشارة هو أن تذكر أوصافاً عديدة للشيء ثم تذكره باسم الإشارة جاعلاً ما يترتب على تلك الأوصاف مسنداً إلى هذا الاسم، واسم الإشارة هذا يفيد أن ما يردُّ بعده فالشار إليه جديرٌ به.

• اقرأ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ {البقرة ٢٧} تجد أن الآية الكريمة ذكرت هؤلاء القوم وعددت بعض أوصافهم التي تجعلهم أهلاً للخبر الوارد بعد اسم الإشارة؛ فهم ينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ومن هذه أوصافه جديرٌ بأن يكون من الخاسرين.

• ومثله قوله تعالى في أوصاف المتقين: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {البقرة}، وصفهم بالإيمان بالغيب؛ وهذه أعلى مراتب الإيمان، ثم وصفهم بأنهم يحفظون حق الله فيقيمون الصلاة، كما يحفظون حقوق الفقراء فيؤتون الزكاة، ثم وصفهم بأصالة الخير في معادهم فهم يؤمنون بما أنزل على الأنبياء، وهكذا رشحتهم هذه الأوصاف وجعلتهم أهلاً للفلاح الواقع بعد اسم الإشارة^{٢٨٠}.

(٢٧٩) خصائص التركيب، ٢٠٥.

(٢٨٠) خصائص التركيب، ٢٠٦.



رابعاً: ومن المزايا البارزة لأسماء الإشارة أنها تُعين المتكلم على التركيز والإيجاز وتفادي التكرار الذي تترهّل به الأساليب ويتثاقل به وثوبها إلى القلوب، فقد تجد الباحث يعرض المسألة بتفاصيلها ثم يحتاج إلى إضافة قيد أو ما يُشبهه مما يعوزه إلى الإعادة، وحينئذ تُسغه أسماء الإشارة فيسلك سبيلاً غير سبيل التكرار.

ثم إن هذه الطريقة تكثر في كتاب الله، وقد تجد اسم الإشارة في بعض الآيات يلخص ويطوي صفحة كاملة من الأوامر والنواهي بل أكثر من صفحة، ولنعرض مثالين ^{٢٨١}:

• اقرأ قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ واستمر في القراءة حتى آية رقم: ٣٩، تجد فيها: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، واسم الإشارة فيها يعود على المذكور ويطوي هذه الأوامر والنواهي الواقعة بين الآيتين، وهي كثيرة جداً، ويهيء الكلام لوصف تلك الآداب بأنها من الحكمة، في أسلوب موجز كما ترى، ولولا اسم الإشارة وما تميّز به من شمول الدلالة لما أُتيح للأسلوب هذا الإيجاز والتركيز.

• وانظر إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَنَا ضَيْقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥ {الفرقان}.

وصف ما أعده للكافرين وصفاً بلغ الغاية في جمال الإشارة والوحي بالمراد، قال في جهنم: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا)، فطوى وراء هذه الصورة الكثير من المعاني، ثم قال في الأخرى: إنهم يُلقون فيها مكاناً ضيقاً مقرنين، فعرض العذاب والمعذبين في أهول ما



ترى العين، ثم جاء قوله: (قُلْ أَذَلِّكَ خَيْرٌ)، فأحضر الصورة كلها مرة ثانية وجسدها لتكون في مقابلة الصورة الثانية؛ صورة الخلد الذي وعد المتقون، اسم الإشارة هنا أعان على الإعادة في كلمة موجزة أبرزت هذه الأحوال وكأنها أحضرها من غيب المستقبل البعيد.

المسألة الثانية:

ويبقى بعد الكلام عن دلالة استعمال اسم الإشارة: البحث عن سر استعمال نوع معين من تلك الأسماء للتعريف بها! وبين يدي ذلك يحسن تذكيرك بأنواع أسماء الإشارة:

تذكير بأنواع أسماء الإشارة، والغرض منها:

• تعلمنا في كتب اللغة أن أسماء الإشارة منها ما يُستعمل للإشارة للبعيد، ومنها ما يُستعمل للإشارة إلى القريب:

﴿فأهم أسماء الإشارة للقريب: هذا، هذه، هؤلاء.﴾

﴿وأهم أسماء الإشارة للبعيد: ذلك، تلك، أولئك.﴾

• والأصل في استعمال اسم الإشارة للبعيد أو للقريب: أن يكون البعد أو القرب مكانياً، فالمشار إليه القريب مكانياً: تستعمل أسماء الإشارة للقريب لتعريفه والإشارة إليه، والمُشار إليه البعيد مكانياً: تُستعمل أسماء الإشارة للبعيد لتعريفه والإشارة إليه.

لكننا رأينا العرب تستعمل أسماء الإشارة في غير القرب والبعد الحقيقيين، فقد استعملوها في القرب والبعد المجازيين:

﴿فاسم الإشارة للقريب؛ قد يستعمل في الدلالة على القرب من القلوب مثلاً!﴾



بسم واسم الإشارة للبعيد قد يستعمل في الدلالة على سمو منزلة المشار إليه وارتفاعها؛ بحيث صار يُشار إليها باسم إشارة موضوع للإشارة به للبعيد، أو في الدلالة على بُعد في الضلالة؛ بحيث إنه قد أعمق فيها وأغرق وصار بعيداً، وإذا كان كذلك فقد ناسبه استعمال اسم الإشارة للبعيد!

والأمثلة كثيرة جداً في هذا المعنى، ولتناول بعضها، ولنتبّع فيض الدلالة خطوة خطوة في المثال الأول:

• قول الله تعالى: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة﴾، حيث نلاحظ أن الآية صُدّرت بالإشارة إلى الكتاب باسم الإشارة: "ذلك"، وهو اسم إشارة للبعيد، والبُعد هنا حتماً ليس بُعداً مكانياً!

نعم؛ يمكنك أن تُشير إلى كتاب بعيد عنك، فتقول لأخيك: أحضر ذلك الكتاب، تقصد البعيد، والبعُد هنا مكانيٌّ؛ بُعدٌ حقيقيٌّ!

لكن الآية لا تتكلم عن كتاب بعيد كما هو في المثال أعلاه، فيبقى أن يُقال: إنه بُعدٌ مجازيٌّ! ولما كان السياق سياق مدح للكتاب وتعظيم له حُسْن أن نقول: إن استعمال اسم الإشارة للبعيد للدلالة على سمو ذلك الكتاب وارتفاع منزلته؛ بحيث صار يُشار إليه كما يُشار إلى البعيد!

ومثلها تماماً الآية الخاتمة للمقطع الأول من سورة البقرة، ذلك أن المقطع بدأ بعد الحروف المقطّعة بالتنويه بشأن الكتاب وبيان علوّ منزلته، وتدفع الكلام منه إلى الكلام عن المهتدين به العاملين بما فيه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾.



ويمكن هنا للمتدبر أن يقف على رأس ثلاث مسائل:

- ﴿ ما دلالة استعمال اسم الإشارة؟
- ﴿ ما دلالة اختيار اسم الإشارة للبعيد؟
- ﴿ ما دلالة تكرار اسم الإشارة مرة أخرى؟

• أما دلالة استعمال اسم الإشارة؛ فنقول: إنه لما أراد أن يميّزهم تمام التمييز، ويعلن أنهم صاروا- وقد اتصفوا بهذه الصفات العظيمة- جماعة متميزة لا تلتبس بغيرها؛ لما أراد ذلك المعنى عرفهم باسم الإشارة!

• وأما اختيار اسم الإشارة للبعيد؛ فنقول: إنهم- وقد اتصفوا بهذه الصفات القرآنية- سمّوا وارتفعت منزلتهم، فكأنها صاروا في مكانٍ سامٍ بعيد؛ يُناسبُ الإشارة إليهم بما يُستعمل للإشارة للبعيد!

• وأما تكرار اسم الإشارة مرة أخرى؛ وكان يمكن أن يُكتفى بالأول فيقال: "أولئك على هدى من ربهم وهم المفلحون"؛ فلتأكيد الإسناد وتقوية الحكم عليهم بالفلاح! الآن؛ لتذوّق ما قلت لك: عدّ لقراءة الآية مرة أخرى، وقارن قوة الحكم عليهم بالفلاح ما بين التركيب القرآني، والتركيب المفترض الذي خلا من "أولئك" الثانية!

هذا؛ ومن جهة أخرى نرى أن تكرارها قد أكّد تميّزهم؛ بحيث صار يشار إليهم باسم إشارة، وأكّد كذلك سموهم وارتفاع منزلتهم بما حمّله اسم الإشارة من معنى البعد! والخاص: أنه قد تأكّدت كل المعاني التي حمّلها الاستعمال الأول لاسم الإشارة!

مثال تدريبي للمناقشة والمداينة

عرفنا أن مقصود السياق هو المحدد الأول الذي يتكئ عليه المتدبر في فهم دلالة استعمال اسم الإشارة، وسهل عليه في أكثر الأحيان أن يدرك ذلك بما يشبه البديهة اللغوية، والسيق يكاد يمسك بيدك ليسلمك الدلالة من غير مشقة تذكر؛ ولتنظر إلى هذا المثال:

• قول الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ {الاعراف}، نرى اسم الإشارة هنا تكرر في الجانبين: في إسناد الفلاح إلى الذين ثقلت موازينهم، وفي إسناد الخسارة إلى الذين خفت موازينهم!

والوجه أن نقول:

إنه استعمل اسم الإشارة لبيان كمال تميز كل طائفة من الطائفتين، فمن ثقلت موازينهم جماعة واضحة يصلح أن تشير إليها باسم الإشارة كأنها مشخصة أمامك، وكأنك تنظر إليها! وإنما اختار اسم الإشارة المخصص للبعيد في الذين ثقلت موازينهم ليدل على علو مرتبتهم، وسمو منزلتهم، وارتقائهم في مدارج الفلاح!

ولما استعمله في الذين خفت موازينهم أراد الإشارة - والله أعلم بمراده - إلى ما وصل إليه أولئك في دركات الخسارة، ومتاهات الضلالة الموعلة في البعد!

والقاعدة إذن:

أن السياق هو الحاكم على دلالة اختيار اسم الإشارة للقريب أو للبعيد، وفهم القارئ البليغ المرتاض على معالجة النصوص البليغة هو العنصر الرئيس في تذوق المعنى الناتج عن ذلك الاستعمال، ولنقرأ تعبير شيخ البلاغيين المعاصرين الدكتور محمد أبو موسى يحصل لنا هذا المبحث:

"وهذا يجعلنا نقف قليلاً لنقول: إن معنى البعد والقرب الكامن في أسماء الإشارة معنى طيِّع خاضع لسياق الكلام؛ ما دام الذي يصوغ الأسلوب من ذوي البصر في رياضة التراكيب، نجد البعد يعطي ألواناً متعددة، وكذلك القرب" ٢٨٢.

ملاحظة ينبغي التنبه إليها أثناء التأمل:

اسم الإشارة قد يفيد أكثر من معنى في السياق الواحد، وقد يصلح بعض ما قدمناه من أمثلة شاهداً لأمر غير الذي سُقناه فيه، خذ لذلك مثالين كذلك:

• قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ {الاسراء ٣٩}؛ تجد اسم الإشارة حدد المسند إليه وميزه ليوقع الحكم عليه بعد توضيحه وإبرازه، وفي ذلك قدر من قوة الحكم والعناية به لما قلنا، وتجد في البعد معنى الرفعة، وأنها آداب سامية تتألق في معارج الحكمة، وتجد الإشارة صورت المعنوي في صورة محسوسة.

• وخذ قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ {٥٠} إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ {النور}، تجد اسم الإشارة يتردد فيه ثلاث مرات، وهو في كل واحدة



منها يفيد تمييز المسند إليه أكمل تمييز لمزيد العناية بالحكم الواقع بعده، ثم هو في كل واحدة منها يفيد أن المذكور لاتصافه بالأوصاف السابقة جدير بما يقع بعده، والإضراب في قوله: (بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ناظر إلى ما بعد همزة الاستفهام في قوله: (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، وهذا واضح.

وكذلك تجد معنى البعد في الأولى يومئ إلى ما لا تجده في الآخرين، فقد ذكرت الآية الأولى الملامح العامة للنفسية الجاحدة، وأبرزها: رفض أن يكون الحكم في الأرض لله ورسوله، ثم هم يتناقضون مع هذا الرفض ويأتون مدعين إذا كان لهم في ذلك أرب، فهم يقبلون حكم الله عند المنفعة الذاتية فقط، والأصل عندهم هو رفضهما، وهذا محور المعنى في الآية الأولى، ومن هذا حاله فهو جدير بأن يُحكم عليه بأنه ظالم، والبعد يومئ إلى بعده عن ساحة الحق والعدل.

والآية الثانية تقرر الصفة البارزة في الفئة المؤمنة، وهي نقيض الصفة البارزة في الفئة الجاحدة، فإذا كان هناك رفض أن يكون الحكم لله، فالملمح البارز هنا ليس هو تقرير حكومة الله فحسب، وإنما هو الانقياد الطائع لها، فهم لهذا جديرون بوصف الفلاح لأنهم أفلحوا في الانتفاع بوجودهم المملوك لله، وأصابوا في تحديد موقف المخلوق من الخالق وهو السمع والطاعة، واسم الإشارة يومئ إلى سمو إدراكهم ورفع منزلتهم عند الله، وهكذا يُقال في الثالث ^{٢٨٣}.

رابعاً: التعريف بـ "ال"

التعريف بـ "ال" أشهر من التعريف بغيرها، وهو الذي يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق مصطلح "التعريف"!

و"ال" هذه أنواع عدة، ويحمل التعريف بها بعض الدلالات الإضافية؛ شأنها شأن بقية ما يُستعمل في اللغة للتعريف؛ وإن كانت الفوائد المتعلقة بالتعريف بها ليست في الغزارة كالفوائد المتعلقة



بغيرها، ولعل ذلك يعود إلى أن التعريف بها أصيلٌ في الدلالة على مُجَرَّدِ التَّعْرِيفِ، لكنَّ الإحاطة بها تُثْري العملَ التفسيرِي، وتزيِّن حديثَ المفسر بالفوائد المتناثرة، فلتتعرَّف على أنواع هذه الأداة من أدوات التعريف:

النوع الأول: "ال" العهدية، ومعناها يتضح بيان أنواعها ^{٢٨٤}:
أ. العهد الذِّكْرِي: الإِشَارَةُ فيه إِلَى مَعْهُودٍ سبق ذكره في النص.
• إما بلفظه، وأشهر أمثلته:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ {المزمل}، فـ "الرسول" في قوله سبحانه: (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) هو المقصود في قوله: (كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)، فالرسول الذي عصاه فرعون هو نفسه الذي أرسله الله إليه!

• وإما بمعناه دون لفظه، وفي هذا فوائد لطيفة، ومن أمثلته:
﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ {البقرة ١٣}﴾ لَا يَتَّبِعُهُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ آمَنُوا سُفَهَاءَ، فلما نقفون قائلهم الله أرادوا المبالغة في وصف المؤمنين بالسفاهة، فأقاموا وصفهم إياهم بها مقام ذكر ذواتهم! فلم يقولوا: أنؤمن كما آمن الناس؟! كما لقنهم القائل لهم، بل قالوا: (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ)!

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾﴾ {ال عمران ٣٥}، إن حملناه على أنه من تعقيب الله على كلام مريم عليها السلام، وهو الذي أستظهره، فيكون المعنى: أن الذَّكَرُ الَّذِي طَلَبَتْهُ لَيْسَ كَالْأُنْثَىٰ الَّتِي وَهَبَهَا!



وَأِنَّمَا جَعَلَ هَذَا لِمَعْنَى الذِّكْرِ دُونَ لَفْظِهِ لَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهَا: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ {ال عمران ٣٥}، والمفترض كما في ذهنها وفي عادة أهل الزمان: أن الذي يُنذر لخدمة البيت الذكور دون الإناث، وأما الأنثى فهي واردة باللفظ في قوله تعالى على لسانها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ {ال عمران ٣٦}.

النوع الثاني: المعهود الذهني، أي الذي في ذهن مخاطبك، ولم يرد ذكره لا بلفظه ولا بمعناه، ومثاله:

- قوله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ {التوبة ٢٥}، ومفهوم في ذهن المخاطب أن المقصود: رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
- قول الله سبحانه: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ {الفتح ١٨}، والمفهوم في أذهان المخاطبين أن المقصود صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيعة الرضوان.

و قد يكون العهد حضورياً، بمعنى أنك تشير بالاسم المعروف إلى حاضر، نحو:

• قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ {المائدة ٣} فَإِنَّمَا نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، والمقصود بـ "اليوم" في الآية هو يوم عرفة الذي نزلت فيه الآية كما هو معروف في تفسيرها.

النوع الثالث: الجنس، وهي فيه على أقسام:

• أحدها: أن يقصد المبالغة في الخبر فيقصر جنس المعنى على المخبر عنه، نحو: زَيْدُ الرَّجُلِ؛ أي الكامل في الرجولية.

• وثانيها: أن يقصره على وجه الحقيقة لا المبالغة، ويسمى تعريف الماهية، نحو: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ {الانعام ٨٩}، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ {الانبيا ٣٠} أي جَعَلْنَا مُبْتَدَأَ كُلِّ حَيٍّ هَذَا الْجِنْسَ الَّذِي هُوَ الْمَاءُ.



وهذان داخلان في مبحث من مباحث علم المعاني الرئيسة، وهو مبحث "القصر"، حيث يقسم البلاغيون القصر إلى نوعين: قصر حقيقي؛ كما هو الثاني، وقصر إضافي أو مجازي؛ كما هو الأول، وهذا مبحث طويل مستقل، وهو مفيد للمفسر، لكنني اخترت عدم التطويل بذكره، فاكثفت بالأهم في هذا الكتاب، وإن كان هناك مهم سواه.

• **وثالثها:** "ال" الاستغرافية، وتُعرفُ بِأَنَّهَا الَّتِي إِذَا نُزِعَتْ حَسُنَ أَنْ يُخْلَفَهَا "كَلٌّ"، وَيُلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ: الدَّلَالَةُ عَلَى شُمُولِ الْأَفْرَادِ، ويعدها الأصوليون من الألفاظ الدالة على العموم - بتعبيرهم -، ومن أمثلة ذلك - وهي كثيرة -:

• قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ {البقرة ٢٣٣}، فـ "ال" الداخلة على الوالدات: استغرافية تفيد العموم، والمقصود: كل الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين.

• ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ {التوبة ٧١}، فالـ "ال" الداخلة على "المؤمنين" و"المؤمنات" استغرافية تفيد العموم، والمعنى أن كل المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وليس هذا مختصاً ببعض منهم، فكل من تحقق بالإيمان داخل في هذه الولاية على العموم.

وقد تدخل "ال" الاستغرافية على لفظ مفرد، لكنه اسم جنس لا فرد واحد! وهذا النوع من "ال" يمكن أن يظهر أثره في هذه الحالة في اثنتين:

﴿صَحَّةُ الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْهُ مَعَ كَوْنِهِ بِلَفْظِ الْفَرْدِ، نَحْوُ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ٢﴾ {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} {العصر}، فالمقصود بالإنسان: جنس الإنسان لا إنسان واحد بعينه، والدليل: أنه استثنى منه بقوله: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...)، ولو لم يكن الجنس هو المقصود لما جاز الاستثناء؛ إذ لا يصح الاستثناء من المفرد!



﴿وَفِي صِحَّةٍ وَصَفِهِ بِالْجَمْعِ نَحْوُ: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾﴾ {النور ٣١}، إذ لو كان المقصود طفلاً واحداً لا جنس الأطفال لما صح وصفه بالجمع^{٢٨٥}.

أمثلة للتأمل والتدراس من كلام المفسرين على التنكير والتعريف

أفضل قراءة هذه الأمثلة مع المعلم والطلبة، وتحليل ما فيها ومناقشة معانيها تكميلاً للفائدة.

﴿المثال الأول:﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَوَّلِيكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {البقرة ١٢٩}، كنا قد ذكرنا سراً من أسرار التعريف باسم الإشارة للبعد خلال موضعه من البحث، ولنقرأ كلام ابن عاشور في بيان سرّ تنكير: "هدى"، في الآية، ولم تأت معرفة بحيث يقال: على الهدى؟

قال في التحرير والتنوير في الجواب على السؤال مع مزيد فوائد:
 "وَأَمَّا نُكِرَ "هُدًى" وَلَمْ يُعَرَّفْ بِاللَّامِ لِمَسَاوَةِ التَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ هُنَا، إِذْ لَوْ عُرِفَ لَكَانَ التَّعْرِيفُ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ، فَرَجَحَ التَّنْكِيرَ تَمْهِيدًا لَوْضَفِهِ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، فَهُوَ مُغَايِرٌ لِلْهُدَى السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) مُغَايِرَةٌ بِالْإِعْتِبَارِ؛ إِذِ الْقَصْدُ التَّنْوِيهِ هُنَا بِشَأْنِ الْهُدَى، وَتَوَسُّلاً إِلَى إِفَادَةِ تَعْظِيمِ الْهُدَى بِقَرِينَةٍ مَّقَامِ الْمَدْحِ، وَبِذِكْرِ مَا يَدُلُّ عَلَى التَّمَكُّنِ؛ فَتَعَيَّنَ قَصْدُ التَّعْظِيمِ.

فَقَوْلُهُ: (مِنْ رَبِّهِمْ) تَنْوِيهِ بِهَذَا الْهُدَى يَقْتَضِي تَعْظِيمَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى تَعْظِيمِ الْمُتَّصِفِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنْهُ.

وَأَمَّا وَصَفَ الْهُدَى بِأَنَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ لِلتَّنْوِيهِ بِذَلِكَ الْهُدَى وَتَسْرِيهِهِ مَعَ الْإِشَارَةِ بِأَنَّهُمْ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَيْهِمْ هِيَ إِضَافَةُ تَعْظِيمٍ لِّشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْقَرِينَةِ" ^{٢٨٦}.

(٢٨٥) انظر: البرهان للزركشي، ٤/ ٨٧-١٠١.

(٢٨٦) التحرير والتنوير، ١/ ٢٤٥.



﴿المثال الثاني﴾: نلاحظ في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ {الأعراف ٢٠١}، أنه نكر "سميع عليم"، في حين أننا إذا قرأنا من سورة فصلت قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ {فصلت ٢٦}، لاحظنا ورود الصفتين الجليلتين معرفتين: (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، ومسبوقتين بالضمير: "هو"، وللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتنكير؟ وعن زيادة الضمير؟

ولنترك الجواب لفارس من فرسان البيان في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، ابن الزبير الغرناطي؛ الذي ترك لنا كتاباً من أمّات كتب هذا الشأن "ملاك التأويل"، يقول فيه:

"والجواب عن السؤالين: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وُبحوا بعبادتها في قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ {الصفات ٢٥}، فوصفت هنا بأنها لا تخلق شيئاً، ولا يستطيعون لهم نصراً، ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ {الأعراف ١٨٨}، فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشي وآلة البطش بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ {الأعراف ١٩٦}، ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء؛ فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله: (سَمِيعٌ عَلِيمٌ) مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدّع فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً ينفيه فجاء على ما يجب.

أما آية الأعراف فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {فصلت ٢٢}، وقوله تعالى: ﴿وَقَيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ {فصلت ٢٤} وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ {فصلت ٢٩}، فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر، ومن ينسب



إليه علم؛ بخلاف المقدّم ذكره في الأعراف، فلما تقدم في سورة السجدة ^{٢٨٧} من يُظنُّ منه الغنى، ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم؛ ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفى ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ^{٢٨٨}، ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص، فقوى "المفهوم" المسمى عند كثير من الأصوليين بـ "دليل الخطاب"، ^{٢٨٩} فصار الكلام في قوم أن لو قيل: الله هو السميع العليم لا غيره، وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه، ولم يكن ورود ما في سورة الأعراف من التنكير ليناسب الوارد متقدما في سورة السجدة، ولا التعريف الوارد في الصفتين العليتين في سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم ^{٢٩٠}.

﴿المثال الثالث: أورد الإمام السيوطي رحمه الله تعالى تحت عنوان "فائدة"، عرض فيها لمباحثة بيانية في سرّ تنكير "أحد"، وتعريف "الصمد" في سورة الإخلاص، فقال رحمه الله: "حكمة:

فِي تَنْكِيرِ (أَحَدٍ) وَتَعْرِيفِ (الصَّمَدِ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ {الإخلاص ١}، وَأَلْفَتْ فِي جَوَابِهِ تَأْلِيْفًا مُودَعًا فِي الْفَتَاوَى وَحَاصِلُهُ أَنَّ فِي ذَلِكَ أَجْوَبَةً: أَحَدُهَا: أَنَّهُ نُكِّرَ لِلتَّعْظِيمِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَذْلُوقَهُ - وَهُوَ الذَّاتُ الْمُقَدَّسَةُ - غَيْرُ مُمَكِّنٍ تَعْرِيفُهَا وَالْإِحَاطَةَ بِهَا.

(٢٨٧) يقصد سورة فصلت، وإنما سماها السجدة لما أنها تسمى عند المتقدمين: حم السجدة، للإشارة إلى السجدة الواردة فيها، خلافاً لسورة السجدة المعروفة التي كانوا يسمونها: ألم السجدة.

(٢٨٨) وهو الذي أسميناه القصر، وأحلنا في الاستزادة منه على كتب علم المعاني.

(٢٨٩) يعني لما أثبت أنه هو السميع البصير؛ أفهم أنه نفى الصفتين على الحقيقة عن غيره سبحانه.

(٢٩٠) ملاك التأويل، ١/ ٢٢٣.



الثاني: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِدْخَالُ "أَل" عَلَيْهِ كَغَيْرِ كُلِّ وَبَعْضٍ؛ وَهُوَ فَاسِدٌ فَقَدْ قُرِئَ شَاذًا: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ) حَكَى هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو حَاتِمٍ فِي كِتَابِ الزَّيْنَةِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.
الثالث: وَهُوَ مِمَّا خَطَرَ لِي؛ أَنَّ "هُوَ" مُبْتَدَأٌ، وَ"اللَّهُ" خَبَرٌ، وَكِلَاهُمَا مَعْرِفَةٌ؛ فَاقْتَضَى الْحَضَرُ فَعَرَّفَ الْجُزْآنَ فِي "اللَّهُ الصَّمَدُ" لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ؛ لِيُطَابِقَ الْجُمْلَةُ الْأُولَى، وَاسْتُغْنِيَ عَنْ تَعْرِيفِ "أَحَدٍ" فِيهَا لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ دُونَهُ، فَأَتَى بِهِ عَلَى أَصْلِهِ مِنَ التَّنْكِيرِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ ثَانٍ.
وإن جُعِلَ الاسم الكريم مبتدأً و"أحد" خبره ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التّفخيم والتّعظيم؛ فَأَتَى بِالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى نَحْوِ الْأُولَى بِتَعْرِيفِ الْجُزْأَيْنِ لِلْحَضَرِ تَفْخِيماً وَتَعْظِيماً^{٢٩١}.

المثال الرابع؛ وفيه يبين الإمام الرازي رحمه الله الحكمة من تنكير "كتاب" وتعريف باقي المذكورات في قول الله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ الطُّورِ ٦﴾؛ ويزيد فوائد تفصيلية في مصدر المعاني المتدفقة على ذهن السامع جرّاء التنكير، وفي الغاية الأصيلة من التعريف، فلنقرأ ما كتب:

"مَا الْحِكْمَةُ فِي تَنْكِيرِ الْكِتَابِ وَتَعْرِيفِ بَاقِي الْأَشْيَاءِ؟
نَقُولُ: مَا يَحْتَمِلُ الْخَفَاءَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَلَبِّسَةِ بِأَمْثَالِهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ يُعَرَّفُ بِاللَّامِ، فَيَقَالُ: رَأَيْتُ الْأَمِيرَ، وَدَخَلْتُ عَلَى الْوَزِيرِ، فَإِذَا بَلَغَ الْأَمِيرُ الشُّهُرَةَ بِحَيْثُ يُؤْمَنُ الْإِلْتِبَاسُ مَعَ شُهُرَتِهِ، وَيُرِيدُ الْوَاصِفُ وَصْفَهُ بِالْعَظَمَةِ، يَقُولُ: الْيَوْمَ رَأَيْتُ أَمِيرًا مَا لَهُ نَظِيرٌ جَالِسًا وَعَلَيْهِ سِيَا الْمُلُوكِ، وَأَنْتَ تُرِيدُ ذَلِكَ الْأَمِيرَ الْمَعْلُومَ!

وَالسَّبَبُ فِيهِ:

أَنَّكَ بِالتَّنْكِيرِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ خَرَجَ عَنْ أَنْ يُعْلَمَ وَيُعْرَفَ بِكُنْهِ عَظَمَتِهِ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ {الحاقة}، فَاللَّامُ وَإِنْ كَانَتْ مُعَرِّفَةً لَكِنْ أَخْرَجَهَا عَنِ الْمَعْرِفَةِ كَوْنِ



شَدَّةٌ هَوَّلَهَا غَيْرَ مَعْرُوفٍ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا الطُّورُ لَيْسَ فِي الشُّهُرَةِ بِحَيْثُ يُؤْمَنُ اللَّبْسُ عِنْدَ التَّنْكِيرِ، وَكَذَلِكَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ.

وَأَمَّا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ فَقَدْ تَمَيَّزَ عَنْ سَائِرِ الْكُتُبِ، بِحَيْثُ لَا يَسْبِقُ إِلَى أَفْهَامِ السَّامِعِينَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَفْظُ الْكِتَابِ إِلَّا ذَلِكَ، فَلَمَّا أَمِنَ اللَّبْسُ وَحَصَلَتْ فَائِدَةُ التَّعْرِيفِ سَوَاءٌ ذُكِرَ بِاللَّامِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ قَصْدًا لِلْفَائِدَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ فِي الذِّكْرِ بِالتَّنْكِيرِ، وَفِي تِلْكَ الْأَشْيَاءِ لَمَّا لَمْ تَحْصُلْ فَائِدَةُ التَّعْرِيفِ إِلَّا بِآلَةِ التَّعْرِيفِ اسْتَعْمَلَهَا، وَهَذَا يُرِيدُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنْهُ الْقُرْآنُ وَكَذَلِكَ اللَّوْحُ الْمُحْفُوظُ مَشْهُورٌ^{٢٩٢}.

﴿المثال الخامس: ويحمل لطيفة أضافها المقصود من الآية؛ وترمق العين البصيرة الإشارة إليها ما ورد في تنكير قوله: "عبدا" في سورة العلق من قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۖ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ {العلق}، والمفهوم أن المقصود بالعبد في الآية: محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نهاه أبو جهل كما في أسباب النزول، فلماذا نكر عبداً فيها؛ مع جواز أن تعرّف؟

قد سبق في كلام الرازي ما يشير إلى أن أمن اللبس يفتح الباب للتنكير لإضافة فائدة أخرى تتعلق بالتنكير، وإنما يُحتاج إلى التعريف - في الأصل - عند الحاجة إلى التعيين حذرا من وقوع اللبس! أما وقد أمنا اللبس هنا؛ فالأولى اختيار التنكير وفتح الباب أمام الفوائد الإضافية التابعة له، قال النسفي رحمه الله في تفسيره:



"وفائدة التنكير في قوله تعالى: {عبداً} الدلالة على أنه كامل العبودية"، فالتعظيم - تعظيم العبودية - معنى أضافه التنكير هنا، ثم لما التفتنا إلى سياق الآية وبقية المعاني الرئيسة فيها، وجدنا أن هناك شقياً ينهى ذلك العبد عن أداء أعلى العبادات وأكثر صورها خضوعاً؛ وهي الصلاة، فظهر عدم التناسب بين النهي عن العبادة وبين كون المنهي عنها هو أشد الخلق عبودية!، يتابع النسفي التوضيح: "كأنه قيل: ينهى أشد الخلق عبودية عن العبادة، وهذا عين الجهل" ^{٢٩٣}.

وأظنك توافقني أن العبارة على اختصارها قد أتت على فوائد مباشرة وأخرى تابعة زادت وقع الآية جمالا في صدرك أيها المتدبر!

إضافات الدراس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....



المبحث السادس

التضمين



تتعدد الأساليب اللغوية المتبعة في القرآن الكريم، ومن شهيرها ما يسمّى عند النحويين: "التضمين"، والتضمين من الأساليب الراقية السائرة في أسلوب النص القرآني، وهو مذهب من مذاهب النحويين في التعامل مع ظاهرة تعدية الفعل أو الاسم بغير ما يتعدى به في العادة، وسيأتي البيان إن شاء الله. وحتى لا أستبق الأمور فلنسر في توضيح الأمر شيئاً فشيئاً.

• تعريف التضمين والفائدة من استعماله:

التضمين: تفعيل من "صَمَّنَ"؛ وهو في الأصل: أن يجعل أمراً في ضمن أمر آخر.

والتضمين الذي يعيننا في استعمال المفسرين^{٢٩٤}: هو إشراب لفظ معنى لفظ، فيعطى حكمه.

وقال ابن جني في الخصائص: «إن العرب قد تتوسع فتوقع أحد الحرفين موقع الآخر، إيداناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فقط، وعلى هذا فالتضمين مجازٌ مرسل، لأنه استعمال اللفظ في غير معناه لعلاقة بينهما وقرينة». وقيل تعقيباً على قول ابن جني السابق: إن فيه جمعاً بين الحقيقة والمجاز، لدلالة المذكور على معناه بنفسه وعلى المحذوف بالقرينة.

(٢٩٤) التضمين: يطلق في عموم اللغة على أشياء:

أحدها: إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه معناه، وهو نوع من المجاز.

الثاني: حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم هو عبارة عنه، وهذا نوع من الإيجاز.

الثالث: تعلق ما بعد الفاصلة بها.

الرابع: إدراج كلام الغير في أثناء الكلام لقصد تأكيد المعنى أو ترتيب النظم، ومنه قوله:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ).

وقال العز بن عبد السلام في كتابه «مجاز القرآن» التضمنين: هو أن يضمَّن اسم معنى آخر لإفادة معنى الاسمين؛ فتعديده تعديته في بعض المواضع "٢٩٥".

وأبسط^{٢٩٦} من ذلك ما نُقل عن التفتازاني أنه قال في حاشية الكشف: "وحقيقة التضمنين أن يقصد بالفعل معناه الحقيقي مع فعل آخر يناسبه، وهو كثير في كلام العرب، وذلك مع حذف حال مأخوذ من الفعل الآخر بمعونة القرينة اللفظية، ويتعين جعل الفعل المذكور أصلاً والمذكور حاله تبعاً، لأن حذفه والدلالة عليه بصلته يدلُّ على اعتباره في الجملة لا على زيادة القصد إليه، ومن أمثلته: أحمد إليك الله، أي منهياً إليك حمده، ويقلب كفيه على كذا، أي نادماً عليه" ٢٩٧.

وفي البرهان للزركشي:

"التضمنين وهو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف، فأما في الأسماء فهو أن تضمَّن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين جميعاً، كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ {الاعراف ١٧٥}؛ ضمن حقيق معنى حريص ليفيد أنه محقوق بقول الحق، وحريص عليه.

وأما الأفعال فأن تضمَّن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به؛ فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعديده به" ٢٩٨.

(٢٩٥) إعراب القرآن وبيانه، ٣/ ٣٠٦.

(٢٩٦) من البسط.

(٢٩٧) نظم الدرر، ٩/ ١٢٨.

(٢٩٨) البرهان للزركشي، ٣/ ٣٣٨.

• المنطلق الذي أنتج ظاهرة التضمين:

واختلف أهل اللغة في توجيه ظاهرة تعدية الفعل أو الاسم بغير الحرف الذي يتعدى به في العادة؛ ففي حين ذهب بعضهم إلى أن تضمين الحرف أولى، بمعنى أن الحرف جاء بمعنى آخر وناب عنه، وسمّوا ذلك: تناوب الحروف؛ كما سيأتي التمثيل، ذهب حُذّاق نحاة البصرة إلى أن الأولى تضمين الفعل، لأن التوسع في الأفعال أكثر!^{٢٩٩}

• وأما الفائدة من استعمال أسلوب التضمين:

فقد ظهر من خلال التعريف؛ إذ تضمّنت الكلمة معنى كلمة أخرى، وتشرب اللفظ معنى إضافياً، فأورث ذلك الإيجاز، إذاً هو الهدف الأساس من هذا الأسلوب، فبدلاً من أن تأتي بفعلين يتعدى كل منهما بأداة ما؛ يكفيك أن تأتي بأحدهما، ليتضمن عن طريق الإشارة معنى فعل آخر! كثرت المعاني إذاً مع وجازة الألفاظ، ولم أحتج إلى بسط الكلام، إنما اخترلتُ معانيه المبسوطة في عبارة قليلة الكلمات.

قيل:

وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدّى كلمتين، هذا ما قاله ابن هشام، واستشهد على ذلك بقول الزمخشري «ألا ترى كيف رجع معنى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ {الكهف ٢٨} إلى قولك: ولا تقتحم عينك مجاوزتين إلى غيرهم، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ {النساء ٢} أي: ولا تضموها إليها أكليْن». ووضح أن هذا ثراء لفظي، يزيد في مرونة لغتنا، وسعة تصرفها، ولهذا أثرناه بالإشارة^{٣٠٠}.

(٢٩٩) انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٣٣٨.

(٣٠٠) إعراب القرآن وبيانه، ٣/ ٣٠٦.

• تعريف التضمنين والفائدة من استعماله

والشكل الآتي يوضح بأسلوب "رياضي" العمل الإجرائي في توجيه التضمنين:

ما يتعدى به الفعل المثبت عادة	الفعل المثبت
ما يتعدى به الفعل المحذوف عادة	الفعل المحذوف

أنا أعلم أن الأمر ما يزال يحتاج إلى مزيد توضيح للمقصود، لكن لا سبيل إلى تمام البيان إلا عبر استعراض الأمثلة، وسنقتصر بإذن الله على الأمثلة القرآنية دون غيرها كما هي العادة في هذا الكتاب، وسنستدعي كلام المفسرين لنقف معه ونحلل ما فيه من الفوائد، ولنستل منه القواعد والتنبيهات المهارية.

أمثله القرآنية؛ والإرشادات التدبرية

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ {الكهف ٢٨}.
أحسب أنك بدأت تُحِيلُ عينيك في النص بحثاً عن الفعل الذي تعدى بحرفٍ ليس من العادة أن يتعدى به!

والفعل الذي يسترعي انتباهنا هنا هو: "تعدُّ"، وهو مجزوم بـ "لا" الناهية، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة من آخره، وأصله: تعدو، والفعل "تعدو" يتعدى بنفسه لا بحرف جر، تقول: لا تعدهم عيناك، ولا تقول: لا تعد عيناك عنهم!

• تعريف التضمنين والفائدة من استعماله

وما الفعل الذي يتعدى بـ "عنهم" وهو يناسب السياق؟
وما المعنى الذي تحصل لدينا نتيجة هذا التضمنين؟

نترك لأستاذ البلاغة القرآنية وأبرز روادها - الإمام الزمخشري - الإجابة على ذلك:
"فإن قلت: أي غرض في هذا التضمنين؟ وهلاً قيل: ولا تعدُّهم عينك، أو لا تعلُ عينك عنهم؟
قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذَّ.

ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم؟"^{٣٠١}.
إخالك تنبَّهت إلى أن الزمخشري قد بحث عن فعل يتعدى بـ "عن" يناسب السياق، فقدَّره: تعلو،
والمعنى: ولا تعدُّهم عينك ولا تعلُ عنهم عينك ازدراء!!
حاول تذوق ما بين التعبيرين، كيف أشرق التعبير القرآني في ذهنك، وكيف كان وقعه في ذائقتك؟
وقارنه بقولنا مفسرين: لا تعدُّهم عينك ولا تعلُ عنهم عينك!!
العبارة القرآنية: أوجز وأجمل!

بالطبع قد نختلف في تقدير ذلك الفعل المستكن في التعبير، انظر إلى النسفي يختار فعلاً آخر قريباً
كان الزمخشري قد ذكره من قبل، فيقول:
"وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) ولا تجاوز، عدَّاه إذا جاوزه، وعدَّى بـ "عن" لنضمِّن "عدا" معنى "نبا" في
قولك: نبت عنه عينه، وفائدة التضمنين إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى
فذَّ"^{٣٠٢}.

(٣٠١) تفسير الزمخشري، ٢/ ٧١٧.

(٣٠٢) تفسير النسفي، ٢/ ٢٩٨.

ولنأخذ مثلاً آخر قبل التوجه لتقاء تسجيل الإجراءات التي ينبغي أن يسلكها المفسر المتدبر.

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ {الأنبياء ٧٧}، أظنه يسبق إلى ذهرك أن الفعل "نصر" يتعدى بـ "على"، لا بـ "من"، فنقول: نصرناه على القوم؛ لا من القوم، كيف التوجيه؟

فلنضف في هذا المثال فائدة أخرى، وهي مسالك اللغويين في توجيه مثل هذه المواضع: وكنت قد ذكرت لك: أن الناس قد اختاروا في توجيه مثل هذه المواضع: إما القول بتناوب الحروف، أو القول بالتضمنين، ولنر واقعاً كيف فعلوا:

الفريق الأول: أن يُضَمَّن «نَصَرْنَاهُ» معنى: مَنْعَاهُ وَعَصَمْنَاهُ، فيصير: مَنْعَاهُ مِنْهُمْ أو عَصَمْنَاهُ مِنْهُمْ! ومثله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ {غافر ٢٩}، فلما ضُمَّنْ معناه تَعَدَّى بما يتعدى به. الفريق الثاني: أن «مِنْ» بمعنى "على" أي: على القوم، حيث نابت "من" عن "على"، والسلام ٣٠٣!

أنت ترى حَجْمَ الفائدة التي خسرناها في القول بتناوب الحروف، حيث اكتفينا بالزعم بأن حرفاً أدّى دور حرف آخر، لا فائدة في المعنى ولا ثراء في التعبير، ولا سرّ في العدول عن حرف إلى آخر! وأظنك توافقني أنه ينبغي أن نربأ بالقرآن أن يُزعم فيه ذلك، وهو أحسن الكلام!

المثال الثالث:

قول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ {النساء ٥}.

اللافت تعدية الفعل "أكل" بـ "إلى"! كيف يمكن أن يكون التوجيه؟
وجهان:

﴿إما أن نذهب إلى القول بتناوب الحروف، وهو القول الذي رفضناه لما فيه من خسائر في المعاني، وإفضاء إلى القول بأن العدول عن الأصل لا لسر ولا لسبب! فيكون قوله: (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ) معنى "إلى": "مع": مع أَمْوَالِكُمْ.

﴿والوجه الثاني - وهو الذي رجحناه مسلكاً -: أن نُضْمَنَ تَأْكُلُوا فعلاً مناسباً يتعدى بـ "إلى"، والمناسب هنا: تَضَمُّوا، فيصير: ولا تأكلوها وتضموها إلى أموالكم. ويمكن لسلامة التقدير أن تجعله حالاً، فتقول: ولا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أَمْوَالِكُمْ. "وَحِكْمَةُ: إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْهُمْ عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَنَّهُ تَنْبِيْهُ عَلَىٰ غِنَى الْأَوْلِيَاءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ مَعَ كَوْنِكُمْ ذَوِي مَالٍ أَيْ: مَعَ غِنَاكُمْ، لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِلْوَلِيِّ إِذَا كَانَ فَقِيرًا أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ" ٣٠٤.

وهذا جانب رائع من المعنى المضاف عبر سلوك هذا السبيل في تفسير هذه الظاهرة القرآنية.

التنبية على المهارة والإرشاد التدبري

يمكننا أن نحدد الإجراءات العملية لهذا العمل التفسيري "التدبري" إعانةً للمفسر المتدبر على التعامل مع هذه الظاهرة القرآنية اللغوية:

١ - الحُظُّ العدول عن الأصل في تعدية الأفعال^{٣٠٠}، وانظر: هل تعدية الفعل في النص القرآني جارية على العادة!

ويلزم من هذا معرفة على استعمالات العرب في ذلك، وإنما يُدرك بمطالعة كلام أهل اللغة والفصحاء من العلماء؛ فيحصل مع الوقت اطلاع على أغلب ذلك، وليس هذا بالأمر الصعب، فمعظم ذلك يدركه العربيُّ بممارسة اللغة والقراءات العامة لكلام العرب الفصحاء، وكلما ازدادت علاقته بكلام أهل اللغة كان أكثر مكنة في ذلك وغيره، أما غير العربي فيلزمه التنبه أكثر وملاحظة ما تتعدى به الأفعال.

- ولنستعمل في التمثيل هنا مثالا آخر، وليكن المثال الرابع، إضافة إلى الأمثلة الثلاثة السابقة:

اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ {المطففين ٢٧}، حيث يجرُّ انتباهك تعدية الفعل "يشرب" بالباء: (يَشْرَبُ بِهَا)، والمعهود من استعمال أهل اللغة تعديته بـ "من"، فنقول: يشرب منها! ومثله تماماً قوله سبحانه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ {الانسان ١٦}.

وهذه هي الخطوة الإجرائية الأولى: الانتباه إلى العدول عن الأصل في الاستعمال.

(٣٠٥) الأفعال غالباً، وإن كان الأمر قد يتعلق بالأسماء كذلك.



٢- أما الخطوة الثانية فانظر - سددك الله - إلى الحرف الذي تعدّى الفعل به، وحاول أن تستحضر فعلاً آخر يصلح أن يتعدى بالفعل المذكور، ويناسب السياق في الوقت نفسه، وانتبه إلى ضرورة تحقق الشرطين معاً:

- الأول: أن يصلح الحرف المتعدّى به للتعليق بالفعل المقدر.
- الثاني: أن يناسب الفعل المقدر السياق.

ثم إنك إن فعلت ذلك أعدّ قراءة الجملة كاملة بفعليها: المذكور والمستكنّ المضمّن، وارقّب استقامة الكلام، واحرص على أن يكون الفعل المقدر مضيفاً للنص معنى راقياً.

فلنعدّ للتمثيل على مثالنا السابق:

(يَشْرَبُ بِهَا)؛ ما الفعل المناسب لـ "بها"، قد يخطر على بالك أفعال كثيرة يصلح أن تُعدّى بـ "بها"، لكن استبعد من ذلك ما لا يصلح له السياق، وتخيّر أنسبها له، وهنا يمكنك أن تقول:

إن التقدير:

عيناً يشرب منها ويروى بها المقربون، فهم لا يشربون فحسب، وكم من شارب لا ينال الرّي! إنما يشربون منها ويروون بها، أو تقول: يشرب منها ويلتذُّ بها المقربون! وهكذا!

انظر إلى الإثراء اللطيف المأخذ الذي أغدقه علينا استعمال هذا الأسلوب وتفعيله في تدبر النص القرآني الثر!

لطيفة بديعة

مما مر بي من اللطائف ويحسن ذكره لمناسبته للمثال السابق:
ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ {الانسان ١٧١}،
حيث قالوا: "مَادَّةٌ يَشْرَبُ تَتَعَدَّى بِنَفْسِهَا، فَيُقَالُ: يَشْرَبُ كَأْسًا بَدُونِ مَحْيٍ «مِنْ»، و «مِنْ»
تفيد التَّبَعِيضِ والابتداء في الأصل، فقليل: هي هنا للابتداء، وَأَنَّ الْفِعْلَ مُضَمَّنٌ مَعْنَى فِعْلٍ
آخَرَ، وَهُوَ: يَتَنَعَّمُونَ وَيَرْتَوُونَ كَمَا قَالُوا فِي: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ، إِذِ الْبَاءُ تَكُونُ لِلْإِرَادَةِ وَلَا
إِرَادَةَ هُنَا، فَهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بِهَا.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ «مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ فِعْلًا، وَأَنَّ شُرْبَ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى سَبِيلِ التَّرَفِّهِ والتَّلَذُّذِ، وَهِيَ
عَادَةُ الْمُتَرَفِّينَ الْمُتَنَعِّمِينَ، يَشْرَبُونَ بَعْضَ الْكَأْسِ لَا كُلَّهُ.
وقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَشْرَبُونَ عَنْ ظَمًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِأَدَمَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ {طه ١٧٨} "٣٠٦".

المثال الخامس:

قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾ {الاعراف ١٨٧} الآية.

هذا المثال فيه عدول عن الأصل في تعدية الاسم لا الفعل! فـ "خفي" يتعدي بـ "بها"، فتقول: خفيُّ
بها؛ لا "خفي عنها"! فما سر ذلك العدول؟

قبل الإجابة أودُّ أن أذكر لك أن من أكثر المفسرين الذين وجدت لهم إسهاماً في تطبيق هذا الباب
من أساليب التعبير القرآني: الإمام أبو حيان الأندلسي؛ إمام النحو ورائده بين المفسرين، ولأترك
له الإجابة يحدثك؛ فتنبه واستعد لاستقبال الكلام الكبير:

"(يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ: كَأَنَّكَ خَفِيٌّ بِسُؤَالِهِمْ أَيْ مُحِبٌّ



لَهُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: كَأَنَّكَ يُعْجِبُكَ سُؤْلُهُمْ عَنْهَا، وَعَنْهُ أَيْضًا: كَأَنَّكَ مُجْتَهِدٌ فِي السُّؤَالِ مُبَالِغٌ فِي الإِقْبَالِ عَلَى مَا تُسْأَلُ عَنْهُ، وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: كَأَنَّكَ طَالِبٌ عِلْمَهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا وَالِاشْتِغَالِ بِهَا حَتَّى حَصَلَتْ عَلَيْهَا، أَيْ نُحْبَهُ وَتَوَثَّرُهُ، أَوْ بِمَعْنَى أَنَّكَ تَكْرَهُ السُّؤَالَ لِأَنَّهَا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ وَلَمْ يُؤْتِهِ أَحَدًا.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: أَيْ مُحْتَفٍ وَمُحْتَفِلٌ، وَقَالَ الزَّحَّاشِيُّ: كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا، وَحَقِيقَتُهُ كَأَنَّكَ بَلِغٌ فِي السُّؤَالِ عَنْهَا؛ لِأَنَّ مَنْ بَالَعَ فِي السُّؤَالِ عَنِ الشَّيْءِ وَالتَّنْقِيرِ عَنْهُ اسْتَحْكَمَ عِلْمُهُ فِيهِ، وَهَذَا التَّرْكِيبُ مَعْنَاهُ: الْمُبَالِغَةُ؛ وَمِنْهُ إِحْفَاءُ الشَّارِبِ وَاحْتِفَاءُ النَّعْلِ اسْتِصْصَالُهُ، وَأَخْفَى فِي الْمُسْأَلَةِ الْخَفَ، وَحَفِيٌّ بِفُلَانٍ وَتَحَفَى بِهِ بَالِغٌ فِي الْبِرِّ بِهِ. انْتَهَى.

و"عَنْهَا" إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ (يَسْأَلُونَكَ) أَيْ يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا، وَتَكُونُ صِلَةً (حَفِيٌّ) مُحْدُوْفَةً، وَالتَّقْدِيرُ: كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا، أَيْ مُعْتَنٍ بِشَأْنِهَا حَتَّى عَلِمْتَ حَقِيقَتَهَا وَوَقْتَ مَجِيئِهَا، أَوْ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهِمْ أَوْ مَعْتَنٍ بِأَمْرِهِمْ فَتُحِبُّهُمْ عَنْهَا لِرُغْمِهِمْ أَنْ عِلْمَهَا عِنْدَكَ! وَ(حَفِيٌّ) لَا يَتَعَدَّى بِـ "عَنْ"، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ {مَرْيَمَ ٥٧}، فَعَدَّاهُ بِالْبَاءِ!

وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِحَفِيٍّ عَلَى جِهَةِ التَّضْمِينِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ حَفِيًّا بِشَيْءٍ أَدْرَكَهُ وَكَشَفَ عَنْهُ. فَالتَّقْدِيرُ: كَأَنَّكَ كَاشِفٌ بِحَفَاوَتِكَ عَنْهَا، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَنْ بِمَعْنَى الْبَاءِ^{٣٠٧}، كَمَا تَكُونُ الْبَاءُ بِمَعْنَى "عَنْ" فِي قَوْلِهِ:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي ...

أَيْ إِنْ تَسْأَلُونِي عَنِ النِّسَاءِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: "كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهَا" بِالْبَاءِ مَكَانَ عَنْ، أَيْ عَالِمٌ بِهَا بَلِغٌ فِي الْعِلْمِ بِهَا"^{٣٠٨}.

(٣٠٧) على القول بتناوب الحروف.

(٣٠٨) البحر المحيط، ٢٣٩/٥.

المثال السادس:

ومن الأمثلة كذلك: قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ) {الاعراف ١٧٥}.

فقوله: (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ) جاء على غير المشهور عن العرب في هذه الكلمة إذ يقولون: أَنْتَ حَقِيقٌ كَذَا، وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِأَنْ تَفْعَلَ كَذَا، كَمَا يَقُولُونَ: أَنْتَ جَدِيرٌ بِهِ وَخَلِيقٌ بِهِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ اسْتِعْمَالُهُ بِـ "عَلَى"، فكيف نوجه هذا الاستعمال؟

ذهب بعضهم إلى القول بالتناوب بين الحروف؛ فقالوا:

"وَرَدَ فِي كَلَامِهِمْ اسْتِعْمَالُ "عَلَى" بِمَعْنَى الْبَاءِ كَقَوْلِهِمْ: ارْكَبْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِيِّ فِي تَخْرِيجِ الْآيَةِ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَعْنَى السَّابِعِ مِنْ مَعَانِي "عَلَى" الْجَارَّةِ، وَأَيَّدَهُ بِقِرَاءَةِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ... قالوا: و"الباء" و"على" يَتَعَاقَبَانِ، يُقَالُ: رُمِيتَ بِالْقَوْسِ، وَعَلَى الْقَوْسِ، وَجَاءَ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ، وَبِحَالٍ حَسَنَةٍ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ حَرِيصٌ عَلَى أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ اهـ.

وذهب آخرون إلى القول بالتضمن، وقالوا:

الْمُرَادُ مِنَ الْقَوْلِ الثَّانِي أَنْ حَقِيقًا قَدْ ضُمِّنَ مَعْنَى الْحَرْصِ، وَهُوَ مَنَّقُولٌ عَنِ الْفَرَّاءِ النَّحْوِيِّ الْمَفْسَّرِ الْمُشْهُورِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَرَارًا أَنَّ التَّضْمِينَ جَمَعَ بَيْنَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلِمَةِ وَالْمَعْنَى الَّتِي أَفَادَتْهُ التَّعْدِيَةُ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْعِبَارَةِ: إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ وَجَدِيرٌ بِأَلَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَحَرِيصٌ عَلَى ذَلِكَ فَلَنْ أُخِلَّ بِهِ" ٣٠٩.



هذا اختيار أبي حيان، وقد اختار ابن عاشور تقديراً آخر أثناء عرض التوجيهات، وقال: "وَمِنْهَا مَا قِيلَ: ضَمَّنَ حَقِيقٌ مَعْنَى حَرِيصٍ؛ فَعُدِّيَ بـ "على" إِشَارَةً إِلَى ذَلِكَ التَّضْمِينِ، وَأَحْسَنُ مَنْ هَذَا أَنْ يُضَمَّنَ حَقِيقٌ مَعْنَى مَكِينٍ، وَتَكُونُ (عَلَى) اسْتِعَارَةً لِلْإِسْتِعْلَاءِ الْمُجَازِيِّ" ^{٣١٠}. وهذا مثال آخر على اختلاف التقدير عند افتراض القول بالتضمن، وكلُّ يتحرى الوجه الذي يراه الأنسب للسياق.

ملاحظة منهجية

القول بالتضمنين يُلجأ إليه عند الضرورة، وإن كان ثمة سبيل إلى إجراء الكلام على الظاهر من غير حاجة إلى القول بالتضمنين فهو أولى، وهذا ما نبه إليه الإمام المفسر النحوي أبو حيان مراراً في تفسيره؛ حيث قال: "التَّضْمِينِ لَا يَنْقَاسُ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ، وَإِنَّمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، أَمَّا إِذَا أُمِكنَ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى مَدْلُولِهِ الْوَضْعِيِّ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَوْلَى" ^{٣١١}.

وسأضرب لك مثلاً على ذلك، وليكن المثال السابع.

المثال السابع:

قول الله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ {الرعد ١١}، يسترعي الانتباه تعدية "حفظ" بـ "من"، وقد ذهب العلماء في التوجيه مذاهب؛ أجمالها فيما يأتي:
١- تقدير محذوف، إذ قالوا: المعنى: يحفظونه من أجل أمر الله، أي: من أجل أن الله أمرهم بحفظه، وهو رأي الزمخشري.

(٣١٠) التحرير والتنوير، ٣٩/٩.

(٣١١) البحر المحيط، ١٦٦/٧.



﴿أَنْ "مِنْ" هُنَا بِمَعْنَى الْبَاءِ، يَعْنِي: يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَالْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ، وَالزَّمْخَشَرِيُّ قَدْ وَصَفَ هَذَا الْقَوْلَ بِأَنَّهُ "تَحَكُّمٌ"، فَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو حَيَّانَ بِقَوْلِهِ: "وَلَيْسَ بِتَحَكُّمٍ، وَوُرُودُ "مِنْ" لِلْسَّبَبِ ثَابِتٌ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ".

﴿أَنْ يَضْمَنَ يَحْفَظُونَهُ مَعْنَى يَدْعُونَ لَهُ بِالْحَفْظِ مِنْ نَقَمَاتِ اللَّهِ رَجَاءَ تَوْبَتِهِ، وَهَذَا الَّذِي خَتَمَ بِهِ أَبُو حَيَّانَ تَعْقِيَّاتِهِ عَلَى الْأَقْوَالِ السَّابِقَةِ ٣١٢.

وهذه وجوه ثلاثة محتملة، والقول بالتضمنين منها حسن، لكن أحب أن أسجل الملاحظتين التاليتين:

١- **القول الأول؛** يقتضي الحذف: (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ^ط)، يعني: يحفظونه من أجل أمر الله، وهذا حذف سهل؛ سائرة أمثاله في القرآن، وهذا القول يساوي في القوة- على ما أرى- القول بالتضمنين، بل هو أقوى! ذلك أن الحذف في اللغة وفي القرآن كثير، وهو أكثر حتمًا من التضمنين، وحمل الكلام على الوجه الكثير المعتاد أولى من حمله على ما ليس كذلك!

٢- **أن القول الثاني؛** يقتضي أنه لا تضمنين ولا حذف، حيث قال أصحابه: إن "من" سببية، والمعنى: يحفظونه بسبب أمر الله.

وهنا قد يطالعني أحد القراء المتنبهين فيقول: أليس هذا قولاً بتناوب الحروف، وقد سلف منك أنك ضعفته؟!

فالجواب- وتنبه له متفضلاً:-

هذا ليس من تناوب الحروف، لأن السببية من معاني "من" الأصلية، وبالتالي هي تؤدي دورها الاعتيادي الذي يمكن أن تؤديه وفق وضعها اللغوي، ولا تنوب عن غيرها فيه!



ولذلك جاء في كلام أبي حيان المنقول ما يشير إلى الرد على تضعيف الزمخشري له بإثبات أن "من" أصيلة في الدلالة على السببية، فأعد قراءة كلامه - غير مأمور -!
وهذه ملاحظة عزيزة فتنه!

المثال الثامن:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ {الصفات ١٧٨}، ما وجه تعدية: (تركنا) بـ (عليه)؟
هذا ما تنبه إليه ابن عاشور، وذكر أنه لم يتنبه أحد من المفسرين إليه ولا عرض له، فقال: "وَمُتَعَلِّقٌ (عَلَيْهِ) مِنْ قَوْلِهِ: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ) لَمْ يَحْمَ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ حَوْلَهُ فِيمَا أَطْلَعْتُ، وَالْوَجْهُ أَنَّ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِ بِفِعْلِ (تَرَكْنَا) بِتَضْمِينِ هَذَا الْفِعْلِ مَعْنَى "أَنْعَمْنَا"؛ فَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنَّ يُعَدَّى هَذَا الْفِعْلُ بِاللَّامِ، فَلَمَّا ضُمِّنَ مَعْنَى "أَنْعَمْنَا" أَفَادَ بِمَادَّتِهِ مَعْنَى الْإِبْقَاءِ لَهُ، أَيْ إِعْطَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْفَضَائِلِ الْمُدْخَرَةِ الَّتِي يُشَبِّهُ إِعْطَاؤَهَا تَرَكَ أَحَدٌ مَتَاعًا نَفِيسًا لِمَنْ يُحِلِّيهِ هُوَ لَهُ وَيُخْلِفُهُ فِيهِ.
وَأَفَادَ بِتَعْلِيلِ حَرْفِ (عَلَى) بِهِ أَنَّ هَذَا التَّرْكَ مِنْ قَبِيلِ الْإِنْعَامِ وَالتَّفْضِيلِ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ التَّضْمِينِ أَنْ يُفِيدَ الْمُضْمَنُ مُفَادَ كَلِمَتَيْنِ فَهُوَ مِنَ الْأُطْفِ الْإِجَازِ.
ثُمَّ إِنَّ مَفْعُولَ تَرَكْنَا لَمَّا كَانَ مُحَذُوفًا وَكَانَ فِعْلٌ (أَنْعَمْنَا) الَّذِي ضُمِّنَهُ فِعْلٌ تَرَكْنَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى مُتَعَلِّقٍ مَعْنَى الْمَفْعُولِ، كَانَ مُحَذُوفًا أَيْضًا مَعَ عَامِلِهِ فَكَانَ التَّقْدِيرُ: وَتَرَكْنَا لَهُ ثَنَاءً وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، فَحَصَلَ فِي قَوْلِهِ: تَرَكْنَا عَلَيْهِ حَذْفُ خَمْسِ كَلِمَاتٍ وَهُوَ إِجَازٌ بَدِيعٌ.
وَلِذَلِكَ قَدَّرَ جُمْهُورُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَتَرَكْنَا ثَنَاءً حَسَنًا عَلَيْهِ ٣١٣.
وهذا تقرير عجيب رائع من علامة تونس المفسر الفقيه المقاصدي الطاهر بن عاشور.

وبعد:

فهذه أمثلة مختارة حري أن تدل على ما وراءها من المواضع القرآنية المشابهة، والفظن امتلك بما قرأ
الفتاح، وفتوح الله على من يشاء من عباده أولاً وأخيراً سرُّ التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

This image shows a full page of white paper with horizontal dotted lines, typical of primary school writing paper. The lines are evenly spaced and run across the entire width of the page. There are no margins, text, or other markings present.



المبحث السابع
الالتفات



تمهيد:

الالتفات فنٌّ بارع من أفانين التعبير، وسمة من سمات طرائق البلغاء في الكلام، ومسلك مشهور بين فرسان اللغة وأئمة البيان؛ قد حاز على ثناء الأئمة الراصدين لمعالم البلاغة، وحسبه شرفاً كثيرة استعماله في القرآن الكريم؛ حتى صار معلماً من معالم منهجه التعبيري. وسنقف مع تعريف الالتفات وأغراضه، ثم نقفي ذلك بذكر الأمثلة القرآنية ودراستها والنظر في كلام العلماء فيها.

بج تعريف الالتفات:

تعددت عبارات القوم في تعريف الالتفات تضييقاً للمفهوم وتوسيعاً، ولأن مقصودنا ضبط المباحث في ذهن المتدبر فإننا نختار التضييق، وعليه؛ فالالتفات على رأي هؤلاء - وهو استعمال المفسرين - : هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر؛ أعني: من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير الأول، هذا هو المشهور^{٣١٤}.

وقيل - وهو قريب جداً منه - :

هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر، تطرية واستدرااراً للسامع، وتجديداً لنشاطه وصيانةً لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه، بشرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه^{٣١٥}.

(٣١٤) الكليات، ٢٤٠.

(٣١٥) الموسوعة القرآنية، ٣/ ٣٦.



وقال ابن عاشور رحمه الله:

"تَرَى مِنْ أَفَانِينَ الْكَلَامِ الْإِلْتِفَاتَ، وَهُوَ نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أَحَدِ طُرُقِ التَّكَلُّمِ أَوْ الْخِطَابِ أَوْ الْغَيْبَةِ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ مِنْهَا، وَهُوَ بِمُجَرَّدِهِ مَعْدُودٌ مِنَ الْفَصَاحَةِ، وَسَمَّاهُ ابْنُ جَنِّي شَجَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ^{٣١٦}؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ يُجَدِّدُ نَشَاطَ السَّمَاعِ فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ اعْتِبَارٌ لَطِيفٌ يُنَاسِبُ الْإِنْتِقَالَ إِلَى مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ صَارَ مِنْ أَفَانِينَ الْبَلَاغَةِ وَكَانَ مَعْدُودًا عِنْدَ بُلْغَاءِ الْعَرَبِ مِنَ النَّفَائِسِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً؛ مَعَ دَقَّةِ الْمُنَاسَبَةِ فِي الْإِنْتِقَالِ^{٣١٧}.

وسنعود إلى شيء من محتويات هذا الكلام، وقد قال القزويني من قبل:
"اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة، وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسمي بذلك أخذاً له من التفات الإنسان يميناً وشمالاً، فتارة يُقبلُ بوجهه، وتارة كذا، وتارة كذا، فهكذا حال هذا النوع من علم المعاني، فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات"^{٣١٨}.
وقد فضّل القزويني اعتماد تعريفٍ منها لدقته؛ فقال:

ومعناه في مصطلح علماء البلاغة: هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة؛ لأن الأول يعمّ سائر الالتفاتات كلها، والحد الثاني إنما هو مقصور، على الغيبة والخطاب لا غير^{٣١٩}.

(٣١٦) قال ابن الأثير: يسمى أيضاً "شجاعة العربية"، وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات". المثل السائر، ١٣٥ / ٢.

(٣١٧) التحرير والتنوير، ١ / ١٠٩.

(٣١٨) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ٢ / ٨٥، وانظر: المثل السائر لابن الأثير، ٢ / ١٣٥.

(٣١٩) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ٢ / ٨٥، والطراز، ٢ / ٧١.



وقد راعى القزويني التوسع في مفهوم الالتفات ليدخل فيه أنواعاً تتعدى التنقل بين الضمائر، فأدخل فيه:

الانتقال من المضارع إلى الماضي والعكس، والانتقال من التعبير بالاسم إلى التعبير بالفعل والعكس، وغير ذلك من الانتقال بين الأساليب، وكذلك فعل ابن الأثير في المثل السائر، إذ قال: "وهذا النوع هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن"، إلى أن قال:

"وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً".

وقد ذكرت لك أن اختيارنا وقع في هذا الكتاب على أن الالتفات هو التنقل ما بين الضمائر؛ لضبط المبحث من جهة، ولأنه غالب استعمال المفسرين من جهة ثانية.

وعلى هذا جرى المراغي في كتابه في البلاغة فقال:

"وحقيقته التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها"، وهذا كما ترى تعريف مضيق مضبوط.

١٠ صور الالتفات:

ينقسم أسلوب الالتفات على الجملة إلى ستة أقسام^{٣٢٠}؛ يمكن أن نسميها: "صور الالتفات"، وهي على النحو التالي^{٣٢١}:

(٣٢٠) الالتفات: وهو على ستة أنواع: خروج من التكلم إلى الخطاب أو الغيبة، وخروج من الخطاب إلى التكلم أو الغيبة، وخروج من الغيبة إلى التكلم أو الخطاب، التسهيل، ٢٥/١.

(٣٢١) علوم البلاغة، للمراغي، ١٤١.



الأول: الالتفات من المتكلم إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {يس ٢٢}؛ دون "أرجع".
وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ {يُغْفِرُ لَكَ اللَّهُ} {الفتح}، فانتقل من المتكلم {فتحننا}، إلى المخاطب {لِيُغْفِرَ}، ولم يقل: {لنغفر لك}.

الثاني: الالتفات من المتكلم إلى الغائب، ويمثّل لهذا بقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ {الاعراف ١٥٨}، فانتقل من المتكلم {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ} إلى الغائب {وَرَسُولِهِ}، ولم يقل: {فأمنوا بالله وبى}.
وكقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْهُ} {الكوثر}؛ دون "لنا".

الثالث: الالتفات من المخاطب إلى الغائب، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَهُمْ﴾ {يونس ٢٢}، انتقل من المخاطب {كُنْتُمْ} إلى الغائب {بَيْنَهُمْ}، ولم يقل: {بكم}، وهذه الآية الكريمة هي المثال القرآني الأبرز والأشهر في باب (الالتفات).

الرابع: الالتفات من الغائب إلى المتكلم، كقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ {فاطر ١}، انتقل من الغائب {أَرْسَلَ}، إلى المتكلم: {فَسُقْنَاهُ}، {فَأَحْيَيْنَا}، ولم يقل: {فساقه}، {فأحياه} ٣٢٢.

الخامس: الالتفات من الغائب إلى المخاطب، والمثال الأشهر لهذا القسم قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ {الفاتحة}، فقد انتقل الكلام من أسلوب الغيبة {مَالِكِ} إلى أسلوب الخطاب {نعبدنا}، ولم يقل: {عبدنا}.



والسادس؛ وهو الالتفات من التكلم إلى الخطاب، مثلوا عليه بقول علقمة بن عبدة العجلي:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَنِ طَرُوبٌ = بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ
يُكَلِّفُنِي لَيْلٌ وَقَدْ شَطَّ وَلِيُّهَا = وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: يكلفك أي: القلب.

ومن القرآن لم أجد مثلاً إلا ما جاء على لسان السحرة المؤمنين في مواجهة فرعون: (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ..) {طه}، وفي القلب من تسمية ذلك التفاتاً شيء، والله أعلم.

١٢ فوائد وأغراضه:

فلنقرأ هذين النصين قبل تلخيصها:

• قال الإمام الزمخشري في تفسيره:

"ولأنَّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد" ٣٢٣.

• قال صاحب التحرير والتنوير:

"وَلَا هَلْ الْبَلَاغَةُ عِنَايَةٌ بِالْإِلْتِفَاتِ؛ لِأَنَّ فِيهِ تَجْدِيدَ أُسْلُوبِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ تَحَاشِيًا مِنْ تَكَرُّرِ الْأُسْلُوبِ الْوَاحِدِ عِدَّةَ مَرَارٍ؛ فَيَحْصُلُ بِتَجْدِيدِ الْأُسْلُوبِ تَجْدِيدُ نَشَاطِ السَّامِعِ؛ كَيْ لَا يَمَلَّ مِنْ إِعَادَةِ أُسْلُوبٍ بِعَيْنِهِ.

قَالَ السَّكَّاكِيُّ فِي «الْمِفْتَاحِ» بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْعَرَبَ يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ: «أَفْتَرَاهُمْ يُحْسِنُونَ قَرَى الْأَشْبَاحِ فَيُخَالِفُونَ بَيْنَ لَوْنٍ وَلَوْنٍ وَطَعْمٍ وَطَعْمٍ، وَلَا يُحْسِنُونَ قَرَى الْأَرْوَاحِ؛ فَيُخَالِفُونَ بَيْنَ أُسْلُوبٍ وَأُسْلُوبٍ»، فَهَذِهِ فَائِدَةٌ مُطَرِّدَةٌ فِي الْإِلْتِفَاتِ.



ثُمَّ إِنَّ الْبُلْغَاءَ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَيْهَا غَالِبًا، بَلْ يُرَاعُونَ لِلِالْتِفَاتِ لَطَائِفَ وَمُنَاسِبَاتٍ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ النَّقْدِ وَالْأَدَبِ يَسْتَخْرِجُونَ ذَلِكَ مِنْ مَغَاصِهِ " ٣٢٤.

فالحاصل إذا؛ أن للالتفات نوعين من الأغراض، أو نوعين من الأهداف:
 ١- أغراض عامة، يسوغ ذكرها أينما وُجد الالتفات في الكلام البليغ.
 ٢- أغراض خاصة، وهي أسرار تتعلق بالالتفات في موضعه من الكلام البليغ، فليبين ما يتعلق بهما.

أولاً: أغراض عامة؛ يسوغ ذكرها في كل موضع من مواضع الالتفات:
 ١ - تنشيط السامع، وإبعاد الملل والسآمة عنه؛ وذلك بما يحصل من تنقل بين الأساليب وتجنب لرتابة الحديث، واستدعاء بذلك لذهنه بتعدد زوايا الحديث، وتحريك للذهن بالحاجة إلى التفكير في مجرى الكلام.
 ٢ - إظهار القدرة على التصرف في الكلام، والبراعة في استعمال فنونه؛ ذلك أن الالتفات فنٌ بديع من فنونه، والقدرة على استعماله: استعراض لبراعة المتكلم في استعمال فنون اللغة وقدرته على تطويعها!

هذان الغرضان العامان لا يتعلّقان بموضع دون غيره، بل يعمّان الالتفات حيثما وقع في الكلام البليغ.

ثانياً: أغراض خاصة؛ تتعلق بسرّ استعمال الالتفات في الموضع الخاص، وعلاقة ذلك بالسياق الوارد فيه، وهذه تختلف باختلاف محالّه، ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم، ويمكننا أن نرصد من خلال النظر في مواضع استعماله في القرآن أغراضاً شهيرة، نلخص منها ما ذكره بعض



العلماء، وتتلوها بالتمثيل:

١ - قصد تعظيم شأن المخاطب، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ {الاسراء ١٣١}، فإن التأدب في الغيبة دون الخطاب، ألا ترى أن أحدهم لو أراد أن يخاطب الأمير بأمر؛ فإن الأدب قاض بأن يقول له مثلاً: ماذا يأمر الأمير؟ بدل قوله: ماذا تأمر؟

٢ - التنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه كقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {يس ٢٢}، أصل الكلام: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقضيًا له.

٣ - ومنها أن يكون الغرض به: تتميم معنى مقصود للمتكلم، فيأتي به محافظة على تتميم ما قصد إليه من المعنى المطلوب له، كقوله سبحانه: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ {أمرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ {الدخان}، أصل الكلام: (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)، ولكنه وضع الظاهر: (مِّن رَّبِّكَ)، موضع المضمرة: (منا) عبر الالتفات؛ للإندار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للمرئيين.

٤ - قصد المبالغة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ {يونس ٢٢}، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليتعجب منها، ويستدعي منه الإنكار والتقيح لها، إشارة منه على سبيل المبالغة إلى أن ما يعتمدونه بعد الإنجاء من البغي في الأرض بغير الحق مما ينكر ويقبح.



٥- قصد الدلالة على الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَمِيَّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ {فاطر ١}، فإنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دالاً على القدرة الباهرة التي لا يقدر عليها غيره، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم، لأنه أدخل في الاختصاص وأدل عليه.

٦- ومنها قصد الاهتمام، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ {فصلت}، فعدل عن الغيبة في (فَقَضَاهُنَّ) و(أَوْحَىٰ) إلى التكلم في (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)؛ للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب في سماء الدنيا للزينة والحفظ؛ وذلك لأن طائفة اعتقدت في النجوم أنها ليست في سماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً، فعدل إلى ضمير المتكلم والإخبار عن ذلك؛ لكونه مهماً من مهمات الاعتقاد، ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه.

٧- قصد التوبيخ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ {مريم}، عدل عن الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أن قائل مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخاً ومنكراً عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور، لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له ^{٣٣٥}.

تنبيه منهجي:

أحسب أنك تتوقع الملاحظ الذي أودُّ التنبيه عليه؛ فقد مضى أمثال له في مواضع مشابهة؛ ذلك أن هذه الأغراض ليست للحصر، وإنما هي للتمثيل، والحق أن في ذكر الأغراض على هذه الهيئة ومثيلاتها في القلب منه شيء! والذي سوَّغ ذكره أن المقام مقام تعليم، فيحصل للقارئ تقريب للمعاني التي هي كالأمثلة للأغراض الخاصة! لكنه إن فهم الموضوع واستوعبه فحريُّ به أن يغادر إلى فضاءات التدبر، وينظر ما يُعْاث به من المعاني الدقيقة، والإشارات الخفية التي يُفِيدها الالتفات في مواضعه البليغة! وسيأتيك من آفاق ذلك من خلال الأمثلة القرآنية ما يسرُّ خاطر ويردُّ القلب!

الأمثلة القرآنية، الإرشادات التدريبية

قد سبق التمثيل السريع على مواضع من الالتفات، وفيما يأتي أمثلة قرآنية انتقيناها؛ ننظر فيما كتبه الأكابر حولها؛ نفيد منه ونعلّق عليه بما تيسّر، ونُضيف رأينا إن كان لنا فيه رأي، والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المثال الأول:

نبدأ بالالتفات الأول في القرآن، وهو ما جاء في سورة الفاتحة من قوله سبحانه معلماً عباده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ {الفاتحة ٥}، حيث ابتدأ السورة بالكلام عن الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {٢} الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {٣} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} {الفاتحة}، ثم انتقل إلى الكلام مع الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولو جاء الكلام على نسق واحد لقال: "إياه نعبد وإياه نستعين"، لكن لم يحصل ذلك، وإنما عدل عن الكلام بأسلوب الغائب إلى الكلام بأسلوب الخطاب في الآية، فلا يـ معنى بلاغي فعل ذلك؟



يمكنك أن تستحضر أولاً الأغراض العامة للالتفات، فتقول: لتنشيط السامع وإظهار المقدرة على التصرف بالكلام، لكن:

لا يكفيك أيها المفسر المتدبر أن تقف عند هذا الحد العام، بل لا بد أن تُضيف إلى ذلك السر المتعلق بهذا الموضوع للالتفات، بمعنى أو بآخر؛ فلتقل: نعم عرفنا الأغراض العامة للالتفات، لكن لأي معنى اختار هذا الموضوع للالتفات دون غيره من المواضيع؟

ثم تبدأ بعد ذلك بتأمل السياق، واستلال المعاني اللطيفة الدقيقة التي تُغاث بها! نعم؛ "اللطيفة الدقيقة"، فتنبه! نحن لا نتكلم عن معاني ظاهرة، وإنما هي معاني في غاية اللطف والدقة، واستلالها ينبغي أن يكون بمنقاش الذكاء والذوق التفسيري الراقي المتأمل في السياق.

انظر إلى المسلك النموذجي الذي قدّمه لنا الإمام الزمخشري عليه الرحمة في هذا الموضوع ولاحظ أداءه بدقة:

"فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟

قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم^{٣٢٦}، كقوله تعالى^{٣٢٧}: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ)، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ)، وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ ... وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلِيلَةَ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبِيٍّ جَاءَنِي ... وَخُبْرُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

(٣٢٦) بدأ بتعريف الالتفات كما ترى.

(٣٢٧) بدأ هنا بالتمثيل، فمثل عليه من القرآن من مواضع أخرى، ومن الشعر البليغ.



وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنَّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختصَّ مواقعُه بفوائد.

ومما اختص به هذا الموضع ^{٣٢٩}: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلَّق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيقاً بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطوب ذلك المعلوم المتميِّز بتلك الصفات، فقل: إياك يا من هذه صفاته نخصُّ بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدلَّ على أنَّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحقُّ العبادة إلا به ^{٣٣٠}.

رأينا الزمخشري هنا يحدِّد موضع الالتفات، يعرفه، يذكُر أغراضه العامة، ثم يعطي رأيه في السرِّ المتعلق بموضعه الخاص، وهذه الخطوات هي الخطوات التي ينبغي أن تُتبع بشكل عام.

والحقُّ أن هذا الجواب الزمخشريَّ الرائع نموذجيٌّ لا زيادة عليه؛ إلا أن الأمر لما كان مبنياً على الاجتهاد والتدقيق المُعمَل في السياق لاستمطار المعاني أمكننا أن نجد إجابات أخرى تختص بأسرار الالتفات الخاصة بالموضع:

فهذا أبو حيان يقدم لنا إجابة نموذجية كذلك، تشبه إجابة الزمخشري في العموم، وتقدم لنا معنى دقيقاً آخر وجده أثناء تجوال ذهنه حول سرِّ الموضع الخاص، يقول:

"أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِـ (إِيَّاكَ) هُوَ اللَّهُ تَعَالَى! وَقَالُوا: فَإِذْ هَذَا الْإِلْتِفَاتِ: إِظْهَارُ الْمَلَكَةِ فِي الْكَلَامِ، وَالْإِقْتِدَارِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ.

(٣٢٨) بين هنا أغراض الالتفات العامة.

(٣٢٩) بين هنا ما اختص به هذا الموضع بالذات من معاني الالتفات.

(٣٣٠) تفسير الزمخشري، ١/ ١٢.



وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ مَزِيدًا عَلَى هَذَا، وَهُوَ إِظْهَارُ فَائِدَةٍ تَخَصُّ كُلَّ مَوْضِعٍ مَوْضِعًا، وَتَتَكَلَّمُ عَلَى ذَلِكَ حَيْثُ يَقَعُ لَنَا مِنْهُ شَيْءٌ^{٣٣١}، وَفَائِدَتُهُ فِي (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ الْمُتَّصِفِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمُلْكِ وَالْمَلِكِ لِلْيَوْمِ الْمَذْكُورِ، أَقْبَلَ الْحَامِدُ مُخْبِرًا بِأَثَرِ ذِكْرِهِ الْحَمْدَ الْمُسْتَقَرَّ لَهُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ، أَنَّهُ وَغَيْرُهُ يَعْبُدُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ^{٣٣٢}.

وذاك ابن جزري يُدلي بها وجدته ذائقته فيقول:

"ذكر الله تعالى في أول هذه السورة على طريق الغيبة، ثم على الخطاب في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وما بعده، وذلك يسمى الالتفات، وفيه إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه فصار من أهل الحضور؛ فناده"^{٣٣٣}.

هذه ثلاثة آراء متباينة - وإن كانت متقاربة - في تعليل الالتفات، ومن شأن التأمل في صنيع هؤلاء الأكابر أن يفتح آفاقاً للمتدبر، ويضرب له مثلاً في مساحات التفكير في النص واستلال لطائفه.

المثال الثاني:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ {السجدة ١٥}.

المعنى: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا عَظُّوا بِهَا أَقْبَلُوا عَلَيْهَا وَتَفَهَّمُوا مَعَانِيهَا، مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا تَسْوِيفٍ، وَهَبَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ فَوَضَعُوا جَبَاهِهِمْ عَلَى الْأَرْضِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعْظِيمًا لِدَايَةِ الْعَلِيَّةِ،

(٣٣١) عبارات رائعة مليئة علمًا وتواضعًا.

(٣٣٢) البحر المحيط، ٤٢/١.

(٣٣٣) التسهيل، ٦٥/١.



وخوفاً من سطوته وعذابه، وشكراً على ما رزقهم من نعمة الإسلام، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث، وأثنوا عليه لنعمائه جل وعلا التي أجَّلها الهداية إليه عن طريق آياته، والتوفيق إلى الاهتداء، فخلطوا بذلك التسييح بالتحميد، وهم في كل أحوالهم لا يستكبرون عن عبادته وإخلاص الإيمان له، والثناء عليه، لا كما يفعل من يصير مستكبراً كأن لم يسمع الآيات^{٣٣٤}.

هذا المعنى الإجمالي للآية، فهلاً انتبهت إلى موضع الالتفات منها؟
فلنلاحظ النظم: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا) الكلام على أسلوب واحد؛ أسلوب المتكلم بنون العظمة: (بِآيَاتِنَا)، ثم قال: (وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)، أظنك أدركت الانتقال الأسلوبى من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب: (وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)، والأصل لو جرى الكلام على نسق واحد أن يُقال: "وسبحوا بحمدنا"، ليكون على الأسلوب ذاته الذي به بدأ الكلام!

لكننا نلاحظ أنه عدل عن التكلم إلى صيغة الغائب، فما سرُّ ذلك؟ وما المعنى الذي أفاده هذا العدول؛ الذي سميناه التفاتاً؟

يمكنك إن لم تكن عرّفت مستمعك وقارئك من قبل؛ أن تبدأ ببيان معنى الالتفات، وأغراضه العامة، ثم تنتقل بعد ذلك إلى الغرض الخاص، وإن كنت فعلت ذلك واستقرَّ أمره في ذهن القارئ أو المخاطب أن تنتقل إلى بيان الغرض الخاص مباشرة!



قارن بين التعبير القرآني وما يمكن أن يكون عليه الكلام لولا الالتفات، وهذا إجراء تدبري محوري في تذوق الظواهر السياقية القرآنية:
يمكن أن يقال: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا) "وسبحوا بحمدنا"!

ما الذي فاتنا لو جاء التعبير على هذه الهيئة؟
لو جاء التعبير على ما افترضت فستفوتنا فائدة التعبير بعنوان الربوبية المضافة إليهم: (وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)، هل من فرق؟

"التعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم في قوله جل ذكره: (وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) للإشعار بعلّة التسبيح والتحميد، من حيث إنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته لهم" ٣٣٥،
وتعاهد الله تعالى لهم وصناعتهم على عينه! ولولا الالتفات لصاعت الفائدة المذكورة، فسبحان من أنزل هذا الكتاب المعجز المشحون بالفوائد الحسان!

المثال الثالث:

قول الله تعالى من سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣﴾ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ٤ {التحريم ٣}، والكلام في أسباب النزول طويل، وليس هذا محله، لكننا عرفنا منه أن المخاطبتين بقوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ هما: عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما ٣٣٦.

(٣٣٥) التفسير الوسيط، ٨ / ١٢٤.

(٣٣٦) تفسير البغوي، ٨ / ١٦٥.



ويلاحظ المتدبر أن الكلام عنهما كان بضمير الغائب: (وَإِذْ أَسْرَ التَّيِّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا..) الآية، ثم انتقل من بعد ذلك إلى توجيه الخطاب إليهما مباشرة فقال: (إِنْ تَتُوبَا)، وهذا "خطاب لهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في العتاب، فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب بعيداً أولاً عن ساحة الحضور، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)" ٣٣٧.

ويقرب من هذا: المثال الرابع، مع اختلاف في التوجيه، وهو مشهور، ولنذهب إليه مباشرة:

المثال الرابع:

قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۚ﴾ {عبس} الآيات.

والمعنى المعروف من سبب النزول: أنه قد قطب رسول الله صلى الله عليه وسلم جبينه، وأعرض عن ابن أم مكتوم بجسمه أو بترك الإصغاء إليه حينما جاءه يطلب منه أن يقرئه، ويعلمه مما علمه الله ليزداد هداية، فقطع بطلبه كلامه صلى الله عليه وسلم أثناء تشاغله مع أشرف قريش.

والتعير عنه بالأعمى للإشعار بعُدِّهِ في الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم مع القوم ٣٣٨، إذ لو كان يرى؛ ما كان حصل منه ما حصل!

(٣٣٧) انظر: تفسير الزمخشري، ٤/ ٥٦٦، التفسير الوسيط، ١٠/ ١٤٨٥.

(٣٣٨) انظر: التفسير الوسيط، ١٠/ ١٧٨٤.



والالتفات في النص القرآني من مطلع سورة عبس واضح؛ بل لعله أشهر التفاتات القرآن، إذ بدأ النص بالكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم بضمير الغائب: (عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى)، ثم انتقل من بعد إلى خطابه صلى الله عليه وسلم فقال: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي)، فما السر في الالتفات؟

اختلفوا في التوجيه:

فالمشهور أن البدء بضمير الغائب إنما كان للتلطف برسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد اعتاد من ربه الخطاب اللين، انظر مثلاً قوله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم:

• ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۚ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۚ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ {القلم}، وأمثالها من الثناء عليه بالجميل، ووعدته بالنصر والحسن، وما إلى ذلك.

• وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۚ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۖ﴾ {الفتح} الآيات.

ولما كان الأمر على هذا النحو من الرأفة الربانية بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ اختير البدء بضمير الغائب في عتابه؛ لأن ذلك ألطف به، وأرفق بقلبه، ولكأني به صلى الله عليه وسلم إذ تنزل عليه الآيات يقع في قلبه لوهلة أنه ليس المقصود بقوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى ..)، ولكن سرعان ما تبيّن خاطره أنه هو المقصود، وأنه الذي في محلّ المعاتبه، ولما تهيأ خاطره لذلك حسن حينئذ الارتقاء في العتاب، والعتاب أبلغ في الخطاب، فتحوّل إلى المخاطبة لإرادة الارتقاء في المعاتبه؛ فقال: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ..)، وأحسب أن الخطاب ارتقى من بعد مرتبة أخرى باستعمال ضمائر



الخطاب المنفصلة: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٩﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿١١﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿١٢﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٣﴾﴾ {عبس}، ومن المعلوم أن استعمال ضمائر الخطاب المنفصلة- "أنت" هنا- فيه إشعار بأن العتاب قد ارتقى، وأن علامة ارتقائه استعمالها في مخاطبة المعاتب! وهذا أسلوب نستعمله في مخاطباتنا الاعتيادية!

﴿١٤﴾ وذهب آخرون إلى عكس ذلك، فرأوا أن ابتداء الآيات بضمير الغائب هو عنوان الإجلال، وأن الالتفات إلى المخاطبة من بعد إيناس له، اقرأ ما جاء في روح المعاني: "وضمير (عبس) وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلال له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره؛ لأنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم، كما أن في التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاء والإقبال بعد الإعراض، والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وتشاغله بالقوم^{٣٣٩}.

وأنت ترى في هذين التوجيهين خطين متقابلين، كلٌّ منهما باتجاه في تحليل الالتفات، فالأول: رآه ارتقاء في العتاب؛ لأن الخطاب أبلغ في العتاب، والسياق للمعاتبة، في حين ذهب الآخرون إلى أن الالتفات للإيناس من بعد الإيحاء؛ وما أرقاها من عبارة! وإن كان الأول أشهر وأولى، ولكل وجهة هو موليها، وزاوية النظر إلى النص هي المؤثرة، والملكة التفسيرية والذوق البليغ كذلك، والله الموفق من قبل ومن بعد!

(٣٣٩) روح المعاني، الألوسي، ٢٤٢/١٥



المثال الخامس:

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {البقرة ٢١}، قد جاءت هذه الآية بعد ذكر أصناف الناس في مطلع سورة البقرة؛ إذ قد ذكر ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ {البقرة ٢}، وفصل في صفاتهم، وانتقل من بعد إلى ذكر الصنف الثاني من الناس، وهم الذين كفروا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ {البقرة ٦}، وانتقل من بعد إلى ذكر المنافقين وأطال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ {البقرة ٨}، والآيات، وقد جرى ذكر كل ذلك بضمير الغائب، فالكلام إنما هو عنهم! لكنه في الآية هنا خاطبهم مخاطبة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا)، فما السر في ذلك وما المعنى المترتب عليه؟

فلنترك الإجابة لشيخ البلاغة من المفسرين الإمام الزمخشري رحمه الله يمتعك بتحليلاته: "لما عدّد الله على فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند الله ويردّيها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وهو فنٌّ من الكلام جزل، فيه هزٌّ وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إنّ فلاناً من قصّته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيهه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الأذان للاستماع، ويستتهش الأنفس للقبول" ٣٤٠.



لله در الزمخشري!

وللإمام الفخر الرازي إدلاء رائع كذلك وتفصيل حقيق بالنظر، إذ بين أن لهذا الالتفات فوائد متعددة، أولها: ما جاء به الزمخشري، وقد ذكره الرازي ملخصاً وزاد عليه وجوهاً:
"المسألة الأولى: أن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة، أعني المؤمنين والكفار والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب، وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وفيه فوائد:

أحدها: أن فيه مزيد هز وتحرّيك من السامع كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث: إن فلاناً من قصّته كيت وكيت، ثم تخاطب ذلك الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تسلك الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور يوجب مزيد تحرّيك لذلك الثالث.
وثانيها: كأنه سبحانه وتعالى يقول: جعلت الرسول واسطة بيني وبينك أولاً ثم الآن أزيد في إكرامك وتقريبك، فأخاطبك من غير واسطة، ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة، شرف مخاطبة والمكاملة.

وثالثها: أنه مشعر بأن العبد إذا كان مشتغلاً بالعبودية فإنه يكون أبداً في الترقّي، بدليل أنه في هذه الآية، انتقل من الغيبة إلى الحضور.

ورابعها: أن الآيات المتقدمة كانت في حكاية أحوالهم، وأمّا هذه الآيات فإنها أمر وتكليف، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من بين ويخاطبهم بذاته، كما أن العبد إذا ألزم تكليفاً شاقاً فلو شافهه المولى وقال: أريد منك أن تفعل كذا فإنه يصير ذلك الشاق لذيقاً لأجل ذلك الخطاب" ^{٣٤١}.

ولله در الآخر!

(٣٤١) تفسير الرازي، ٢/ ٣١٩، وقريب منه ما جاء في تفسير أبي السعود: ١/ ٥٨، إلا أن عبارة أبي السعود أحكم



المثال السادس:

ومن الالتفات كذلك ما جاء في سورة النبأ من قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ {النبأ ٣٠}، تأمل السياق قبلها: ﴿لِلظَّالِمِينَ مَا بَأْسًا ۖ لَا يَتَيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۖ جَزَاءً وَفَقًا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ {النبأ ١٨}، إلى هنا تلاحظ أن الكلام كله عنهم بضمير الغائب، ولكنه انتقل من بعد إلى خطابهم بضمير المخاطب في قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وواضح أن مضمون الجملة من التوبيخ والتشريب والتفريع يناسبه مباشرة الخطاب؛ لما في ذلك من جلد قلوبهم وتأنيب نفوسهم الآثمة: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وقد أعان على تحقيق مقصود الجملة مجموعة من الأدوات اللفظية والسياقية، اقرأ ما كتبه الزمخشري حول ذلك في تفسيرها:

"وقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ مسبب^{٣٤٢} عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، وهي آية في غاية الشدة، وناهيك بـ "لن نزيدكم"^{٣٤٣}، وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، وبمجيئها على طريقة الالتفات: شاهدًا على أن الغضب قد تبالغ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»^{٣٤٤}.

(٣٤٢) الفاء للسببية، وهي تفيد أن مخاطبتهم بكل هذا التفريع، واستحقاقهم للعذاب مسبب عن كفرهم المحكي من قبل.

(٣٤٣) فـ "لن" أقوى أدوات النفي، ويرى الزمخشري أنها تفيد النفي على التأبيد..

(٣٤٤) تفسير الزمخشري، ٤/ ٦٩٠..



المثال السابع:

سأزيدك من جنس هذا المثال مثلاً من كلام المفسر النحوي الإمام أبي حيان الأندلسي رحمه الله ،
يعلل فيه كون الخطاب أبلغ في العتاب؛ يقول عند تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {البقرة
٢٨}:

"وهذا الخطاب فيه التفات، لأنَّ الكلام قبل كان بصورة الغيبة، ألا ترى إلى قوله:
(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) إلى آخره؟

وفائدة هذا الالتفات أن الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجهه إلى الغائب؛ لجواز أن
لا يصله الإنكار، بخلاف من كان مخاطباً، فإنَّ الإنكار عليه أزدع له عن أن يقع فيما أنكر عليه" ٣٤٥.

المثال الثامن:

قد تجتمع الفوائد في الالتفات وتعدد، انظر قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ {النور ٢٤}: (سَمِعْتُمُوهُ) خطاب للمؤمنين، ولو
استمرَّ الكلام على الطريقة نفسها لقال: "لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً"، لكننا نلاحظ أنه
عدل عن ذلك على طريقة الالتفات إلى الغيبة فقال: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا)، فلنقرأ ماذا سطر الزمخشري فيها وماذا أفاد:

"(بَأَنْفُسِهِمْ) أي بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ {الحجرات
١١}، وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت:



لو كنتَ بدل صفوان أكنتَ تظنُّ بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً؟ قال: لا، قالت: ولو كنتَ أنا بدل عائشة رضى الله عنها ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك" ٣٤٦.

فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم: ..؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟

قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرِّح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن" ٣٤٧.

هذه إذاً مجموعة من الفوائد:

- المبالغة في التوبيخ؛ على نسق المثالين السابقين.
- التصريح بلفظ الإيمان، ألا ترى أنه لو قال: "ظننتم بأنفسكم خيراً" لفاتنا التعبير بلفظ الإيمان؟! ثم قد أفادنا الصريح بلفظ الإيمان فوائد؛ أهمها: "أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمنٌ على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن".

ويمكن أن نزيد فائدة فنقول:

الالتفات هنا والعدول عن ضمير المخاطبة إلى ضمير الغيبة حول هذا التوجيه الخاص في الواقعة المعينة إلى قاعدة عامة يعمل بها المؤمنون والمؤمنات؛ لا في هذه الحادثة فحسب؛ بل في كل حادثة إلى قيام الساعة، فصارت كأنها قاعدة في التعامل مع مثل هذه الإشاعات القاصدة إلى النيل من المؤمنين والمؤمنات.

(٣٤٦) أخرجه الطبري في تفسيره، ١٩/١٢٩، وانظر: تفسير البغوي، ٦/٢٧

(٣٤٧) تفسير الزمخشري، ٣/٢١٨.



وبعد؛

فأحسب أنه وقعت الكفاية فيما تم التمثيل عليه من المواضع القرآنية، وأمامك النصُّ القرآنيُّ فيه مجالٌ واسعٌ وساحةٌ فسيحةٌ للتطبيق واقتناص الأمثلة، وستجدُ في التفاسير خيرَ عونٍ في التمثيل والتحليل، فانطلقْ في تذوق الأمثلة وتسجيل فوائد الالتفات؛ والله الموفق وهو المستعان.

إضافات الدراس:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، أحمدوه وهو أهل للحمد، وأشكروه وهو المتفضل بمحض الإنعام، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ {الاعراف ٤٣}، يا ربِّ صلِّ وسلِّم على حبيبك محمد وعلى آل والصحاب الكرام والتابعين، وعلى العلماء العاملين والدعاة الربانيين، وافتح علينا أسرار كتابك؛ علمنا منه ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا، وزدنا علماً وفهماً وتقى، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار، وفهمه وتدبره والعمل بما فيه يا كريم يا غفار!

وبعد؛

فقد أمضيت في ظلال البلاغة القرآنية المعجزة وقتاً أشبه بالوقت الذي يمضيه أهل الجنة في الجنة؛ كأني في رياض الجنة أرتع، لا حرماناً لله لذة التفكير في كتابه ولا متعة تدبر كلامه؛ إنه كريم رحيم! حرصت في سيري في تلك الرحاب الطاهرة على تسليم كل من الموضوعات المختارة متكاملةً إلى طالب التفسير وقاصد سبيل التدبر؛ بحيث يطلع على تفاصيل السير الإجرائي عند استنباط اللطائف والفوائد من مباحث البلاغة القرآنية، ويتدرب على ذلك عبر التمثيل المنوع من آيات القرآن.

اقتفاءً عبارات المفسرين في كثير من الأمثلة كان مقصوداً لا اعتبار أن الكتاب يهدف إلى التدريب التدبري وتطوير ملكة التفسير، ومفتاح هذا الأهم: اعتياد كلام المفسرين وارتياذ كتب التفسير المتخصصة.

رأيت في هذا العمل العلمي أن أكتفي بهذه المباحث المهمة من أبواب البلاغة المتنوعة لاعتبار كثرة ورودها في طريق المفسر، وشدة حاجة المتدبر لها، والنية - إن شاء الله، ومنه العون - أن أعود في كتاب آخر لتناول مناح أدبية متعلقة بالنص؛ تشتد الحاجة إليها، وتعين على تذوق جمال النص القرآني، على منهاج هذا الذي قرأت، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وبعد؛ فهذا إسهام في خدمة العمل القرآني في ظلّ صحوة قرآنية راشدة، أسأل الله تعالى أن يقبله في الأعمال الصالحة، وأن يكتب له القبول بين العلماء والقراء، إنه رحيم ودود!

د. رافت محمد رائف المصري
المشرف العام على مؤسسة مدارج

- ١- أساليب البيان، د. فضل حسن عباس، ط ١، دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧ م.
- ٢- أسلوب التقديم والتأخير في القرآن، زيد عمر عبدالله العيص، المملكة العربية السعودية - الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- ٣- أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، د. سامي عطا حسن.
- ٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٥- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص - سورية، دار اليمامة، دمشق - بيروت، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط ٤، ١٤١٥ هـ.
- ٦- الإلتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.
- ٧- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجليل، بيروت، ط ٣.
- ٨- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- ٩- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ثم صورته دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
- ١٠- البلاغة العربية، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ١١- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع - الأردن، ط ٤، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

- ١٢- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤.
- ١٤- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
- ١٥- التعبير القرآني، فاضل صالح مهدي بن خليل البدري السامرائي، دار عمان، عمان، ط ٤، ٢٠٠٦ م.
- ١٦- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، لمحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ١٧- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، أصله تحقيق في (١٥) رسالة دكتورة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ١، ١٤٣٠ هـ.
- ١٨- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي - القاهرة.
- ١٩- التفسير الوسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٢٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ٢١- التفسير والمفسرون، د. محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٢٢- التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، ١٩٩٢ م.
- ٢٣- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

- ٢٤- الرسالة، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، المحقق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط ١، ١٣٥٨ هـ / ١٩٤٠ م.
- ٢٥- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ١٢٨٥ هـ.
- ٢٦- الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، لمحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ.
- ٢٧- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالب الملقب بالمؤيد بالله، المكتبة العنصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- ٢٨- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، الإمام الحجة شمس الدين أبي عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي، ط ١، ١٣٢٧ هـ.
- ٢٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل / تفسير الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ.
- ٣٠- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، لمحقق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٣١- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ م.
- ٣٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- ٣٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ.

- ٣٤- المفسر، شروطه وآدابه ومصادره، أحمد قشيري سهيل، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٢٩هـ.
- ٣٥- الموسوعة القرآنية، ابراهيم بن إسماعيل الإبياري، مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥ هـ.
- ٣٦- النظم القرآني في آيات الجهاد، ناصر بن عبدالرحمن بن ناصر الحنين، مكتبة التوبة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٣٧- إيضاح الوقف والإبتداء، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، المحقق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
- ٣٨- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٣٩- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، ط ٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٤٠- تفسير الإمام ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله، المحقق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية - تونس، ط ١، ١٩٨٦م.
- ٤١- تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.
- ٤٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩م.
- ٤٣- تفسير أبي السعود/ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٤- تفسير آيات الأحكام، محمد علي السائيس، المحقق: ناجي سويدان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م.

- ٤٥- تفسير البغوي / معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٤٦- تفسير البضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.
- ٤٧- تفسير الخازن / لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشياحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- ٤٨- تفسير الرازي / مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، ابن خطيب الري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
- ٤٩- تفسير السمعاني / تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التيمي الحنفي ثم الشافعي، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض - السعودية، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٥٠- تفسير الطبري / جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٥١- تفسير العز بن عبد السلام / تفسير القرآن، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

- ٥٢- تفسير المنار/ تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- ٥٣- تفسير النسفي/ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٥٤- تكوين ملكة التفسير، د. حاتم بن عارف العوني، مركز نهاء للبحوث والدراسات، بيروت، ط١، ٢٠١٣ م.
- ٥٥- تلخيص المفتاح، الإمام العلامة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، مكتبة البشري، ط١، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- ٥٦- حاشية ابن المنير على الزمخشري (الانتصاف)، ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري المالكي؛ على هامش تفسير الكشاف.
- ٥٧- حاشية الشهاب: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، تحقيق: محمد الصباغ، دار الطباعة العامرة، مصر - بولاق، ط١، ٢٠٠٠ م.
- ٥٨- خصائص التركيب؛ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة/ أميرة للطباعة، مصر - القاهرة، ط٤، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٥٩- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٦٠- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

- ٦١- دلالات التركيب: دراسة بلاغية، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة دار التضامن للطباعة مصر - القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م..
- ٦٢- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار الفكر، بيروت.
- ٦٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبدالله الألوسي، المحقق: علي عب الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
- ٦٤- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ٦٥- صحيح البخاري/ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ٦٦- عقود الجمان في علم المعاني والبيان، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق وضبط: عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ٦٧- علوم البلاغة "البيان، المعاني، البديع"، أحمد بن مصطفى المراغي.
- ٦٨- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، حمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، شهاب الدين الشافعي ثم الحنفي، دراسة وتحقيق: محمد مصطفى كوكصو (رسالة دكتوراه)، جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية - تركيا، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٦٩- غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء، دار القبة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.
- ٧٠- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.

- ٧١- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط ١، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
- ٧٢- مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، مكتبة وهبة، مصر - القاهرة، ط ٧، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٧٣- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ٧٤- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ٧٥- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٧٦- معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٧٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، ط ٦، ١٩٨٥ م.
- ٧٨- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون المغربي، المطبعة الشرفية، ط ١.
- ٧٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل، حمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- ٨٠- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٣.
- ٨١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

الشكر	٣
المقدمة	٤
المبحث الأول: المقدمات العامة	١٠
أولاً: الملكة التفسيرية	١١
أسباب تكوين الملكة التفسيرية	١٢
نتائج تكوين الملكة التفسيرية	١٦
ثانياً: أساليب البيان في القرآن الكريم	١٧
ثالثاً: حاجة المفسر إلى دراسة علم البلاغة ومعرفة وجوه افتتان العرب في تأدية المعاني	٢١
رابعاً: مباحث علم المعاني	٢٧
المبحث الثاني: الجملة العربية	٣١
المطلب الأول: تعريف الجملة العربية وترتيبها	٣٢
الترتيب الأصيل للجملة العربية	٣٣
ملاحظة منهجية	٣٤
حالات تقديم بعض العناصر على بعض	٣٥
فائدة	٣٥
أحوال تقديم المفعول به على الفعل والفاعل معا	٣٦
أحوال تقديم المبتدأ	٣٧
المطلب الثاني: تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء	٤٠
تعريف الخبر	٤٠
تعريف الإنشاء	٤١
مسائل مهمة	٤٢

٤٣	التنبیه على مهارة
٤٤	أمثلة
٤٥	قاعدة الباب
٤٦	السؤال المهاري
٤٨	المطلب الثالث: الجملة الاسمية والجملة الفعلية
٥٠	فائدة
٥١	أمثلة قرآنية
٥٥	قاعدة
٥٦	قاعدة لطيفة المأخذ
٥٩	المبحث الثالث: التقديم والتأخير
٦٢	أنواع التقديم والتأخير
٦٣	ملخص وفذلكة للمبحث
٦٦	أسرار التقديم والتأخير
٦٧	كيف أصل إلى فهم أسرار القرآن
٦٩	المطلب الأول: التقديم الاصطلاحي صورته وأمثلة
٦٩	أولاً: تقديم الجار والمجرور على متعلقهما
٧٢	ثانياً: تقديم المفعول على الفعل
٧٤	التنبیه على مهارة
٧٦	التنبیه على مهارة
٧٦	تقديم المفعول لمقتضيات لغوية
٧٨	تقديم المفعول لمراعاة الفاصلة القرآنية

أمثلة للمدارسة	٨٠
التنبه على مهارة	٨١
تدريبات قرآنية: التقديم الاصطلاحي	٨١
المطلب الثاني: التقديم غير الاصطلاحي	٨٣
أولاً: التقديم للأهمية والفضل	٨٥
ثانياً: التقديم للأسبقية الزمنية	٨٧
ثالثاً: التقديم بالغلبة والكثرة	٨٩
مثال تدريبي للمناقشة	٩٠
التنبه على مهارة	٩٢
رابعاً: تقديم السبب على المسبب	٩٢
خامساً: تقديم ما يناسب السياق وما يقتضيه المقام	٩٤
تدريبات	٩٩
المبحث الرابع: الحذف	١٠١
شرط الحذف	١٠٤
سبب الحذف	١٠٦
كيفية دراسة موضوع الحذف	١٠٦
أولاً: حذف المبتدأ	١٠٩
الأمثلة التدريبية ومناقشتها	١٠٩
تمرين	١١٦
ثانياً: حذف الخبر	١١٧
أغراض حذف الخبر	١١٧

أولاً: ظهوره وعدم الحاجة إلى ذكره	١١٧
ثانياً: تقوية المعنى بتعدد وجوه التقدير	١٢٠
ثالثاً: أن يتعلق بحذف الخبر فوائد ومعانٍ إضافية	١٢١
رابعاً: مما تكرر حذفه في القرآن: حذف الخبر في المقابل أو المعادل	١٢٤
أمثلة تدريبية من كلام المفسرين	١٢٨
تمارين أخرى للتدريب	١٣٠
ثالثاً: حذف الفاعل	١٣٢
أغراض حذف الفاعل	١٣٢
مثال للتأمل والمدارسة	١٣٩
تنبيه على مهارة	١٤٢
مدارسة تفسيرية	١٤٤
فائدة في قاعدة مناسبة لهذا المثال	١٤٦
حذف المفعول	١٤٧
أولاً: اعتياد حذف المفعول مع بعض الأفعال	١٤٧
ثانياً: حذف المفعول للعلم به	١٤٩
ثالثاً: حذف المفعول لإفادة العموم	١٥٠
قاعدة في حذف المفعول	١٥٢
رابعاً: حذف المفعول لإتاحة فسحة للذهن أن يتصور المحذوف بما يناسب السياق	١٥٧
خامساً: فوائد أخرى يستلها ذهن عند التأمل في السياق	١٦١
تنبيه على مهارة	١٦٦
خامساً وسادساً: حذف الصفة أو الموصوف	١٧٣

١٧٣	حذف الصفة
١٧٥	مثال قريب للمناقشة
١٧٦	استخلاص وتنبيه على مهارة
١٧٧	فائدة تفسيرية
١٧٩	حذف الموصوف
١٨٦	سابعاً: حذف جواب الشرط وجواب: "لو" و "لولا"
١٨٧	أغراض الحذف
١٨٩	تنبيه على مهارة وفائدة حقيقية بالنظر
١٩٤	تمثيل
١٩٧	ثامناً: حذف جواب القسم
١٩٨	فائدة
٢٠٠	التنبيه على المهارة
٢٠٠	تمثيل
٢٠٦	أمثلة قرآنية على حذف جواب القسم
٢١٥	أمثلة للنظر والتدريب
٢١٧	المبحث الخامس: التوكير والتعريف
٢١٨	التوكير
٢١٩	أسباب التوكير وأغراضه
٢٢٢	أمثلة تدريجية وملاحظة منهجية
٢٢٨	التعريف
٢٢٩	أولاً: التعريف بالضمير

٢٣٠	ثانياً: التعريف بالصلة
٢٣١	قاعدة التعريف بالصلة
٢٣٣	فائدة إضافية
٢٣٥	ثالثاً: التعريف باسم الإشارة
٢٤٠	أنواع أسماء الإشارة
٢٤٣	مثال تدريبي للمناقشة والمدارسة
٢٤٤	القاعدة
٢٤٥	رابعاً: التعريف بـ "ال"
٢٤٩	أمثلة للتدريب والتدارس من كلام المفسرين
٢٥٥	المبحث السادس: التضمن
٢٥٦	تعريف التضمن والفائدة من استعماله
٢٥٩	الأمثلة القرآنية والإرشاد التدريبي
٢٦٥	لطيفة بديعة
٢٦٨	ملاحظة منهجية
٢٧٢	المبحث السابع: الالتفات
٢٧٣	تعريف الالتفات
٢٧٥	صور الالتفات
٢٧٧	فوائده وأغراضه
٢٨١	تنبيه منهجي
٢٨١	الأمثلة القرآنية والإرشادات التدبرية
٢٩٦	الخاتمة
٢٩٨	المراجع

